

وليد حسن المدني

رواية

ديار ياسين

فريق
متميزون



E-BOOK

دارك

مكتبة فريق_متميزون.

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمة مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي. وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق متميزون-

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

دير ياسين

رواية..

الكاتب: وليد حسن المدني

عن الرواية..

ترك ياسين بلدته صغيراً، لا يعلم أي مصير في انتظاره؛ وجد فيها الحب الصادق، ظناً أن حبهما يمكن أن يكون ثمرة للتعايش بين العرب واليهود في قرية دير ياسين، ولكنه لم يدرك أنها نار لا تُبقي ولا تذر.

عاش وكبر في تلك القرية الصغيرة ومن أجلها قاوم وقاتل حينما هاجمتهم عناصر من عصاباتي (الأرجون وشتيرن). ورغم المقاومة إلا أن المهاجمين استعادوا قوتهم بعد وصول المساعدات وتمكنوا من الاستيلاء عليها وفتح الأعيرة النارية دون تمييز بين رجل أو طفل أو امرأة.. فلم تكن معركة بل كانت مذبحاً. ويتبقى لنا السؤال الأخير: بأي ذنب قتل هؤلاء الأبرياء؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



والقدس تعرف نفسها اسأل هناك الخلق يَدُلُّكَ الجميعُ، فكلُّ شيءٍ في المدينة ذو لسانٍ، حين تَسأَلُهُ، يُبَيِّنُ.

- تميم البرغوثي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



تمهيد

(1)

شجرة الزيتون

بيت المقدس - أورشليم

(2 أكتوبر - تشرين الأول 1187م)

وقف أهل البلدة القديمة على أبوابها في انتظار رؤية الجيوش العربية وهي تعبر أبواب القدس بعد حصار دام ستة أيام، لم تستطع فيها قوات الفرنجة الصمود أمام حصار الجيوش العربية بقيادة الناصر صلاح الدين.

كان يوماً مشهوداً خرج فيه الرجال والنساء من بيوتهم إلى الأسواق للاحتفال بالقائد العربي الفاتح؛ فبعد معركة حطين وأهل البلدة القديمة لا يشغلهم إلا يوم دخول القائد العظيم بلدتهم، بعد احتلال دام أكثر من ثمانية وثمانين عاماً تعود الأرض إلى أصحابها.

لم أكن نبتُ حينها، بل كنتُ ما زلتُ ثمرة صغيرة في يد طفلٍ من أهل بيت المقدس، أقتطفها من غصن شجرتي الأم، وتشبث بها كأنها أمله الوحيد في الحياة، بينما يحمله أبوه على كتفيه يشاهد من أعلى التل الجيوش العربية وهم يدخلون من أبواب المدينة العتيقة.

مع زيادة الحشود والزحام، زاد تدافع الناس خصوصاً بعد ظهور صلاح الدين على صهوة جواده، حينها اختل اتزان الصبي من على كتف أبيه وكاد يسقط على الأرض. حاول الصبي أن يحافظ على توازنه، وبحركة غير إرادية تشبث بكلتا يديه الصغيرتين - اللتين كانتا ممسكتين بي - بذراع والده وافتقدني إلى الأبد. ولكن بعض الفقد يكون ميلاداً جديداً.

كنت أستمع حينها إلى صوت بكاء الصبي الصغير على ثمرته، التي كانت كل ما يمتلك من هذه الدنيا، شاركته البكاء وأنا أشعر بأقدام المارة من فوق، المهرولين، تغرسني في باطن الأرض.

حاول الصبي عبثاً العثور عليّ وسط خضم هذا التدافع دون جدوى، كنت أستمع إلى أنينه على فقدي، ذلك الأنين الذي لفت انتباه السلطان صلاح الدين فلتقت إليه يواسيه بينما كانت السعادة بادية على وجه أبيه لاهتمامه بصغيره وهو يفسر له الأمر على استحياء.

- لقد فقد ثمرة زيتون كان يلعب بها.

دنا منه صلاح الدين بابتسامته المشرقة، رَبَّتْ على كَتِفِهِ، وهو يتأمل عينيهِ البريئتين ويقول له:

- لا تحزن يا صغيري، غداً تثبت تلك الثمرة شجرة كبيرة، تلقي بظلالها عليك عند اشتداد وهج الشمس، بعد أن يعم السلام على أرض بيت المقدس بأكملها، تذكر مكانها وسنأتي إلى زيارتها يوماً ما.

كانت كلماته تحمل لي الأمل في الغد، فقد كان وعداً صادقاً فكل من مرَّ هنا عاد إليها مرةً أخرى، فالقدس تقبل كل من أتاها كافرًا كان أم مؤمناً. ولكن السلام لم يأت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

احتقلت السماء بفتح بيت المقدس فهطلت الأمطار ومعها شعرت بجذوري تخرج من رحمي تثبتني في باطن الأرض المبتلة، حتى رأيت فروعني ضوء النهار لأول مرة.

نبته صغيرة على تلال المنطقة الغربية للقدس الشريف، شاء قدرها أن تكون شاهدة على تقلبات الدهر وأحداث جسام ولكن ما زال صوت بكاء الصبي الصغير ترنو في أذني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



2))

أسطورة

تقول الأسطورة منذ قديم الزمن أنه في عهد سيدنا نوح، قضى ربك أن يغرق الكافرين ويُنجي المؤمنين من الطوفان العاتي، فنجا سيدنا نوح ومن آمن معه - الذين ركبوا في السفينة - وكان الماء يُغطي سطح الأرض، وبعد انتهاء الطوفان العظيم، أطلق نبي الله نوح من سفينة المؤمنين حمامة بيضاء لعلها تأتي بما يُفيد انكشاف الماء عن الأرض، وبعد حين رجعت الحمامة إليه وهي تحمل في فمها غصناً من أوراق الزيتون، فعرف عندها أن غضب الله قد سكن، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت أشجار الزيتون رمزاً للسلام والأمن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(1931-1933)

الفصل الأول

(1)

(مدينة اللد - Til)

8 أبريل - نيسان 1931

يسير بنا القدر لا نعلم من أين ولا إلى أين نذهب، يتوهم الإنسان أنه يخلق أفعاله، فيتشددق بها رجال الفلسفة، متغنين بقدرة العقل على الخلق، بينما جميعنا في النهاية تقودنا يد الزمن إلى قدر محتوم، كذلك اليد القابضة على ذراع صغيرها منذ أن غادرت المنزل في الصباح بينما الصغير الذي كان منشغلاً عنها بركل الحجارة في الشارع لا يعبأ من هم الدنيا إلا الإفلات من قبضتها، وهي من فترة إلى أخرى تجذبه من ذراعها، تعيده إلى جعبتها.

طوال الطريق وأمه تحاول أن تسمعه كلاماً ربما لا يقدر عقل طفل في العاشرة من عمره على استيعابه، سمع لأول مرة كلمة (تحمل المسؤولية)، كانت دائماً تخشى تصرفاته خصوصاً عندما كان يطرق بابها جار يشكو لها من تصرفاته بعد أن ضرب ابنه أو أتلف واجهة محل في الشارع، تحاول أن تطيب خاطره بكلمتين متوعدة للصغير - المختبئ خلف أريكة قديمة - بالضرب والعقاب عند عودة أبيه.

الآن سيترك الحي كله، ولن يجلب لها مشاكل مع أحد من الجيران مرة أخرى، بعد ما سمعه من كلام أمه مع جارة لها صباح اليوم أنها ذاهبة إلى معارف لزوجها في قرية بعيدة، ما بات يتذكر من اسمها إلا أنه يحمل نفس اسمه (ياسين)، ولكن كلمات أمه إلى تلك الجارة ما زالت عالقة في ذهنه.

- لقد ضاق الحال علينا وتخلي عنا القريب قبل الصديق، ولم يعد لنا مكان في (اللد).
سنغادر في الصباح إلى القدس، أصدقاء كان بينهم وبين زوجي معرفة قديمة وأوصاني بالذهاب إليهم إذا أشئت علينا الحال.

صمنت برهه قبل أن تكمل:

- وهل أصعب من جفاء وغدر الإخوة!

قالتها ثم تنهدت، التفتت إلى الصغير الذي لاحظت وجوده ولم تكن تريده أن يسمع الحوار. حتى زيارة أخيها والتي لم تنقطع الدموع من عينيها بعدها، لم تشأ أن تُخبر بها أحداً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولدت وداد في عائلة تاجر غلال وحبوب ثري من مدينة اللد. اشتغل والدها بتلك المهنة التي ورثها عن أجداده، وكان كل أمل في الحياة أن يورثها إلى ابنه لذلك لم يتوان أن يتزوج بعد وفاة أمها مباشرة أملاً في إنجاب ابن يرثه، رُزق من زوجته الثانية بنت اسمها أحلام قبل أن يهديه القدر ابنه رشيد الذي اعتمد عليه منذ نعومة أظفاره في تجارته، علمه كل كبيرة وصغيرة فيها، كان يعول عليه كثيراً في أن يحمل أعباء التجارة بعده وينميتها.

نشأت غريبة في بيت والدها، كانت تشعر بالتفرقة في معاملة زوجة أبيها بينها وبين أخويها غير الأشقاء، لم يهتم والدها لأمرها بمجرد أن ولد رشيد، أعطاه كل اهتمامه، وعندما كانت تعاتبه يقول لها: «إنه سندكم في الدنيا بعد وفاتي».

لم تشعر بالحب في حياتها إلا عندما التقت عيناها في عيني قاسم؛ شاب من اللد ينتمي لعائلة أفندية، لا يهتمون بالتجارة كل همهم هو الوظائف الإدارية التي كانوا يشغلون أعلاها. وقع قاسم في حب وداد منذ اللحظة الأولى، شاب مهذب رقيق، شاعر مرهف الحس، أمطر ليايلها بقصائد حبه، ولكن هذا لم يكن يرضي والدها، أراد أن يطمئن عليها مع رجلٍ غنيٍّ، تاجرٍ آخر يشاركه في تجارته ويوسع دخله ويضمن مستقبلها. كانت أول مرة تعرف فيها وداد مواطن قوتها، وقفت أمام الجميع ورفضت الزواج، حاربت من أجل حبتها فأذعن لها الأب على مضض بعد إلحاح من زوجته التي باتت تتأفف من تصرفات وداد، انتقلت إلى بيت زوجها وهي تعلم أنها ربما تكون خسرت أهلها إلى الأبد. ولكن كفى به أهلاً لها.

عاشت حياة هادئة مع قاسم، على اليسر والعسر لم تنتقل كاهله بطلبات. شاعر تطرب لقوله الأذان، يعمل موظف ببلدية اللد، راتب قليل ولكنه يكفي، وكانت تحمد الله عليه، اكتفت به حتى نسيت أهلها جميعاً، حتى بعد أن أنجبت ياسين لم يحن أبوها عليها أو يصفح عنها، كانت تعلم مدى تأثير أخيها عليه، يقطع بينهم كل أوامر العودة، خصوصاً بعد أن تزوج وأنجب له الحفيد الذي يتمناه ليستمر نسل العائلة.

ما عادت تعلم عن أمرهم شيئاً، إلا ما جمعتها الصدفة به، فعلمت قبل سنوات بخبر زواج أختها من تاجر غني، متزوج بأولى ولكن كان على تجارة مع والدها فتوسط رشيد في تلك الزيجة التي وسعت تجارتهم، لم تتجب منه أحلام فظهر أنها عقيمة فتركها على ذمته إكراماً للتجارة التي تجمعها مع عائلتها.

حتى خبر وفاة والدها علمت به من الأعراب، لم تحضر جنازته، لم تمسح ماء غسله، ذهبت إلى بيت أبيها ويعلو عويلها على فقدان الأب، دخلت في عتاب وجدت أنه ليس منه طائل مع أخويها، رشيد يتصرف بكل تعالٍ معها، لم يكن ينقصه إلا طردها من البيت، أحلام كانت مشغولة عنها بصبيبة صغيرة، تعاني مرضاً عقلياً، علمت بعد ذلك أنها ابنة زوجها والذي توفيت زوجته الأولى وتبنتها أحلام، تبنتها حتى بعد زواج أبيها للمرة الثالثة طمعاً في الولد.

حتى شعرت أنها غير مرغوب في تواجدها في البيت، غادرته عازمة ألا تعود إليه مرة أخرى.

وقف أمامها قاسم أكثر من مرة عندما فاتحته في أمر ميراثها، تحتاج منه أن يقف في وجه أخيها يطالبه بحقها الشرعي في الميراث، ولكنه كان دائماً يرفض، يخاف أن يظن الناس أنه طامع في ميراثها، سيستغل أخوها الأمر لحرمانها منه، كثيراً ما رددها على مسامعها:

«أنتم إخوة، اتفقوا معاً أفضل دون تدخلتي».



2))

وقف ياسين على محطة القطار لأول مرة في حياته وسط المسافرين. طفلاً صغيراً ينشبت بجلباب أمه الأسود يخاف أن يضل عنها - بعد أن شعر بالغرابة بمجرد أن غادر الحي - بينما تحمل هي أخته الصغيرة على كتفيها، عيناها الزائغتان يميناً ويساراً تفضحان أمرها، وكأنها تهرب من شيء ما، تشعر برجفة لص اقتراب منه شرطي عندما يسألها أحد عن شيء أو يقترب منها حملاً يطلب حمل الحقيبة عنها، تضم صغيرها إليها بقوة، بينما يدها الأخرى تمسك بطفلتها على كتفها وكأن الجميع يحاول اختطافهم منها.

صور المسافرين من حوله لا تفارق ذهنه، شعرَ بوخزة في قلبه من شيء ما يجله، تأمل وجوههم الحمراء الأجنبية من حوله، وكأنه الغريب عن البلد وليس هم، كانت أول مرة يشاهد كمية الأجانب تلك على محطة القطار حيث كان حيّه بالكامل يسكنه العرب، مشاهد الوداع على رصيف القطار كانت تثير إعجابه، ولكن لم يودعهم أحدًا مثلهم!

نساء ورجال يهود - كذلك سمع من أمه - يملأون جنبات المحطة، المدينة تمتلئ بالأجانب أصحاب البدلات الأجنبية ورباطات العنق الأنيقة، ونساء تغطي رؤوسهن برانيط راقية تتدلى منها شبكات سوداء خفيفة تغطي أعينهم الزرقاء، ولكنها لا تحجب رؤية لونها، يقفون جماعات بينما هم بمفردهم، فيشعر بالغرابة! تنورات فوق الركبة لم يألّفها على عكس ماكانت ترتديها أمه من جلاباب أسود طويل يغطي معالم جسدها كله، لم تخلعه منذ وفاة والده.

على الرصيف المقابل تحرك قطار كان قد وصل منذ لحظات، كان يحجب أعداداً من الجنود البريطانيين، يسرون في صفين متوازيين بملابسهم الميري تعلوها البنادق، يتقدمهم قائدٌ، عجب لنظامهم، يبدو أنهم غادروا القطار لتوهم.

بينما يقف يتأمل تلك اللافتات التي تحمل عدة لغات متجاورة (العربية بجوار العبرية والإنجليزية فوق الأسهم الإرشادية) يحاول أن يتهجي كلماتها من عليها، إذ صوت صفارة القطار تدوي في فضاء المكان فأصابته رعشة فزع، زادت معها أمه قبضتها عليه بينما تقترب القاطرة العملاقة يعلو منها دخانها نحوهم في سرعة، زاد تشبث الصغير بأمه حين بدأت حركة تدافع المسافرين نحو بوابات العربات وتقدّفهم بداخلها.

أيدٍ غليظة تدفعهم يميناً ويساراً، بينما تقف أمه بينهم في شتات من أمرها تمسك بيدها تذكرة القطار، لا تعلم إلى أين تتجه، حينما دفعتها من الخلف تلك اليد قبل أن تلتفت إليها لتشاهد امرأة عجوزاً، في الستين من عمرها أو أكثر، تنظر لها بكل غلظة وهي تلعن فيها دون أن تفهم السبب.

فتحت لها وداد الطريق تمرُّ منه بسلام، متجنبية نظرة عينيها الجاحظتين، كانت امرأة يهودية من هؤلاء النساء التي أمتلأت بهم شوارع فلسطين، ولكنها لم تكن

أوروبية، ملابسها تدل على ذلك، رغم تنورتها القصيرة التي تظهر ساقين تتجلى منهما عروق زرقاء وحمراء واضحة، إلى جانب طريقة تصفيف شعرها الذي غزاه الشيب، ناهيك عن لهجتها العربية الواضحة، ليست كلهجة أهل فلسطين، فربما تكون من يهود الجزيرة العربية أو اليمن. كانت تسير بجوارها طفلة صغيرة في عمر ابنها، هادئة القسمات لم تأخذ أيًا من غلظة ملامح جدتها - فعمر تلك العجوز لا تتجب مثل تلك الصبية.

ما إن مرت بجوارها حتى شعرت وداد برائحة كريهة تفوح من ملابسها، حاولت أن تضع منديلها القطني على أنفها بصورة لا تثير غضبها أكثر مما هي عليه.

أخيرًا ظهر كمسري القطار بملابسه الرسمية، تقدمت منه وداد تشهر بطاقة السفر فنظر إليها قبل أن يضع عليها علامة بالقلم الحبر الذي يربطه بقاعدة خشب ممسك بها وهو يشير إليها إلى مقعد آخر العربية دون أن يتقوه بكلمة.

تنفست وداد الصعداء أخيرًا منذ أن جلست على الكرسي، وضعت بجوارها حقيبة يد كبيرة نسبيًا قد ملأتها بعض الحلوى للأطفال، لا تريد أن تحرمهم من شيء، تلك السكنينة التي لم تدم عليها عندما سمعت أصوات تلك الضجة قادمة نحوها مصاحبة تلك العجوز وهي تتشاجر مع الكمسري وقد بدأ الناس في الفصل بينهم محاولين تهدئته بدعوى أنها سيدة في سن والدته، مما ثار غضبها أكثر!

تقدمت تلك العجوز وجلست على المقعد المقابل لوداد، ما أن أستقرت حتى فاحت رائحتها في المكان حتى ظهرت علامات الاستياء على وجه ياسين الذي بدأ يتأفف من الرائحة بصورة واضحة لمحتها العجوز قبل أن تنتظر إليه بنظرة أعادته إلى حضن أمه مختبئًا من تلك النظرات.

سار القطار ببطء بين أشجار الوادي قاطعًا طريقه نحو القدس، جلس ياسين على حجر أمه يتأمل منظر الشجيرات وهي تسير بجوار النافذة بينما يده تمسك بكيس حلوى يأكل منه، لاحظت وداد نظرة الصبية المصاحبة لتلك اليهودية للحلوى، أخذت منه واحدة وأعطتها لها فالتهمتها على عجل بينما تحاول وداد أن تجذب طرف الحديث مع تلك اليهودية وهي تحاول أن تخفف من أجواء التوتر بينهم.

رمقتها اليهودية بنظرة غضب لم تتمّ عن امتنان، نهرت الصبية وأمسكت بقطعة الحلوى الأخرى قبل أن تصل إلى فمها ملقية بها من نافذة القطار وهي تقول لها:

- لقد أخبرتك ألا تأخذي شيئًا من أحد، ربما تكون مسمومة فتموتين في الحال.

ظهرت علامات الخوف على وجه الفتاة التي كتمت دمعها، التفتت إليها وداد وعلامات التعجب بادية على وجهها قائلة:

- إنها طفلة في عمر ابني، دعيها تأكل، كلهم أولادنا.

ثم التفت وداد إلى الصبية تمد لها يدها تجذبها إليها في ودّ، مسحت على شعرها الكستنائي الناعم والذي يدل على أصول غير عربية وهي تقول لها:

- ما اسمك يا جميلة؟

- ايلان.

أعادتها جدتها مرة أخرى إلى جعبتها، بينما قررت وداد عدم المحاولة مرة أخرى خصوصًا بعد أن غاب ابنها في نوم عميق، فغابت هي الأخرى إلى الماضي القريب متذكّرة تلك الليلة.

حينما سلبتها الحياة الهدوء التي كانت تعيش فيه لتفاجأ بباب منزلها يطرق عليها طرقات متتابعات في تلك الساعة المتأخرة من الليل لتشاهد أمامها عدة رجال أغراب يقفون متجهمي الأوجه أمامها يتساءلون هل هذا منزل السيد قاسم؟ - علموا اسمه من بطاقة الهوية الذي كان يحملها - رغم ما شعرت به من الخوف منهم، إلا أن كل همها الآن تهدئة طفلها، اللذين أخذوا في الصراخ، قبل أن تفاجأ ببعض الرجال يدخلون إليها يحملون جثمان قاسم الملطخ بالدماء وهو مفارق الحياة.

حتى صراخات الفزع التي جمعت حولها الجيران لم تكن تهدئ تلك النيران المشتعلة في جسدها، ولا حتى ذلك الغريب الذي فرغ لتوه من وضع جثمان قاسم على الأريكة الأمامية لباب المنزل قبل أن يغطي بملاءة لا يعلم كيف وصلت إليه يده، لم يكن يحتاج أن يوضح الأمر.

وجدوه متوفياً على طريق القدس السريع، يبدو أنه حادث سيارة على الطريق السريع أثناء عودته من هناك، وفر قائد السيارة، ولم يتمكن أحد من معرفة هويته.

مرت عليها تلك الساعات كحلم سريع، لا تعرف كيف بعد صلاة الظهر كانت صلاة الجنازة على زوجها في المسجد الذي كان يصلي فيه الجمعة قبل أن يعود لمنزله يجدها أعدت أظفار الجمعة الشهي التي تنتظره كل أسبوع لتجتمع العائلة.

كما مرت تلك السويكات مرات الأيام، قل تواجد الأصدقاء والجيران فشعرت بالوحدة كما شعرت بضيق الحال. كانت قد نسيت أمر أهلها، إلا من تلك الرسالة الأخيرة التي أرسلتها إلى أخيها تخبره فيها بوفاة زوجها، ذلك الخبر التي كانت على يقين من أنه يعرفه، ولكنها أرسلته بطريقة غير مباشرة تطلب بها حقها في الميراث، لتفاجأ بعدها بيومين بمن يطرق عليها الباب، ظنت في البداية أنه صاحب العقار الذي بات يلح على طلب أجرته إلى أن وجدت أمامها أخاها رشيد.

كان الخطاب واضحاً من عنوانه، توجهم وجهه الذي لم يرفعه من الأرض منذ أن دخل ينيئ بما سيقول.

- البقاء لله يا وداد.

- ونعم بالله، وإن جاءت متأخرة.

لم يلتفت رشيد إلى معاتبته فهم بالدخول في الموضوع مباشرة.

- المهم الآن كيف ستعيشين أنت والأولاد؟ قاسم كان على باب الله، وليس له مصدر رزق غير راتبه.

- ربنا الرزاق يا رشيد، ولو اضطررت لبيع شعر رأسي لن أقصر مع أولادي، ثم إن لي ميراثاً من أبي، أظن حان الوقت لأطالب به.

اعتدل رشيد في جلسته وهو يقول لها باستغراب:

- أي ميراث، هل تريدين أن تطردينا أنا وأختك من بيت أبينا لتتبعيه للأغراب!
- من قال ذلك، ولكن على الأقل أحكم يشتري نصيبي في البيت، إلى جانب الدكان
والتركة.

- أما الدكان والتركة فإن إيراداتهم اليومية تكفي بالكاد مصاريفهم، يمكنك أن
تراجعي الدفاتر بنفسك إن أردت ولم يترك أبوك قرشاً واحداً لك.
- والبيت؟!!

- البيت نسكن فيه أنا وأختك تلك البنية مكسورة الجناح التي تربي ابنة زوجها
المعاقبة ويبدو أنه نسيها وبات حتى لا يسأل عنها، فهل تريدين أن تلقى في الشارع،
وقد بنيت فيه دوراً علوياً لزواج ابني، وليس لك نصيب فيه ولن نسمح لغريب أن
تطأ قدمه عتبة الدار.

- وحقي؟

- إن كان لك حق، فقد أضعت يوم خروجك عن طوعنا يا وداد، والآن تجنين ثمار ما
زرعت.

- إذا أنت تتنقم مني وتسلب حقي في ميراث أبي.

- وداد، لقد جئت إليك اليوم كي تتدبري أمرك، لا أريدك أن تعتمد على ما ليس لك
فيه حق، فكري في كيفية تدبير أمر الصغيرين، أو اتركيهم لأهل والدهم وأنت
بمفردك تعيشي في بيت أبيك، أستطيع أن أوفر لك وجبة غداء، ولكن لست بمطالب
بالصرف على أبناء رجل غريب.

لم يكن أمام وداد حل آخر إلا أن تقوم من أمامه دون أن تتطرق بكلمة وهي تفتح باب
المنزل وتقل له:

- أخرج من البيت.

ظهرت ابتسامة السخرية على وجه رشيد وهو يغادر المنزل بينما هي تقول له
بصوت مسموع:

«حسبي الله ونعم الوكيل فيك»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



3))

(محطة القدس - يروشليم)

استقر القطار بمحطة القدس، أثرت هذه المرة وداد السلامة وانتظرت حتى غادر مستقله جميعاً وخرجت بسلام، وقفت وحيدة وسط خضم من أمواج البشر، زاد شعور الغربة بداخلها، سألت عن طريق قرية (دير ياسين)، أشار إليها رجل أن تستقل عربة متوجه إلى هناك، كانت دائماً تخشى ركوب الحافلات بمفردها، الطريق ليس طويلاً، تبعد القرية كيلو متر تقريباً من محطة القطار، ولكنه طريق غير ممهد للسير عليه، رغم ذلك فضلت خطره على خطر أن تستقل حافلة إلى هناك.

طريق طويل على تل مرتفع، مما زاد مشقة السير عليه، قطعته وداد تحمل طفلتها عائدة على كتفها، بينما ياسين طول الطريق لا يكف عن أن يتشاجر مع كل كائن حي في طريقة، فيركل كلباً في مؤخرته، أو يقذف هرة بحجر بيده. كان الطريق الخالي من المارة تقريباً في مثل ساعة الصباح هذه، قد جعلها تترك صبيها يلعب دون تعنيف، إلى أن سمعت صوت محرك سيارة قادماً من الخلف، صوته المرتفع ينبئ بسرعتها، مدّت يدها تجذب ياسين إليها بحركة مفاجأة، لو تأخرت عنها بضع ثوانٍ لكان حدث ما لا يحمد عقباه.

التفتت وداد لتشاهد تلك العجوز التي كانت تجلس أمامهم في القطار مع حفيدتها وهم يستقلون تلك السيارة مما زاد الخوف من رحلتها. شعرت بالإعياء من الطريق، اقتربت بيوت القرية على مرمى البصر، شعرت ببعض الراحة فأثرت أن تجلس تحت ظلال إحدى أشجار الزيتون التي تملأ الطريق من الجانبين. عائدة الهادئة ما زالت نائمة على كتفها طول الطريق، بينما تقدّم ياسين يتسلق شجرة الزيتون العتيقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



4))

شجرة الزيتون

8 أبريل - نيسان 1931.

عمري الآن اقترب من ثمانمائة عامًا، مرت من حولي كل شعوب الأرض، أفضي بظلي على الغريب قبل القريب، لم أبخل على مسافر بهنية يرتاح فيها تحت ظلي في أشد وهج الشمس، ارتويت بمياه الأمطار أو قطرات تساقطت حين روي مسافر ظمأه، استمعت إلى تهديدات النساء ورأيت دموع التكالى، وارتويت منها حتى اشتد عودي وصلب جزعي الذي يمتد في الأرض بطولها، أدبني الدهر ورأيت من مكر البشر ما مالت منه جزوعي ولولا وعد ربي لجفت الثمار على فروعِي، ولكني عاهدته ألا أبخل على أحدٍ بثمرتي.

استمعت طوال تلك السنوات الطويلة بقصص العشاق وكلمات الحب التي تُروى تحت ظلالِي، وعود العودة لحظة الفراق. كذلك كنت مأوى للصمص والهاربين يخبئون تحت جزوعي أموالهم.. تحتي تكمن كل الأسرار.

كنت أول من استقبله، منذ أن رأته عيناِي وأنا أشعر بالشفقة عليه، لا أعلم لماذا شعرت بوخزة حين لقائي الأول به، تذكرت حينها صاحبي الذي غرسني منذ ما يقترب ثمانمائة عامًا، كانت نفس النظرة والتي ما أردت أن أرى صاحبها عيناها ذابلتان مرة أخرى.

كان ما زال طفلاً صغيراً ابن عشرة أعوام، يسير بجوار أمه، التي جلست لهنية ترتاح تحت ظلي، أفضيت بثماري عليها، التقطها الصبي فنهرته أمه أن يأكل من الأرض شيئاً. كل شيء يخرج من الأرض لكن الإنسان طابعه النسيان، وقف ينظر إليّ بكل إعجاب، ينتابني الفخر. لم أتألم حين كسرت قدماه بعض أغصاني النابتة وهو يتسلقني، كنت أفرح بلعب الأطفال بين غصوني، تسلقني غير مرة، وفي كل مرة تعنفه أمه، حتى يئست منه وتركته يلعب بين أغصاني وأنا أظلل عليه وأداعبه، كنت أستمتع بصوت البراءة من قلب طفل صغير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



5))

ظهرت علامات التعب والإجهاد على وجه ياسين من كثرة اللعب، جلس بجوار أمه يستريح. لم تمر لحظات حتى شاهد ذلك الشخص يمر من أمامهم، أمسك بيده حجرًا ملقى على الأرض وقذف به ظهره، قبل أن يعود يختبئ في حضن أمه، أصدر الرجل صوت هذيان بلغة غير مفهومة أدخلت الرعب على كليهما، حتى استيقظت عابدة التي كانت غائبة في نوم عميق.

التفتت وداد إلى مصدر الصوت فوجدت درويش، رجلاً مجذوبًا يهذي، كان طاعنًا في السن، يرتدي بدلة عسكرية زيتية اللون ممزقة من عند الأكتاف، يضع على صدرها مجموعة من النياشين غير الأصلية، في قدميه حذاء قديم ممزق يظهر منه إصبع قدمه الكبير، وفي يده اليمنى سيف من الخشب، يلوح به في السماء يمينًا ويسارًا وهو يتحدث بتلك اللغة التي لم تفهمها وداد.

أفافت وداد من غفوتها وهمت استكمال طريقها بعد أن شعرت بالفزع والخوف من مشهد الدراويش، تعلم أن الدراويش لا يؤذون أحدًا، هم بركة الله في أرضه، ولكن الخوف الذي سكن في قلبها جعلها تخشى كل الناس. سارت بضع أمتار نحو بيت قديم مكوّن من طابق واحد ذي بوابة حديدية كبيرة بجوارها باب أصغر منه تقف أمامه سيارة حديثه، بينما رجل في الخمسين من عمره، وإن ظهرت عليه علامات الكبر أكثر من ذلك، يجلس تحتها يحاول إصلاحها، قرأ ياسين اللافتة الموضوعة على باب صغير والمكتوبة بخط يدوي رديء، ولكنه كبير نسبيًا يسمح بقرائه.

ورشة الأسطى يونس

ميكانيكي سيارات

كان صوت نباح كلب ضخم مربوط بجوار باب المنزل، ينبح على كل غريب، تجنبت وداد مدى سلسلة الكلب قبل أن تصل بسلام إلى ذلك الرجل والتي لم يساورها شك أنه الأسطى يونس قبل أن تلقي عليه السلام محاولة أن ترسم على وجهها ابتسامة ودّ تحاول أن تلطف بها صباح ذلك اليوم المتوتر منذ أن غادرت اللد.

- منزل السيد عيسى الصباغ من أين؟

تحرك من تحت السيارة بخفة لا تدل على عمره والذي بدا من ملامح وجهه الذي يعلوها التجاعيد وشيبة اللحية النابتة في مناطق متفرقة في وجهه. دقق يونس النظر فيهم جيدًا قبل أن يسألها.

- تريدينه هو أم شيئًا بجوار المنزل؟

- بل أريد السيد عيسى نفسه، صديق المرحوم زوجي وأوصاني بالذهاب إليه.

ظهرت علامات القلق على وجه عم يونس، بدأت تتطاير الأسئلة من عينيه، ظهرت على ملامح وجهه التي قرأتها وداد جيدًا، لوى شفثيه في استغراب قبل أن يلتفت إلى

داخل الورشة، لاحظت أنه يستدير بكامل جسده ولم يلو رقبته فقط، فتبين لها أنه يعاني من مرض في الرقبة! بينما هو ينادي على شخص تجهله.

- يا إسماعيل، اذهب مع الأعراب إلى بيت عمك إبراهيم الصباغ.

تعجبت وداد، ما أمر تلك القرية؟! أسأل عن شخص فيدلوني على شخص آخر! خرج من الورشة صبي أكبر سنًا من ابنها، تظهر عليه علامات المرافقة بذلك الشارب ذي الشعيرات الخفيفة التي تزين أسفل أنفه، وصوته الذي كان يعاني من علامات البلوغ.

ألقى السلام ثم سار أمامهم. شعرت وداد ببعض القلق، كانت تشعر أنها تضل الطريق، أما وقد وجدت الآن من يعرف منزل أحدًا من (آل الصباغ) فقد قطعت نصف الطريق، بالتأكيد السيد إبراهيم الصباغ لن يخذلها، أو على الأقل سيرشدها إلى بيت عيسى الذي بات الليالي زوجها يحكي عن كرمه وأخلاقه، وصادقتهم معًا قبل أن ينتقل للإقامة نهائيًا بجوار شقيقة في قرية دير ياسين، طلبه المستمر من زوجها قاسم أن يشاركه في تجارة وتكسير الكلس في القدس، التجارة رائجة هناك وأصبحت كل المباني الحديثة تعتمد على الحجر الكلسي في البناء، يمتلك كسارة، ويأمل أن يزيدا اثنتين آخرين، إلا أن زوجها رفض أن يترك اللد، كان دائمًا هو الآخر يخشى المستقبل ويخاف منه. «عصفور في اليد خيرٌ من ألف على شجر».

رغم ذلك إلا أنها شعرت بالسعادة للألفة التي جمعت ابنها مع إسماعيل، وجود صبي يفترب من عمر ابنها ربما يخفف عليه شعور الوحدة، فكرت أنها يمكن أن تطلب من صاحب الورشة أن يعمل ابنها لديه في عطلة الدراسة إذا تأزم عليها الحال، تعلم أن قرية دير ياسين بها مدرسة ابتدائية، تطمح في إلحاق ابنها بها لاستكمال دراسته إذا استقر بهم الحال هنا.

بينما الصبيان يتقدمان وداد وابنتها إذ نادتا على ذلك الدليل تسألنه، وهي لا تريد إجابة منه على سؤالها، بقدر ما تطمح أن تعرف من أخبار تلك القرية التي ربما يستقر بها المقام فيها إذا قدر الله.

- هل الطريق طويل إلى منزل السيد إبراهيم؟

- لا، اقتربنا، ولكن أظن أن العزاء قد انتهى منذ فترة، وما عاد أحدٌ يسأل عنه، وربما لا تجدين أحدًا في البيت، فالسيد إبراهيم يسافر طول السنة، ولا يمكث في البيت إلا قليلًا، أظن أنه كان متواجدًا تلك الفترة فقط من أجل حضور عزاء شقيقة.

شعرت وداد بوخزة في قلبها، لعل ما تظنه وهم، سألت مرشدها الصغير مرة أخرى:

- ولكني لا أريد إبراهيم هذا، أنا أسأل عن السيد عيسى الصباغ.

وقف إسماعيل لأول مرة في الطريق بعد أن كان يتبادل الحديث معها أثناء سيره، التقت إليها وقد بدت عليه علامات التعجب.

- لقد مات السيد عيسى الصباغ، ظننتك آتية للعزاء، ناس كثيرة من أنحاء متفرقة أتوا للعزاء طوال الفترات الماضية، وأنا كنت أرشدهم إلى البيت، لقد جمعت الكثير من الحلوى والنقود خلال هذه الفترة.

ضربت وداد على صدرها، غير عابئة بدعابة الصبي لها والذي يطلب منها إكرامية لتوصيله، وهي تقول:

- مات؟!!

- بل قُتل، وجدوه مقتولاً تحت شجرة الزيتون الكبيرة عند مدخل القرية، يقال إن لصوصاً قطعوا عليه الطريق أثناء عودته ليلاً وسرقوا أموالاً كانت معه.

- يا سواد أيامك يا وداد أنتِ وأولادك.

شعر إسماعيل أنه قد تَلَفَّظ بما لا يجب، انتابه الخوف خصوصاً وأن والده قد منعهُ من الحديث في هذا الأمر أكثر من مرة، التفت إسماعيل إلى ياسين يستكمل حوارهما الذي قطعته وداد.

- يقول والدي أنني ثرثار، أجلب له المشاكل دون داع، والدي رجل مسالم، لا يعبأ من هم الدنيا إلا بكسب المال، صاحب ورشة ميكانيكا السيارات الوحيدة بتلك القرية، رغم قلة السيارات بها إلا أن زبائنه يأتون إليه من كافة أنحاء فلسطين، خبرة كبيرة تعلمها من إحدى الورش في القاهرة، والذي كان يسكن هناك، وأمي مصرية، ماتت ولم أرها قبل أن يعود والدي إلى هنا ويفتح ورشته، لم يتزوج بعد وفاة أمي ليتفرغ لتربيتي، تلك الحسنة الذي ما زال يعايرني بها طوال الوقت، كل أصحاب السيارات الأمريكية بالأخص يأتون إليه، يتمنى أن يحول تلك الورشة الصغيرة إلى مركز كبير لصيانة السيارات، يعول عليّ كثيرًا في هذا المشروع، وما أظن أنني سأفعله، أتمنى أن أكون طالبًا في الجامعة، أحب الدراسة جدًّا وأتمنى أن أكمل دراسة الحقوق في القاهرة، يقولوا إن (جامعة فؤاد الأول) يتم إنشاء قبة بها كهذه.

قالها إسماعيل وهو يشير بيده إلى قبة ذهبية تعلو مسجد مزركش بالألوان، يظهر بوضوح خلف أشجار الزيتون التي تملأ المكان أسفل التل، تأمل ياسين مشهد قبة الصخرة المجاور للمسجد الأقصى بينما يكمل إسماعيل حديثه:

- أعمل مع والدي في الصيف من أجل موافقته على استكمال دراستي في الشتاء، ماذا تريد أن تكون عندما تكبر؟

لم يع ياسين من أمر السؤال شيئاً، لم يسأله أحد من قبل ماذا تريد أن تكون، ربما يريد أن يكون طبيباً أو مهندساً، كل الأطفال يقولون هكذا، لم يسمع والده ذات يوم يرسم له مستقبله، فقالها دون أن يعي من أمرها شيئاً.

- طبيب، أريد أن أصير طبيب.

- جيد، القرية لا يوجد بها أطباء، أتمنى أن تمكثوا هنا كثيراً، إنني أفقد الأصدقاء، وأشعر أننا يمكن أن نصبح صديقين.

- وأنا أيضاً تركت كل أصدقائي في اللد.

مدّ إسماعيل يده يصافح ياسين، تابعته وداد بابتسامة بينما التقت إليها مشيراً بسبابته إلى تلك البناية المكونة من طابقين في مدخل شارع يحوطها سورٌ منخفض، لا يخفي ما خلفه من أشجار تزين حديقة المنزل وهو يقول لها:

- هذا هو البيت، ربما يكون السيد إبراهيم الصباغ شقيق عيسى هنا ولم يسافر.

على الرغم مما سمعته وداد من إسماعيل إلا أنها في النهاية لم يكن أمامها خيار آخر، قطعت الطريق من اللد إلى القدس، وعليها الآن اقتحام ذلك البيت، اقتحام التائه لكهف في وسط الصحراء لا يطمع إلا في مأمن من ذئاب الطريق، فما بالك إن كان الكهف مليئاً بالذئاب والثعالب والثعابين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني

(1)

اخترقت وداد البوابة الرئيسية لذلك الفناء الواسع الذي يفصلها عن البيت، يتوسطه ممرٌ حجريٌّ مباشرة نحو بابه، كان بناءً حديثاً مكوناً من طابقين تزينه حديقةٌ خارجيةٌ، تقدّم منها عجوزٌ يسألها عن مرادها، تلعثت لبضع لحظات، فلم تدرِ ماذا تجيب، جاءت تسأل عن السيد عيسى في الأساس، ولكن الآن ساقها قدرها للسؤال عن أخيه إبراهيم الصباغ.

ظهرت علامات الامتعاض على وجهه من انتظار إجابة وداد، نظر بتأفف إلى الصبي الذي كان يعبث في أزهار الحديقة حتى تداركت الموقف بوخزة بيدها إلى كتفه وهي تحاول أن تشرح له الأمر:

- في الحقيقة جنّت أسأل عن السيد عيسى، ولكن بلغني لتوي أنه توفي، فلم يعد لي سوى السيد إبراهيم، أتمنى أن أجده.

- السيد إبراهيم بالمضيعة مع صديقه سليم أبو زيد، يمكنك الانتظار في داخل البيت، ضيوف السيد عيسى - رحمة الله عليه - ضيوف لنا جميعاً.

سرّها اللقاء، سعدت بتلك الكلمات الأخيرة، بيد أن لعيسى مكانة خاصة عند كل من تعامل معه، سيكرم أصدقاءه إكراماً له بالتأكيد.

جلست على تلك الأريكة المجاورة لباب المنزل، وضعت عايدة على ساقها بينما تحاول أن تستجمع شتات أمرها، تحركت من اللد لا تدري ماذا تفعل، وها هي الآن تجلس في بيت رجل ثري تنتظر الصدقة، ربما يُخرج من جيبه بضعة جنيهات يعطيها لها قبل أن يغادر المكان، أحزنها الموقف، ثم عادت تسأل نفسها «إن لم أتِ لطلب صدقة فلم أتيت؟»

مرت ساعات الانتظار عليها كالدهر، لا يوجد على المرء أصعب من لحظات انتظار الغيب، يتمنى حينها أن أسوأ ما يتوقع يحدث، بالتأكيد سيكون أفضل من ذلك الموت البطيء الذي يسمى الانتظار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما تجلس وداد في انتظار إبراهيم سمعت صوت امرأة قادمة من باب البيت وقد بدا عليه الغضب، التقنت إليها وجدتها تنتظر إليها شذراً بصحبة طفلتين، كانت المرأة فارعة الطول، نحيفة الجسد، ترتدي ملابس حديثة ليست كملابس أهل فلسطين التقليدية، شعرها الأصفر الكستنائي يلمع بشدة يعكس ملامح وجهها النحيف.

تقدّم منها الخادم الذيبادلها الكلام همساً، فهمت منه أنه يخبرها عن أمرها، عادت تلك المرأة نظرها مرة أخرى إلى وداد بصورة أكثر ازدياداً من سابقتها قبل أن تهتمهم صاعدة درجات السلم إلى الطابق الثاني بينما تركت طفلتيها بصحبته.

الكبرى كارولين، صبية في التاسعة من عمرها تمسك في يدها دميةً يدوية الصنع - كالتى يصنعها المنجدون من بواقي فرش العرائس في الأفراح للأطفال - بدت طفلة

هادئة الملامح تلعب بهدوء مع دميتها وهي تقص عليها من أمر لم تستبينه و داد من صوتها المنخفض، بينما الصغرى مارلين التي كانت تتشاكس معها تحاول أن تخطف دميتها منها، على الجانب الآخر طفل أكبر من عمريهما كان الخادم يناديه بـ (إدوارد) يلعب بسيارة من البلاستيك على الأرض مشغولاً بها عن كلا الطفلتين.

لا تعلم لماذا أخذها الفضول في السؤال، تقدمت من الخادم الذي انتهى لتوه من الفصل بين كارولين ومارلين تسأله.

- الصغار هم أولاد السيد إبراهيم، أليس كذلك.

- لا.

قالها باقتضاب قبل أن يغادر المكان عندما سمع صوت إبراهيم ينادي عليه، بعدها بلحظات عاد الخادم مرة أخرى إلى و داد يخبرها أن السيد إبراهيم في انتظارها بالمضيقة.

كانت المضيقة ملاصقة للفناء الخارجي من المنزل، يمكن الوصول إليها من خلال الدوران حول البيت من الحديقة الخارجية أو عبر باب مُطل عليها من داخل البيت، وهو الطريق الذي سلكته و داد، انتابها خوف من ذلك اللقاء، تلعثت الكلمات على لسانها عندما دخلت إليه، خصوصاً أنه لم يكن بمفرده، بل إنها لم تستطع أن تميزه عن ضيفه الذي ذكر اسمه منذ قليل الخادم.

كان أحدهم شخصاً سمين الجسد، مترهل البطن تظهر بوضوح من ملابسه الضيقة التي لا تتناسب مع ضخامة جسده، بينما الآخر أقل منه جسداً، يرتدي (القمباز) الفلسطيني ويزين رأسه الكوفية، نحيف الجسد إلا من شارب كثيف يزين وجهه، دارت عينها بين الاثنين وهي لا تعلم من أين تبدأ، إلا أن وجدت ضالتها عندما همّ سليم أبو زيد بملابسه الفلسطينية المميزة بمغادرة المكان، بينما التفت إليها ذلك الشخص البدين الذي لم يكن هناك شك أنه السيد إبراهيم يقول لها بشيء من الاهتمام:

- خيرٌ، يقول أبو محمود أنك سألتني عني.

- في الحقيقة أنا كنت أريد السيد عيسى، رحمة الله عليه، وبلغني لتوي أنه توفي، وكنت قد قصدت داركم الكريم، فلم يسعفني الوقت والطريق من العودة.

ظهرت علامات الحزن والأسى على وجهيهما بينما أكمل إبراهيم حديثه:

- اطلبي له الرحمة من الله، كلنا هنا مكانه، إذا كان في استطاعتنا أن نلبي طلبك فلن نتأخر.

- ليس لي طلب، ولا أعلم من أين أبدأ، كل ما في الأمر أن زوجي توفي، وقد ضاق الحال علينا، وقد أوصاني، قبل وفاته، إن ضاق الحال أن أذهب إلى صديقه عيسى، ولكن القدر لم يمهلنا حتى نراه.

بدأت علامات الاهتمام على وجه إبراهيم وهو يقول لها:

- مَنْ يكون زوجك، إن كان صديق أخي فبال تأكيد أعرفه.

- قاسم العَمْرِي.

فتسأل وقد بدا عليه علامات الاهتمام:

- قاسم اللدي؟

تنفست وداد الصعداء عندما وجدته ينطق اسم زوجها مُكْنِيه ببلدته (اللدي)، وهي تؤكد قوله:

- نعم، وقد توفى في حادث سير، فلم أجد بعد أن ضاق الحال علينا إلا طَرَقَ دار صديقه الذي لم يتوان يوماً عن الإشادة بأخلاقه وكرمه، علّه يجد لنا عملاً أو أي ملجأ من غدر الأيام.

ساد صمت طويل في المكان، لا يعلم لماذا أخفى عنها أنه آخر من رافق عيسى يوم وفاته! أما هي فحاولت أن تستشف من صمته أي شيء، ولكنها لم تجد أمامها إلا ملاذ الصمت حتى يُنظر في أمرها، كمُتهم ينتظر نظرة الشفقة من القاضي.

التفت إبراهيم إلى ياسين الذي كانت عيناه في الخارج نحو إدوارد الذي كان ما زال يلعب بتلك السيارة البلاستيكية وهو يقول لها:

- الطفلين أبناؤه؟

- نعم، ياسين وعايدة، ياسين عشر سنوات، وعايدة سبع سنوات.

- من الآن هما أبنائي أنا أيضاً، قاسم كان ونعم الأخ لعيسى، لم تجمعنا معاً لقاءات كثيرة، ولكن أخي كان كثير الكلام عنه، وإن كنت قد قصدت دار أخي ولم تجديه، فأنا مكانه، اعتبرني الدار دارك من الآن.

- أطال الله عمرك أبو الكرم وزادك من فضله، لن نطيل البقاء، وحتى يستقر لنا بيت صغير بأورينا، أستطيع أن أعمل في كثير من الصناعات اليدوية، إلى جانب أنني أجد القراءة والكتابة.

- كله في حينه يا أم ياسين، استريحي الآن ولا تتعجلي، بالتأكيد مجهده من تعب السفر والطريق، وغداً نتكلم في الأمر.

غادرت وداد المضيفة برفقة طفليها والخادم أبو محمود، ظهرت علامات الارتياح عليها، لم يتبادلها معها إبراهيم الصباغ الذي فوجئ بمن يقف أمامه يجده بنظرة غضب فقال لها فازعاً:

- جانيت؟! لن تكفي عن تلك العادة السيئة في التجسس على الناس؟!!

- عجبتيك المرأة يا إبراهيم أليس كذلك؟

- تباً لغيرة النساء، حسناً إن كنت تسمعين الحوار جيداً وما أظن فاتك منه كلمة، فبالتأكيد سمعت أنها زوجة قاسم.

تنهد مرة في ألم ثم استكمل كلامه لها:

- هل تريدنا أن نتركها بمفردها، إنها كانت تقصد بيت عيسى، وسيظل بيت عيسى مفتوحاً دائماً للناس.

- إبراهيم، أنا أعرفك جيداً، أعرفك أكثر مما كنت أعرف زوجي عيسى، فلا تلعب على دور الحمل الوديح.

- بل إنك لا تعلمين شيئاً يا جانيت، أبو محمود نالَ منه المرض، أصبح شغل البيت عليه شاقاً، فلمَ لا نأتي بمن يساعد، وهي من طرقت بابنا.

- حسناً يا إبراهيم، افعل ما تشاء، ولكن أخبرني الآن ما رأي سليم فيما عرضت عليه، أم يا ترى أمر المرأة أنساك لما طلبته؟

- إن لم تكفي عن سخرينك فلن أخبرك بشيء.

أجابت عليه جانيت وقد ارتسمت ابتسامة الثقة فوق شفثيها:

- إذا فقد وافقَ على العرض، إن كان غير ذلك لكنك طلبت مساعدتي كعادتك.

غادرت جانيت المضيفة بينما ظهرت علامات الضيق على وجه إبراهيم وهو يدبر ذراع (الجرامافون) يستمع إلى صوت المطربة الصاعدة أم كلثوم وهي تشدو بمونولوج (إن كنت أسامح وأنسى الآسية).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتظرت وداد أبو محمود بينما كان يتحدث مع تلك المرأة التي شاهدتها منذ قليل في المنزل، ووقت يحدها الأمل، قبل أن يتقدم منها أبو محمود يقودها إلى غرفة بجوار باب الحديقة، غرفة ضيقة لم تلاحظها حتى عند قدومها، وجهه المتجهم طوال الوقت لم يجعلها تهناً بطيب الأمل بعد لقائها مع إبراهيم الصباغ الذي لمحت فيه طيبة وحباً كانت في أشد الحاجة إليهما.

فتح باب الغرفة وهو يشير إلى داخلها:

- هذه ستكون غرفتك، بهذا أمرت مدام جانيت.

نظر إليها بغضب قبل أن يغادر المكان، تعجبت من كرهه لها وكأنها أتت لتشاركة رزقة وطعامه، لا يهم فقد أحسن صاحب البيت استقبالها، لا تعلم من تلك (المدام جانيت) التي ذكرَ اسمها، ولكنها بالتأكيد تلك النحيفة التي شاهدتها منذ قليل بصحبة الطفلتين، ولكن إن لم يكن هؤلاء أولاد إبراهيم وتلك زوجته فمن هؤلاء؟

تركت الأسئلة الآن وحاولت أن تريح رأسها على الوسادة الممزقة التي كان يخرج منها رائحة قطن عطن، إلا أن تعب الطريق ومشاقة كانت كفيلاً في أن تخلد وداد بصحبة طفليها في نوم عميق لم تشعر حتى بالجوع ولم يسألها أحد إن كانت تريد العشاء بعد تلك الرحلة أم لا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



2))

لم تهناً جانبيت بتلك السكينة التي شعرت بها وداد في نومها، صاحبها كابوسٌ أقلق مضجعها وخطف من جفنها النوم، زاد الخوف في قلبها منذ أن وطأت قدم وداد البيت.

«كان الطريق ممتدًا أمامها رغم الضباب الذي يحيط بالمكان، أشجار اللوز والزيتون تحد جانبيه، إضاءة كشاف السيارة الأمامي زادت الرعب في قلبها وهي تعكس فراغ الطريق، قبل أن تشاهد شخصًا ما يقف أمام سيارتها فجأة، لم تتبين ملامحه ولكنها بحركة لا إرادية ضغطت على مكباج السيارة قبل أن تصدمه. توقف السيارة المفاجئ كاد يصدمها بعجلة القيادة، بينما تلتفت خلفها تشاهد وداد بملابسها السوداء، ولكن عينيها حمروان كلون الدم، تملك الرعب من جانبيت وبدأت تشعر باختناق الهواء في رئتيها، بينما يدُ وداد تقترب منها تطبق على رقبته، لم تكن انتفاضة جسدها كافية بالإفلات من تلك القبضة عليها. كانت تصارع الموت في لحظاتها الأخيرة.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



3))

استيقظت وداد صباح اليوم التالي على ضوء أشعة الشمس تخترق الغرفة من نافذتها، التفتت وداد نحو الضوء حتى فزعت عندما شاهدت شخصاً يقف أمامها، لملت نفسها بسرعة وهي تحاول أن ترتدي شيئاً على رأسها وتهم تعدل جلستها، كانت أشعة الشمس تحجب عنها الرؤية حتى تكلمت.

- صباح الخير يا أم ياسين، لم تُتَح لي فرصة بالأمس للتعرف عليك، أنا مدام جانيت.

صمتت برهة قبل أن تكمل:

- سيدة هذا المنزل.

- أهلاً بك يا مدام، أنا وداد وهذان...

ما زالت صورة وداد في الكابوس عالقة بذهنها، لا تستطيع أن تمحوها من مخيلتها وهي تقبض على عنقها بكلتا يديها، قاطعتها جانيت بصورة حادة تريد أن تمحو تلك الصورة من رأسها قائلة:

- أعرف أعرف، المهم الآن عليك أن تعلمي أننا نستيقظ هنا مبكرًا، أتمنى أن تكوني سعيدة بيننا، وإن كان لي طلب عندك.

- تفضلي.

- أبو محمود رجل طاعن بالسن ويحتاج من يساعده في إعداد الإفطار وبعض أعمال المنزل، فهلا ساعدته في ذلك تكسبي ثواب، ومنه تسلية لوقتك بدل الفراغ.

كانت الرسالة واضحة، بقائها في المنزل كخادمة، لم تكن تعلم إن كان السيد إبراهيم يعرف بالأمر أم هو من خطط له منذ البداية، ولكن في النهاية لم يكن أمامها حلاً آخر إلا الموافقة، العمل مقابل المأوى.

تركت وداد طفليها نائمين وتوجهت إلى المطبخ حيث علمت الآن سبب تجهم وجه أبي محمود لها، اقتربت منه تلقي عليه تحية الصباح وهي تقول له:

- طلبت مني مدام جانيت أن أساعدك في إعداد الإفطار.

- لا أريد من أحد أن يساعدي، ثم إن السيد إبراهيم لا يأكل من يد أحدٍ غيري، حتى زوجته رحمها الله كان لا يحب أكلها.

ثم التفت إليها يكمل حديثه بصورة أكثر حدة وكأنه ينذرها:

- أنا مع تلك العائلة منذ أن كنت طفلاً صغيراً، كنت بصحبة أوبيهما (جورج الصباغ) حينما سافر إلى بيروت، لم أتركه أبداً حتى في سفرياته، وحين استقر به المقام في فلسطين لم يستطع أن يستغني عني، كذلك ولداه، لم يستغنيا عني.

لم يعد يعينها تاريخه الطويل مع الأسرة والذي يرسل به رسالة لها أنها مهما عملت لن تحل مكانه، كانت تريد أن تخبره أنها لا تطمع في أن تكون بديلاً له، كل الأمر

أن القدر ساقها إلى تلك الحالة، وبالتأكيد ذلك الوضع لن يستمر كثيرًا، ولكنها فضّلت ألا تدخل معه في كثير من الجدل فقالت له.

- حسنًا يا أبو محمود، فيم تريد مني أن أساعدك.

أشار بيده دون أن يلتفت إليها:

- يمكنك غسل الصحون بالحوض.

لم يكن أمامها حلٌ إلا الرضوخ للأمر الواقع، انتهى أبو محمود من إعداد الإفطار وخرج به، بينما انشغلت وداد في غسل الصحون حينما شعرت بشخصٍ يقف خلفها مباشرة فلتفتت على فزع لتجد السيد إبراهيم يقف خلفها يقول لها:

- صباح الخير يا أم ياسين، يارب تكوني مبسوطة معنا.

ابتعدت عنه بضع خطوات وهي تمسح يدها من مسحوق الغسيل وتنزل أكمام جلبابها:

- الحمد لله على كل حال يا سيد إبراهيم.

- الناس هنا كلها سوف تُحبُّك، أتمنى أن تكوني سعيدة معهم لكن اصبري. أبو محمود يحتاج إلى من يساعده في أعمال البيت، ولكنه لا يريد أن يعترف أنه كبير في السن، ما إن نأتي بأحدٍ كي يساعده حتى يخلق له من المشاكل ما يجعله يفرُّ منه، يظن أننا سنستعني عن خدماته، لا يحتاج إلا لطول البال، وأن تعامله كوالد. أبو محمود ركن في هذا البيت مثله مثلنا جميعًا، هل تعرفت على باقي أفراد البيت؟

- رأيت المدام جانيت وثلاثة أطفال، ولكن لم أعرف قرابتهم بك.

- جانيت زوجة أخي عيسى وأم ابنتيه كارولين ومارلين، أما الصبي فهو إدوارد ابني الوحيد من المرحومة زوجتي، فأنا أرمل مثلك.

قالها وهو يبتسم قبل أن تبعد عنه وداد مرة أخرى وتساءله:

- وهل مدام جانيت تعيش هنا؟

- هذا بيت العائلة منذ أن بناه والدي جورج الصباغ عند قدومه من لبنان، عشنا فيه أنا وعيسى تزوجنا، حتى حدث ما حدث لزوجتي وله، فلم يعد في البيت إلا جانيت وابنتيه وأنا وإدوارد ابني، وبالطبع قبلنا كلنا أبو محمود، لا نريده أن يغضب علينا. قالها وهو يضحك فشاركته وداد الضحك مجاملةً له، قبل أن يعود يهمس لها مرة أخرى.

- ولا أخفي عليك سرًّا إن جانيت تريد أن تزوج إدوارد ابني لكارولين بدعوى الحفاظ على تماسك العائلة، ولكنها في الحقيقة لا تريد أن تذهب الشركة بعيدًا عن يدها.

لأذت وداد بالصمت، لا يمكن أن تتدخل في أمر كهذا، لا يعنيه من الأمر شيئًا، إلا أن إبراهيم كان مصر على استكمال حديثه:

- جانيت تعشق المال أكثر مما أعشق أنا الملوخية المصرية، هل تجيدين طهيها؟

- بالتأكيد.

- جيد، إذاً غداءنا اليوم ملوخية مصرية بالأرانب.

اكتفت بابتسامة هادئة قبل أن تعود مرة أخرى إلى غسل الصحون بينما عاد أبو محمود لتوّه من الخارج والذي تعجّب عندما رأى إبراهيم في المطبخ فخاطبه:

- الأكل جاهز يا بك على السفرة في الخارج.

همّ السيد إبراهيم يغادر المطبخ وهو يداعب أبو محمود:

- وداد في عهدتك يا أبو محمود، اهتم بها، ولا أريد مشاكل معها يا رجل يا عجوز، ستعلمك طريقة عمل الملوخية المصرية التي لا تجيد طهيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



4))

وضعت وداد القيود على ياسين من اللحظة الأولى لها في البيت، تعلم مدى شقاوة الولد وعناده، لا تريده أن ينتاجر مع أحد - خصوصًا وأن البيت به أطفال في مثل سنه والمشاكل بينهم على اللعب واردة - إلا أنها فضّلت أن تتجنب مع ابنها أي كلمة قد تجرحه، خصوصًا من مدام جانيت، التي لم تشك لحظة أنها ترفض بقاءها في البيت منذ اللحظة الأولى التي رأتها فيها، بيد أنها لا تطمع في زواج ابنتها كارولين من إدوارد فقط، بل كانت تطمع في إبراهيم لنفسها أيضًا، لا يهم فلم يعينها من هذا كله شيئًا، إلا الحفاظ على أبنائها من سماع كلمة تجرح شعورهم، حتى محاولات إبراهيم الصباغ في جذب ياسين إلى اللهو مع الأطفال، كلها لم تتجح إلا ما حققته كارولين من ودٍ غير مصطنع مع ياسين، حتى باتت أقرب أهل البيت له وجمعتهم معًا كثيرًا من الألعاب.

لم تلاحظ وداد أيّ علامات تدين على الأسرة إلا زيارة أبو محمود الدائمة إلى قداس الأحد في الكنسية بصحبة كارولين، لم تفهم كيف يكون مسيحيًا ونجله اسمه محمود، لم يكن من العجيب ذلك في قرية اسمها (دير ياسين)! ولكنها في النهاية لم تشغل بالها بأي أمرٍ من أمور البيت، تعلم أن إقامتها فيه مؤقتة وتطمح أن تتهيأ في أسرع وقت.

رغم ذلك لم يكن ياسين وحيدًا، وجد ضالته في إسماعيل الذي جاء بعد يومين إلى بيت إبراهيم الصباغ يسأل عليه، خرج له ياسين بعد أن استأذن من أمه التي لم تجد غضاضة في صداقة تجمعه مع ابنها تعوضه العزلة الذي يعيشها.

إسماعيل شاب واسع الأفق رغم أعوامه السبعة عشر، أحبَّ ياسين بشدة واحتضنه كأخ أكبر، كان ياسين يسمع منه ما لم يعه عقل صبي في العاشرة من عمره، ولكن دائمًا يعيره اهتمامه، لديه قدرة على الإقناع والإلقاء، فلم يمل منه ياسين رغم الساعات التي يقضيها يستمع إليه تحت شجرة الزيتون العتيقة التي كانت تجمعهم. فتح عيني ياسين على ما لم يستوعبه عقل طفل في سنه من شاب مراهق في عمر إسماعيل، اقترب منه ذات مرة يسأله:

- هل تمارس...

ثم اقترب من أذنيه أكثر قبل أن يحمر وجه ياسين وهو لا يعي من كلامه شيئًا إلا أنه يتجاوز حدود الأدب، كان إسماعيل جريئًا في الكلام، لا يخشى أحدًا ولا يخجل من أحد، رغم ذلك يتميز بأنه واسع المعرفة، كثير الاطلاع، يهوى القراءة، دائمًا يمسك في يده كتابًا يقرأ فيه، ما إن يأتي زبون لهم لإصلاح سيارة إلا ويطلب منه كتابًا من إحدى مكتبات القاهرة أو بيروت أو حتى بغداد، كان مكان ورشتهم ملتقى الطريق للمسافرين، فتعرّف على الكثير منهم الذين جلبوا له ما يريد من الكتب، سمع منه ياسين وهو يحكي عن (الانتداب الإنجليزي في فلسطين)، (خطر المد الصهيوني)

الذي يعد بإنشاء (وطن قومي لليهود) طبقاً لـ (وعد بلفور)، يكره اليهود ولكنه يحب نساءهم، كثير التغزل فيهم أمام ياسين!

سمع منه لأول مرة مصطلحات لم يفهمها، سمع عن (الشيوعية) وحاول أن يلقيه مبادئ الاشتراكية، قرأ عنها في كتاب وأعجب بها، حاول أن يطبقها على محيطه وهو يقص على ياسين حكاية أهل دير ياسين.

إسماعيل هو معلم ياسين، علمه أن الصراع في دير ياسين قائم على احتكار تجارة وتقطيع الحجر الكلسي، بعد أن تحوّل نشاط القرية من الزراعة إلى الصناعة، يمتلك إبراهيم الصباغ بمشاركة أخيه كسّارة كبيرة ويطمع أن يضم إليها كسّارتين أُخريّين حتى يوسع من صناعة الحجر الكلسي التي ستكون التجارة الرائجة في المنطقة، وستؤدي إلى زيادة أسعار المباني، وبالطبع هذا كله سيصب في مصلحة أصحاب رأس المال! يعمل إبراهيم على احتكار صناعة الحجر الكلسي، ذلك بمساعدة زوجة أخيه جانيت، تلك (المرأة الحديدية) كما أطلق عليها إسماعيل، والتي فرضت هيمنتها على كل من في البيت منذ أن عاد عيسى ذات يوم من رحلته إلى لبنان هو يعلن خبر زواجه من جانيت التي كانت تكبره بعدة أعوام.

جانيت تنتمي إلى عائلة سياسية في الشام، والدها من كبار السياسيين في جبل الدروز، أمها إنجليزية، نشأت وأكملت تعليمها هناك، يعلم الجميع مدى ولائها لبريطانيا العظمى، تؤمن بمشروعها الاستعماري، ترى أن الدول العربية لا يمكنها تحديد مصيرها، ومن مصلحتها أن تكون ضمن مشروع الهيمنة البريطاني.

حينما تزوجت عيسى حدثت نقلة كبيرة في تجارته، كانت عقلية اقتصادية فريدة، هي من كانت ترعى مشروع صناعة الحجر الكلسي بين الأخوين وذلك بمساعدة ضابط في جيش الانتداب البريطاني على فلسطين يدعى (ديفيد ألكسندر)، رغم ذلك كثيراً ما اصطدمت مع أفكار عيسى المثالية!

هدفها هو جذب كثير من المساهمين معها لتكوين شركة ذات رأس مال كبير يساعدها على حلمها باحتكار وصناعة الحجر الكلسي في فلسطين بأكملها، كان أهمهم هو سليم أبو زيد الذي لم يعمل بالصناعة ليوم واحد لا هو ولا أهله، بل كانت حياتهم كلها قائمة على الزراعة ورعي الأغنام ولكن جنى منها ثروة ضخمة، ينتمي لعائلة أبي زيد الكبيرة في فلسطين، أبناء عمومته منتشرون في كل أرجائها، عزوة كبيرة وعائلة لها ثقلها، ما جعل جانيت تطلب من إبراهيم أن يحاول إقناعه في مشاركته في كسارة جديدة.

سليم له بنت كبرى تسمى سحر من زوجته الأولى إحسان، وانقطع عن الإنجاب لفترة كبيرة قبل أن يتزوج بأخرى أنجب منها ثلاثة أولاد هم (أسامة وفراس وباسل) مما أشغل نار الغيرة في قلب زوجته الأولى والتي لم تهدأ حتى أنجبت ولدها الوحيد (حيدر)، ولكنه اسم ليس على مسمى.

أنجابها بعد طول فترة انقطاع جعلها تخشى عليه من الجميع، تشعر بأن عين الحسود تترصده. فمنذ أن علمت أنها رزقت بولد، لم تخبر أحداً بنوع المولود إلا بعد

إلحاح من السؤال، كانت تلبسه ملابس البنات حتى تحفظه من عين الحسود! قلما يخرج من البيت إلا بصحبة أبويه، وإن خرج كانت تجمع عدة خصلات أمامية من شعره تلتزم عليهم كفاً صغيراً ذا حبة زرقاء، قالها له إسماعيل وهو يقص عليه خبرهم «أخته أرجل منه مئة مرة».

إسماعيل على دراية بكل كبيرة وصغيرة داخل بيوت القرية، هواية ورثها عن والده الذي كان عنده من الفراسة أن يعرف أين كان قائد السيارة بمجرد أن يفتحها لإصلاحها، كل طريق وله أعطاله، وكل مكان وله مشاكله، حتى تلك الحوادث كان يعلم سببها قبل أن يخبره صاحبها، فصدمة الشجرة غير صدمة الحجر، ومنها يعرف الطريق الذي كان يسير فيه.

رغم ذلك لم يستطع إسماعيل أن يجيب على ياسين عندما سأله عن تلك اليهودية التي كانت تجلس أمامهم في القطار والتي شاهدها أكثر من مرة في مناطق مختلفة بالقرب من دير ياسين، سوى أن اسمها (إيلان) وجدتها اسمها (شوشانه) من يهود اليمن، ثم أخبره بأن الوكالة اليهودية تفرض الكثير من الحظر حول تحركات اليهود المهاجرين إلى فلسطين وخصوصاً العرب.

ما زال إسماعيل يعاني من إقناع والده باستكمال دراسته في القاهرة، يرفض حتى مجرد مناقشة الفكرة، هناك سر غامض لا يفهمه إسماعيل! كبر ونشأ في ذلك البيت البسيط الذي اتخذ والده جزءاً منه كورشة له، كل ما يعرفه أنه وُلدَ لأم مصرية، فماذا يا ترى شاهد فيها ليخاف عليه منها.

كان والده يقول له دائماً:

«القاهرة يا ولدي غولٌ كبيرٌ متزين في صورة امرأة حسناء، من يقترب منه يهلك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



5))

ألف رؤيتها في أماكن عدة، جذبه شيء ما إليها، رغم ما كان في صدره من اليهود، لما سمعه عنهم من كلام أمه، ودَعمه كلام إسماعيل عنهم من أنهم جاءوا ليسرقوا أرضهم ويقتلوا أهلها، ناهيك عن معاملة جدتها منذ اللحظة الأولى للقائهم في القطار.

إلا أن شيئاً ما يجذبه إليها، منذ تلك النظرة التي تتم عن رضا وسعادة وهي تلتقط قطعة الحلوى التي أعطتها لها وداد في القطار، ونظرة الألم وجدتها تسلبها إياها تلقي بها من نافذته. أضنت شيئاً ما في قلبه، كان يشاهدها عن بُعدٍ، تخرج بمفردها دائماً، تلعب مع بعض القطط الشاردة في الشوارع، لا يعلم في أي مكانٍ تقيم، ولكن بالتأكيد مع جدتها ذات الرائحة النتنة، اقترب منها ذات مرة بعد أن ادخر حلواه من أجل أن يعطيها لها.

صبية في مُقبل عمرها تقف تحت شجرة زيتون عتيقة تلهو مع القطط بكل براءة، تقدّم منها ياسين وأعطاهها قطعة الحلوى، نظرت في عينه بخوفٍ وهي تمدّ يدها تلتقط القطعة منه، التي تلهفت لها نفسها، تأملتها كثيراً في ترددٍ، قبل أن تنطق بعربية غير صحيحة تشوبها لكنة أجنبية:

- فيها سم؟

ردّ عليها ياسين بنفس نبرة البراءة هو يقول لها:

- لا والله، أمي تعدها في المنزل لنا جميعاً، ادخرت نصيبي لك.

قالها وهو يمد يده إلى تلك القطعة التي كانت في يدها، لقمَ منها قطعة حتى تطمئن وأعادها إليها، ابتسمت له بينما تقول:

- جدتي تقول إن العرب جميعاً يريدون قتلنا، تخاف عليّ من الخروج إلى أي مكان، أستغل أوقات عدم تواجدي في (الكيبوتس) لأخرج أنتزّه.

لم يدرِ ما (كيبوتس) تلك التي نطقتها، خجلَ من جهله ولم يشأ يظهره ويسألها، سيعود مباشرة إلى إسماعيل يسأله، بالطبع يعرف، كان يتأملها وهي تلتهم قطعة الحلوى، تمنى أن يكون معه غيرها حتى تطيل مدة بقائها معه، اقتربت منه وطبعت على خده قبلة رقيقة، كانت كقبلة أن تلهب مشاعره، وعندها قرر أن يكون الأمر سرّاً حتى عن إسماعيل.

- أمي تجيد صنع الحلوى، سأتي لك بالكثير منها.

- وأنا سأنتظرك هنا دائماً.

نظرت له بامتنان قبل أن تطبع على خده قبلة أخرى احمرت منها وجنتاه، بينما عيناه تراقبانها وهي تغادر المكان وكأنه في حلمٍ جميلٍ.



6))

شجرة الزيتون..

كل قصص الحب بدأت من هنا، تحت ظل غصوني تتدلع نيران الشوق تفضحها عيون العشاق على ألحان شدو العصافير المغردة، راعيت ثمرة الحب في قلبهما، كما راعيت العديد من قصص الحب وحافظت على سرهم، كنت أشتاق إلى لحظات انتظار الحبيب الذي يأتي أولاً ويدها تداعبان غصن رطب من غصوني يسلي به وقته حتى موعد اللقاء.

أجمل قصص الحب هي التي تبدأ في الصغر، قبل أن يتعلم الإنسان الكذب والخداع، كلمات بسيطة وساذجة أحياناً ولكنها تعبر بها عما يجيش في خلدته من أفكار دون التواء أو تلوين.

تأتي نسمة ريح صيف رطبة، تهتز لها غصوني فأجود على العشاق ببعض ثماري. حتى ألمّ جراح حفر العشاق لأول حرف من اسميهما داخل قلب على جزعي كانت تسعدني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



7))

لم تكن جانبيت تحتاج إلى أن تفرض سيطرتها على بيت آل صباغ، فمنذ اللحظة الأولى التي وطأت قدميها فيها دارهم وقوة شخصيتها جعلتها مسيطرة على كل مقاليد الأمور، حتى في حياة عيسى الشقيق الأصغر لإبراهيم فرضت شخصيتها على السيد إبراهيم نفسه!

القوة الشخصية، وحضورها العالي، طموحها الذي ليس له حدود، والذي لا يجعلها تتوانى أن تفعل أي شيء في سبيل تحقيقه، أتاحت لها التوغل في كل كبيرة وصغيرة في البيت، حتى كانت مصدر ثقة إبراهيم الصباغ نفسه، يثني عليها أمام زوجها راحة عقلها، كثيراً ما أنصفها في خلافاتها معاً وهي الأخرى باتت تتودد إليه كثيراً، حتى في حياة عيسى!

لذا كان أمر زواجها من إبراهيم الصباغ متوقعاً، لم يُفاجئ أحداً، رغم أنه لم يمضِ علي وفاة زوجها إلا بضعة أشهر، حتى مراسم الزواج، رغم بساطتها، إلا أنها لم تخل من البهجة، رغم أنها لم ترتد فستان زفاف إلا أن فستانها الأسود الطويل وشعرها المصفف كانا كافيين بالغرض، اهتمت بابنتيها، وقفنا جوار أمهما بفساتينهما البيضاء تحملان باقات الزهور في مدخل الكنسية بجوار إدوارد الذي بدا في صورة ليس أقل منهم بهاءً.

مع الوقت ظهر التناغم بين أبناء وداد وأبناء الصباغ، تناغم مشوب الحذر على الأقل من جانبها، كارولين كانت أكثرهم وداً، طفلة هادئة بطبعها، كثيراً ما كانت تطرق باب غرفتهم صباحاً تطلب الإذن باللعب مع عايدة، فارق العمر بينهم قليل إلا أن كارولين كانت تتحمل عناء اللعب مع صبية في تلك المرحلة، كذلك كان إدوارد وياسين جمعتهم الكثير من المواقف، ولكن كان أكثرها طرافة عندما كان يدفع إدوارد إلى ياسين نقوداً أو يعطية نصيبه من الحلوى مقابل أن يشاهده ياسين وهو يمثل.

يعد إدوارد مسرح صغير في حديقة المنزل ويتخيله دار الاوبرا وهو يبدأ بتحية الجمهور ثم يشرع فوراً في تقمص الدور، يجلس أمامه ياسين الذي كان يجامله بالتصفيق له طلباً في المزيد من الحلوى.

يعشق التمثيل ويطمح أن يكون ممثلاً ومطرباً مشهوراً مثل محمد عبد الوهاب، في جميع رحلات إبراهيم الصباغ إلى القاهرة كان لا بد أن يرافقه بهدف دخول السينما، فدخل سحرها إلى قلبه، كان يجلس كفاقد الوعي وهو يشاهد تلك الصور المتحركة بالأبيض والأسود على شاشة العرض الكبير، بات شغوفاً بها، بالطبع لم يتصور إبراهيم الصباغ أن يكون ابنه (مشخصاتي)، إلا أن إدوارد كان متخذاً قراره، جارى أباه في أحلامه عن إلحاقه بالجامعة من أجل فقط أن يتاح له أن يستقر في القاهرة - بلد الفن - يتابع أخبار أهل الفن باهتمام، ينتظر قطار القدس القادم من القاهرة ليشتري منه مجلات وصحف الفن، سمع عن الكثير من الفنانين العظام

الذين تركوا الثروة والثراء الفاحش من أجل الفن السابع وسحره، غرفته كانت مليئة بصور نجوم الفن، ليلي مراد وأنور وجدي ويوسف وهبي وماري منيب وجورج أبيض وتوجو مزراحي.

مارلين كانت مختلفة عنهم بعض الشيء، لم تأخذ شيئاً من هدوء طابع أختها الذي ورثته من أبيها، فكانت أقرب إلى طبع أمها، تهتم بنفسها بصورة مبالغ فيها، تنزّين وتحب ارتداء أفضل الفساتين حتى في سهرات البيت العادية. كانت منعزلة عن الجميع بعض الشيء، تقف أمام المرأة بالساعات تصف شعرها وهي تتخيل نفسها أميرة في انتظار الفارس يأتي لها على حصان أبيض يطوفان به أرجاء مملكتهم، كذلك القمص التي كانت أمها تقصها عليها كل ليلة.

عندما كانت تجمعهم لعبة كانت دائماً تفضل أن تلعب دور الأميرة في حفلة راقصة، بينما تفضل كارولين دور المدرّسة وبالطبع إدوارد يقوم بدور الفنان المشهور الذي يصفق له الجميع في النهاية بعد عرضه المسرحي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما إبراهيم الصباغ لا يضيع أي فرصة للتودد إلى وداد، باتت نظراته إليها أكثر جراً، ربما يلاحظها الجميع إلا أنها لم تجد مفرّاً منها، ما إن يجد فرصة ينفرد بها لا يضيعها حتى تقر هي منه، رغم ذلك لم يصدر منه تصرفاً يؤخذ عليه إلا تلك النظرات.

تقدّم منها في ذلك اليوم بينما أبو محمود في الخارج يعد طعام الغداء وهو يقول لها:
- يأتي اليوم ضيوف مهمون على العشاء، أريدك أن تعدي أفضل طعام.

لم تجبه وداد وتوجهت إلى ذلك الرف المرتفع تأتي ببعض التوابل، بينما عين إبراهيم لا تفارقها وإن كانت تشعر بها دون أن تراها، وهو يخرج من حقيبة جلاباً أسود جديداً يتقدم به نحوها ويقول لها:

- أريدك أن ترتدي هذا اليوم، اشتريته خصيصاً لك من سوق «خان الزيت».

دون أن تلتفت إلى هديته نظرت له بسخرية وهي تقول:

- مدام جانيت تعلم أمر الهدية أم أدخلتها البيت خفية.

تظاهر إبراهيم بالغضب بينما كان يهرب من الموقف:

- أنا رب البيت وليست جانيت يا وداد.

تعالت منها ضحكة سخرية قائلة:

- حسناً حسناً أصدقك، ولكن أخفض صوتك قبل أن تسمعك.

ألقي إبراهيم الجلاب بكل غضبه على الأرض قبل أن يخرج والغضب بادٍ على وجهه ليصطدم مع أبو محمود الذي نظر إليه بتعجب وهو يقول له:

- ربنا يصلح حالك يا ولدي.

بينما يلتفت إلى وداد يجدها بنظرة لم تكن في حالة تسمح لها بمحاولة تجميل صورتها أمام كهل يكرهها من اللحظة الأولى لرؤيتها، فانهمكت في استكمال عملها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهى العشاء الذي اهتمت به مدام جانيت شخصيًا غير عابئة بمديح زوجها عن حلاوة طعام أم ياسين أمام الجميع حتى تحولت الجلسة إلى المضيئة. على ضوء قنديل خافت إلى جانب نسمات الهواء الباردة استبدلت صوت أم كلثوم من الراديو الذي دخل حديثًا إلى بيت الصباغ بأسطوانة وضعتها على الجرامافون لمغنٍ إنجليزي شهير لم تكف عن ترديد نغماته طوال الجلسة، قدمت مدام جانيت المشروبات الكحولية والويسكي الأمريكي احتفالًا بإلغاء قانون حظر المشروبات الكحولية في الولايات المتحدة هذا العام وهي تداعب مستر ديفيد بينما تمد يدها له بالكأس قائلة:

- ويسكي الولايات المتحدة اللذيذ الذي حرّمنا منه قانون الحظر.

ثم التفت إلى السيد سليم أبو زيد الذي استغفر الله أن يشرب مُسكرات قبل أن يستأذن لصلاة العشاء بينما تنتظر إليه وضحكة السخرية تسبقه نحو باب المضيئة.

تبادل إبراهيم الصباغ الحديث مع مستر ديفيد، الذي تخلّى عن كثير من كبريائه ورزاقته بمجرد أن تناول الكأس الثالث له. أما إبراهيم فكان معتادًا على المسكرات، لا تذهب عقله بسهولة، يذهب إلى بارات شارع عماد الدين خصيصًا في القاهرة من أجلها، يقول لديفيد ساخرًا من علامات السكر البادية على وجهه:

- زجاجة وسكي كهذه لا تساوي كأسًا واحدةً من (منقوع البراطيش في مصر).

حينما كان إبراهيم الصباغ يوضح مفهوم «منقوع البراطيش» إلى مستر ديفيد، هو مشروب خمر رديء شعبي يُقدّم في الحانات الفقيرة في القاهرة، كانت تجده بنظرها مدام جانيت التي كانت تحاول أن تحافظ على مظهرها الأرستقراطي أمام الضابط الإنجليزي الكبير، انضم إليهم مرة أخرى السيد سليم الذي أنقذ الموقف وبدأ الكلام في العمل، كانت جلسة ودية تطرقوا فيها إلى بعض الخطوط العريضة التي سيتم تنفيذها لاستكمال شركة تكسير وصناعة الأحجار في دير ياسين، بدأ ديفيد يشرح بعض الخطوات والامتيازات التي سيحصل عليها مقابل تسهيل عملية استيراد الكسارات الجديد، بينما السيد سليم أبو زيد ما زال متخوفًا من أمر شراء كسارة جديدة فداعبته مدام جانيت:

- يا سيد سليم، تستطيع أن تجني من وراء تلك الشركة أكثر مما تجنيه من رعي الغنم والزراعة في عشر سنوات، تلك المهن قد بارت، القادم هو عصر التصنيع والتكنولوجية والماكنة.

- أعلم يا مدام جانيت، ولكني كذلك متخوف فقط من الأمر، سأضع كل مالي في هذا المشروع ويجب أن أضمن العائد.

- وجود المستر ديفيد معنا في المشروع ألا يعد ضماناً كافياً؟

- بالطبع موافقة حكومة الانتداب البريطاني على المشروع يعطينا الثقة.

كان سليم رجلاً محافظاً، لا يحب مدام جانيت، يظنها هي الأخرى تبادلتها نفس الشعور، ولكن المصلحة المشتركة تجعل كل منهما يتقبل الآخر، يحب المال جداً، معروف عنه بُخله الشديد وحرصه على المال، لذلك قبل أن يتعامل مع إبراهيم الصباغ وزوجته جانيت رغم أنه في السابق كان لا يلقي السلام حتى على عيسى الذي كان يحبه الجميع، يعلم أن أي مشروع لن يتم إلا بموافقتها، وأنها المتحكم في الأمر كله، تعتمد على علاقاتها مع الإنجليز في تذليل جميع العقبات، هي الأخرى تعرف مدى ثقل سليم وعائلته في فلسطين فحاولت التودد إليه، حاول أن يهرب من ثرثرتها معه، التفت يميناً ويساراً بحثاً عن السيد إبراهيم الذي غادر المضيفة على غفلة منهم! فراق لها غيابه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استغل ياسين انشغال أهل البيت بتلك الحفلة فأخذ نصيبه من (الجاتوه) التي أتت به مدام جانيت من القدس خصيصاً لتلك الزيارة ليعطها لإيلان، يعرف مدى شغفها بالحلوى، يستغلها للقائها، تمنى أن تكون في انتظاره تحت شجرة الزيتون على غير مواعدهم، ذهب إليها فلم يجدها ولكنه قرر الانتظار على الشوق الذي أتى به يجلبها هي الأخرى إليه، ولكن حتى طال الانتظار ويئس.

قبل أن يعود خالي الوفاض، وقد عزف عن أكل الحلوى التي كان يطمع أن تشاركه فيها إيلان، شاهد ذلك الدرويش يجلس تحت الشجرة متكئاً على سيفه الخشبي ينعم بلحظة هدوء مع غياب الشمس، اقترب منه في خيفة من أمره، لم يتحدث معه منذ أن قذفت بالحجر في أول يوم له في القرية، وإن كان شاهده أكثر من مرة بعد ذلك ولكنه كان يتوارى منه رعباً.

امتدت يد ياسين بقطعة (الجاتوه) إلى الدرويش وهو يقول له وكأنه يعتذر:

- تفضل يا عمي تلك الحلوى.

- شكراً يا ولدي، رغم أنك ولدٌ شقي، قذفتني بالحجارة منذ أول مرة رأيتني، رغم أنني لم أفعل شيئاً لك.

كانت كلماته متزنة لم يتخيل ياسين أن تكون عليها، كذلك صوته بدا أكثر رصانة، فخاطبه بلطف:

- ما زلت تذكرها يا عمي، إنني أعتذر عنها، لم أكن أعرفك.

- لا تعتذر يا ولدي، ما جئت إلى هنا إلا لأجلكم، ومن أجلكم تركت أهلي وناسي لأحرس مدينة إسرائ رسول الله.

لم يفهم ياسين من كلامه شيئاً، ولكنه شعر بالألفة معه، اقترب منه أكثر حتى احتضنه وهو يقول له بكل صدق:

- سنكون أصدقاء أليس كذلك؟

- بالتأكيد يا ولدي، سأنتظر ك دائماً.

عوضه لقاء الدرويش ما كان افتقده من عدم رؤية إيلان، إلا أنه عاد منتشياً إلى البيت حتى لا يلاحظ أحدً غيابه، ليجد أمه تنتظره خارج عتبات الدار بصحبة أخته بجوارهم حقيبة سوداء تحمل ملابسهم، وقد بدأ الحزن في عينيها، ذلك الحزن الذي رحمه من تأنيبها الذي كان يتوقعه لغيابه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



8))

شيء ما في عينيها يشعرها بالخوف منها، منذ كابوس الليلة الأولى لها في البيت، وهي تنتظر الفرصة للتخلص منها، تلك الفرص التي كان يقف أمامها إبراهيم بالمرصاد حتى تمتت جانبيت أن ما يكون في رأسها حقيقة!

تعرف جيداً كيف تكسب معركتها بالصبر، لا تطمع أن تغير على فريستها إلا قبل أن تحين لها فرصة القضاء عليها، تعرف جيداً أن الضربة الأولى إن لم تكن قاضية، فسنتقلب على صاحبها.

أثقلت الشراب لإبراهيم هذا اليوم، هيئت كل الظروف، لأول مرة لا تعنف الصبية على لعبهم في الحديقة، رغم تلك الزيارة الهامة، حتى رمقته بعينيها وهو يغادر المكان على غفلة وهو يظن أن أحداً لم ينتبه له، رصدته بطرف عيناها وهو يخترق الحديقة نحو غرفة وداد، تظاهرت بالحديث مع السيد سليم أبو زيد حتى تحين لها الفرصة.

غادرت الجلسة متوجهة إلى غرفة وداد، تمتت أن يكون ما في رأسها واقع، استرقت السمع إلى أصوات هسيس في الغرفة، لم تستبين فحواها. لم تشعر بفزع وداد ولا رغبتها، لم تسمع آهات الشوق المكتومة التي كانت تتمناها حتى تخرجها بفضيحة لا تستطيع أن تمكث بعدها في القرية يوماً واحداً، ربما تهدأ من ذلك الكابوس الذي يطاردها يومياً.

كذلك إبراهيم، يبدو أن المسكرات لم تذهب بعقله كامل، يبدو أنها مجرد محاولات يحاول فيها إبراهيم كسب ودها مما أشعل نار الغيرة في قلبها لأول مرة، فلم تكن نزوة ولا شهوة، ولكنها حب، فالأمر يحتاج التدخل الآن قبل أن يكون تداركه صعباً. بينما يقترب إبراهيم من وداد فوجئاً بجانبيت التي رسمت على وجهها علامات الغضب المصطنع، جحدتهما بنظرة غضب بينما تخاطب إبراهيم:

- لولا وجود ضيوف مهمين في البيت الآن لكانت فضيحتكما يشهدها دير ياسين بأكمله.

حاولت وداد الكلام رغم هول المفاجأة:

- يا مدام جانبيت...

قاطعتها جانبيت، لا تحتاج أن تمنحها فرصة للدفاع:

- أغلقي فمك أيتها العاهرة، قبل أن تكون فضيحتك حديث القرية بأكملها.

رسالة لم تكن غافلة عنها وداد، إبراهيم الصباغ بدا متوتراً تماماً تحت تأثير تلك الصدمة، لم يستطع حتى الدفاع عن وداد، بدت جانبيت المسيطرة على الموقف بأكمله فلم تجد وداد مفراً من قولها:

- لا يا مدام جانبيت، الأمر لا يستدعي، سنغادر البيت ونترك القرية بأكملها.

حاول السيد إبراهيم أن يهدئ الوضع، تقدّم نحو جانبيت يقول لها بلهجة حادة:

- الوضع لا يحتاج كل هذا يا جانيت، لا يوجد ما يستدعي ما فعلته.
ثم التفت إلى وداد التي بدأت تلتقط ما تصل إليه يدها من متعلقاتهم في حقيبة يد سمراء وهو يحاول أن يراضيها.
- صبراً يا أم ياسين، انتظري حتى للصباح، للنهار عيون.
التفتت إليه وداد وهي ترمقه بنظرة غضب قبل أن تقول له بصورة قاطعة:
- بل الآن.

الحياة لن تكسرهما أبداً، لم تكن أول صدمة، ولن تكون الأخيرة، واجهت مشاكلها دائماً بقوة، وستستمر تسير في المَحَن على الأشواك حتى تصل بأولادها إلى بَر الأمان، هذا قدرُها.

وقفت وداد لا تدري ماذا تفعل وأي مكان تقصد في هزاع الليل هذا، اتخذت القرار ولا يمكنها أن ترجع فيه، حتى ولو قبّلت مدام جانيت الأرض تحت قدميها هي والسيد إبراهيم، فلن تعود إلى هذا البيت مرة أخرى، حتى وإن نهشتها كلاب الطريق وذئابه.

بحثت عن نجليها فلم تجد ياسين، بينما عايدة تلعب على طرف الحديقة، وقد زادها الغدر قوةً، فنادت عليها حتى دون أن تنتظر عودة ياسين، وهي تجمع ما تصل إليه يداها من ملابسها، بينما ألقّت بذلك الجلباب، الذي أهدها لها إبراهيم في الصباح، أمام باب الغرفة ليجدها في الصباح، حتى دموع طفلتها التي كانت تريد أستكمال اللعب في الحديقة مع كارولين لم تكن تضني قلبها بعد ما حدث وما كان. لتقف وداد خارج عتبات بيت آل الصباغ تنتظر عودة ياسين تطاردها لعنة الفضيحة في هزاع الليل، لا تدري ماذا تفعل ولا أي مكان تقصد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث

(1)

تحررت وداد من تلك القيود التي كانت تخنقها، أحياناً يترك الإنسان نفسه ليد القدر تقذفه كريشة في مهب الريح خوفاً من المجهول، لا يمتلك شجاعة اتخاذ قرار ليوقف في وجه الحياة ويقول لها «لا» حتى تشفق الحياة عليه وتتخذ القرار عنه فترفع عن كاهله تلك المعاناة، محققة له السلام النفسي الذي كان يصبو إليه.

منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها وداد بيت إبراهيم الصباغ وهي تصبو لليوم التي تغادره فيه، لا تطمح أن يكون أبناؤها أولاد خادمة في منزل سيدهم، ولا تريد أن ينشأوا على كلمة «سيد» ولكنها في النهاية تركت نفسها للأيام تفعل بها ما تشاء حتى أنت تلك اللحظة.

كانت القرية نائمة في سبات عميق، حتى مصابيح البيوت مطفئة، وكأنها نقطة سوداء في الفضاء لا تسمع إلا صوت نباح الكلاب الضالة التي تزيدها خوفاً مع أصوات حفيف الرياح في الشجر من حولها.

ياسين بدا أهدأ من ذي قبل، راحت عنه شقاوته التي كانت تعاني منها، شعرت أنه أصبح قدر المسؤولية، ربما لا يدرك عقله الصغير صعوبة الموقف، استشف من نظرة عين أمه المنكسرة أن أمراً ما حدث أثناء تواجده خارج البيت ولكنه لم يرد أن يسأل عنه، اكتفى بالصمت حتى لا يثقل قلبها بالكلام، وعليه أن يتحمل مسؤولية أمه وأخته الصغيرة، اقتربت منه تتحدث معه وكأنها تشاوره في الأمر، لأول مرة يشعر أنه رجل تأخذ أمه رأيه في شأن يخصهم، كانت تحتاج هي الأخرى إلى ذلك الشعور فقالت له:

- حدث خلاف بيني وبين مدام جانيت وسنترك البيت الآن ولن نعود له مرة أخرى، علينا أن نتدبر أمرنا بمفردنا الآن يا ياسين.

- كما تريدين يا أمي ولكن إلى أين نذهب؟

لاذت وداد بالصمت، فيصبح أبلغ إجابة عندما يعجز العقل عن التفكير، قبل أن يعاود ياسين الكلام:

- يمكن أن نبات الليلة عند إسماعيل صديقي، لن يمانع هو وأبوه.

كانت فكرة جيدة، أو هو الحل الوحيد الذي أصبح أمامها بعد أن ضاقت بها السبل، تذكرت أخاها، لم تكف طوال تلك السنوات عن الحسنة عليه، قالتها هذه المرة بصوت مرتفع، سمعها ياسين الذي كان يسير بجوارها والسعادة بادية على ملامحه، كان يسير كطاووس يزهو بنفسه، بعد أن طاب رأيه لأمه، لأول مرة في حياته تسير على قوله، تقدّمها نحو الطريق الجانبي متوجّهاً إلى أطراف القرية حيث ورشة عم يونس.

وقفت وداد بعيداً عن باب الدار، أسندت ظهرها على سيارة تقف أمام الورشة، تحمل على كتفها عابدة الصغيرة الغائبة عن الوعي بعد أن أضناها التعب من

البكاء، بينما تقدم ياسين يطرق باب الدار في حين توقف صوت نباح (ماكس) الكلب الخاص بعم يونس مع اقتراب ياسين منه.

استقبله إسماعيل بشيء من الحفاوة، تقدّم منه ياسين يتحدث معه بنبرة حزن.

- حدث خلافٌ بين أُمي ومدام جانيت و غادرنا البيت، هل يمكن أن نبيت الليلة عندكم حتى نتدبر أمرنا في الصباح؟

رحّب به إسماعيل. تقدّم من وداد وهو يبتسم لها، بينما عيناه على عايدة النائمة على كتفها، امتدت يده إليها يحملها ليخفف عنها وهو يسبقهم نحو البيت، كانت أول مرة يرى عايدة عن قرب، كل المرات السابقة كان يراها من بعيد عندما تأتي لتتادي على أخيها إذا احتاجته أمه، ضمّ ساعديه يدها بهما، كان يشعر ببرودة جسدها.

جلست وداد على الأريكة الرئيسية للمنزل بينما تقدّم إسماعيل وهو ما زال يحمل عايدة على ذراعه يطرق باب غرفة والده، كان مستيقظاً، يبدو أنه سمع الحوار جيداً ولا حاجة لإسماعيل لإعادة الأمر عليه، عايدة على كتفه تمنى أن ترقق قلبه، إلا أن علامات الغضب على وجه يونس لم تكن تعطي أي بارقة أمل لإسماعيل الذي تقدم منه يقول له:

- ياسين وأسرتك تركوا منزل إبراهيم الصباغ في هذا الوقت من الليل، ويطلب فقط المبيت لدينا حتى الصباح، ما رأيك؟

وقف عم يونس متجهم الوجه وهو ينظر إلى ابنه وكأنه ارتكب جريمة قاتلاً:

- هل أخبرك أحدٌ أن هذا البيت فندق للأغراب، فليذهبوا إلى أي مكانٍ آخر، ليس داري مأوى للمطرودين والمغضوب عليهم، وإن أردت فلتذهب معهم، أنا طوال عمري أغلق داري عليّ، أتجنب المشاكل التي تأتي الآن تطرق باب داري في ساعة الفجر.

- ولكن يا والدي....

- إن لم تخرج لتطردهم الآن، سأخرج لهم أنا.

- لا يا والدي، لا تخرج لهم، سأتكفل أنا بالأمر.

لا يعلم إسماعيل كيف قطع تلك المسافة القصيرة بين غرفة والده والصالة الخارجية، بدت المسافة أمامه كالدهر وهو يحاول أن يستجمع شتات الكلمات في رأسه، ماذا عليه أن يخبرهم؟

كان صوت والده المرتفع يرفع عنه الحرج، التقت عينه في عين وداد بعد أن هرب بنظره من نظرات ياسين المخذوله فيه، ابتسمت له وداد في ود ممتنة لمحاولته وهي تقول له:

- معذرة يا إسماعيل إذا سببنا لك إحراجاً مع والدك، يبدو أنه محق فيما قال.

ثم امتدت يدها تلتقط الصبية التي بدأت تقيق من غفوتها من صوت عم يونس المرتفع، كأنها تسلب منه روحه، تعلق بتلك الصغيرة التي كانت تشعر بالسكينة

على كتفيه، فخذلها. بينما تمسك بيدها الأخرى ياسين مغادرة باب منزلهم. وقف إسماعيل شارذ الزهن، زاد حنقاً على والده، رغم كل ما مضى من سوء معاملته له إلا أنه لم يشعر نحوه بالبغض كتلك الليلة.

أما عم يونس فقد ارتمى على السرير يشعر بالضيق، لم يكن ليَرْضَى على هذا التصرف، ولكنه لم يكن أمامه حل آخر، منذ عودته من القاهرة وهو يغلق داره عليه هو وابنه يتجنب أي مشاكل مع الكبير أو الصغير في القرية، ولكن بيد أن المشاكل لا تريد أن تتركه في حاله.

عادت إليه تلك الليلة ماثلة أمامه تداعب ذاكرته، ظنَّ أنه نسيها منذ أكثر من خمس عشرة سنة، عندما كان في القاهرة وهو يطرق في مثل هذه الساعة تلك الدار يتحسس منها الأمان بعد ضياع. عاتب نفسه كثيراً، كان يعلم أن شيئاً ما في نفس ابنه أنكسر نحوه، شيئاً ربما لا يستطيع إصلاحه، تلك النظرة التي ربما لا تكفي الأيام لمحوها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



2))

شجرة الزيتون

لقد حافظت على عهدي، كنت مأوي كل شريد وطريد، حتى لصوص الجبال
الفارين من العدالة لم أعبأ بجرمهم، للعدالة حكم إلهي وليس دوري تنفيذها، إلا إذا
أمرني الله، لم تبخل غصوني أبداً عن حماية من لاذ بها من غدر البشر وشرورهم،
فأويتهم.

جلست وداد تسند ظهرها على جزعي فأواها، أغمضت عينيها وكأنها تجردت من
كل هموم الدنيا، أنزلت ابنتها من على كتفها، تترتاح لبعض الوقت، وكأنها تخلع
عليّ همومها، ليس أقوى من إنسان خسر كل شيء، لا يمكن أن يحدث لها أسوأ مما
كان.

ياسين صديقي الذي كان ينجيني بات مهموم الفؤاد، شعرت به تلك الليلة وكأنه كبير
عشرات السنوات رغم أنه كان يداعب غصوني صباح اليوم، ولكن أحياناً يكون
يوماً في عمر البشر بعمر كامل.

أفضت بثمري عليهم، النقط ياسين واحدة ونظفها في ملابسه وهم يعطيها لوالدته،
التقطتها بابتسامة رضا وهي تنظر إليه، لم تعنفه مثل أول لقائي بهم، فشعرت بالألفة
معها.

- ارتح هنا حتى الصباح، ومع شروق الشمس نرى ماذا نفعل، للنهار عيون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



3))

وجد أخيراً ضالته التي كان يبحث عنها، تحت تلك الشجرة العتيقة على أطراف القرية، بيد أن تأخير الوقت لم يُتِح لهم مغادرتها، حمداً لله على ذلك.

تأمل ملامح وجه وداد النائم في سكون، بينما تحتضن يدها عابدة المتوقعة بداخها، التفت يميناً يبحث عن ياسين فوجده هو الآخر خالداً في النوم على الجانب الآخر من الشجرة.

اقترب منها يوقظها، صوته أكثر وداً من ذي قبل، بينما أشعة الشمس تحجب عنها الرؤية، حتى بدت الصورة الضبابية تتلاشى وتوضح ملامحه الحادة، شعرت بوخزة في قلبها قبل أن تلتف يميناً ويساراً تستجمع أحداث تلك الليلة وهي تتذكر كيف انتهى بها المقام تحت شجرة.

- بحثت عنك طوال الليل لم أجذك في كل مكان يمكن أن تذهبي إليه، ظننتك أويت إلى مسجد القرية.

كانت وداد ما زالت غير مستوعبة ما جاء به حتى الآن، عادت إليها ذاكرتها نشطة بعد كل ما حدث بالأمس قبل أن تجيبه بكل تهكم.

- خيراً يا أبو محمود، مدام جانيت أرسلتك لتطمئن أننا غادرنا القرية؟ أخبرها أننا في طريقنا للخروج منها، كنا ننتظر فقط ضوء الصباح لنغادر.

- لم يرسلني أحدٌ يا وداد ولن تغادري القرية، كلنا أهلك، لقد جئت قاصدة دار عيسى الصباغ، ولا يُخذل أحداً قصد سبيله، إن ضاق بك العيش في بيت إبراهيم الصباغ، فبيوتنا جميعاً مفتوحة لك.

نظرت إليه وداد بابتسامة شكر وهي تهتم بإيقاظ أولادها:

- شكراً يا أبو محمود، ليس لنا مكان في القرية بعد الآن.

- أقسم بالله لن تغادريها، على الأقل الآن، لقد دخلت هذه القرية معززة مكرمة، قصدت دار كريم ابن كريم، ولن تخرجي منها إلا معززة مكرمة يا أم ياسين، منذ أن علمت بما حدث وأنا أبحث عنك ولم يهدأ لي بال حتى عثرت عليك، كنت أخاف أن تغادري قبل أن أراك فيلحقنا عار الخزي طول عمرنا. هيّا بنا الآن.

- إلى أين؟

- داري، أمتلك داراً في هذه القرية قبل أن يستقر بي الحال في بيت الصباغ.

صمت برهة، ثم أكمل وقد بدت عليه علامات الأسى:

- كنت أمتلك داراً، كما كنت أمتلك أسرة.

لم تشأ وداد أن تستبين كلامه، به من المرارة ما يكفي، تركت نفسها مرة أخرى ليد القدر، التي بيد أنها ستشفق عليها أخيراً، فسارت متبعة خطوات أبو محمود إلى ذلك المجهول، ولكنها على الأقل هذه المرة لم تطرق باب أحدٍ، بل هو من سعى إليها.

طُرق غير ممهدة بين أزقة القرية سارت فيها وداد برفقة أبو محمود، حتى استقر بهم المقام أمام بناية قديمة، مكوّنة من طابقين ذات سلم حديدي مثبت على الجدار الخارجي للبيت يقود إلى غرفة منفردة أعلى البناية. صعد أبو محمود السلم تتبعه وداد حتى فتح باب الغرفة تلك.

يبدو أنها مهجورة من زمن، أضواء مصباح زيتي في الغرفة لتعكس حالة الفوضى التي كانت عليها، بعض قطع الأثاث القديمة التي تغطيها الأتربة من كل مكان، وقفت وداد على باب الغرفة بينما تقدّم أبو محمود يفتح نافذتها التي سمحت لضوء النهار بكسر حالة الفوضى التي كانت عليها وهو يلتفت إليها يقول:

- تحتاج فقط إلى يد امرأة فيها، ستكون أفضل مما هي عليه الآن، كما كانت.

- الدار عامرة دائماً بأصحابها يا أبو محمود.

- الدار دارك يا وداد أنت وأولادك، ملكك ما حييت وورث لك بعد ما أموت.

- أطال الله عمرك يا أبو محمود.

- أترك الآن، أعلم أن البيت يحتاج الكثير حتى تعود له الحياة، سأمرُّ عليك اليوم أو غداً إن كنت تحتاجين شيئاً.

قالها وهو يترك مبلغاً من المال على المنضدة أمامها، لم يكن أمام وداد خيار مجاملة حتى لرفضه، ولكنها كانت تعلم ما ستفعل، أخذت المبلغ وهي تعد النقود بكل ثقة وتخبره بقيمتهم قائلة:

- هذا دين في رقبتي يا أبو محمود، لن أعيش على صدقات.

- سامحك الله يا ابنتي، لا صدقة لأب على ابنته.

ثم التفت إلى ياسين يداعب خصلات شعره وهو يكمل كلامه:

- ولا على أحفاده.

غادر أبو محمود الغرفة، خلعت عن رأسها وداد طرحتها ورفعت أكمام جلبابها، منادية على ياسين وقد بدت السعادة على وجهها:

- لدينا الكثير من العمل يا ياسين حتى نعيد للبيت الحياة.

كانت أول مرة تشعر بالخصوصية منذ أن تركت بيتها في اللد بعد وفاة زوجها، تحركت في الغرفة بسعادة وراحة، لم تشعر بهما منذ أن أتت إلى القرية، شعرت أنها في منزلها لأول مرة دون أن يجرح أحد حياتها، أو تخشى من صوت لعب الأطفال أن يؤرقه.

عاد إليها أبو محمود صبيحة اليوم التالي، طرق الباب عدة طرقات قبل أن يفتح له ياسين، وقف لبضع لحظات يتأمل شكل الغرفة، وقد تبدّل بها الحال من حالٍ إلى

حالٍ، رائحة طعام و داد اللذيذة تملأ البيت، وأعدت إليه الحياة مرة أخرى، فرشت الأرائك القديمة بمفارش كانت متهالكة أعادت لها تلك اللمسة الأنثوية الحياء، جمعت بعض متعلقاته القديمة في صندوق وضعته بجوار الحائط، إلا تلك الصورة التي وجدتها تحت الفراش، نظفتها جيداً وعلقتها على الحائط امتناناً له، وكأنها تريد أن تخبره أن الدار ما زالت داره.

كانت صورة له في شبابه، بدت ملامحه أجمل، كشاب وسيم يرتدي بذلة كاملة، بجواره امرأة حسناء مصففة الشعر، تحمل طفلاً صغيراً ربما لم يتجاوز عمره في الصورة شهرين.

وقف أمام الصورة وقد أعادته لذلك الزمن الغابر، وقت أن كانت تعج هذه الغرفة بالحياة. تزوج أبو محمود من كريستين، صبية تعرف عليها في كنيسة بيت لحم، عاشا حياة هادئة لم ينغص عليهم حلو حياتهم سوى تأخر الإنجاب، طرق أبواب الأطباء والعرفان حتى يئس، وذات يوم حلم جار له برؤية؛ أنه شاهد كريستين تتجب ولداً، تهلت أساريره وهو ينذرهما الله إن أنجب ولداً سيسميه (محمود) على اسم صاحب البشري.

لم يمض الكثير من الوقت حتى شعرت زوجته بتحريك الجنين في رحمها، دخل في خلاف مع كاهن الكنيسة عندما علم بتسمية ابنه باسم (محمود) ولكنه أصر على ذلك، ولكن تم تعميده باسم كنسي (شنودة).

لم تتركه الحياة يهنأ كثيراً، أصيب الصغير بحمى شديدة قبل أن يبلغ عامه الأول، ظل طريح الفراش عدة أيام يعاني من ارتفاع درجة الحرارة قبل أن يتوفى، وتبعه بعدها أمه حزناً عليه بعد أقل من شهرين، حينها استقر به المقام في بيت آل صباغ نهائياً حتى كاد أن ينسى أمر هذه الغرفة، وكان القدر يدخرها إلى صاحببتها.

خرجت إليه و داد وجدته يقف صامتاً أمام تلك الصورة، اقتربت منه، شعرت أنها منطقة شائكة فتجنبت الحديث فيها، التفت إليها أبو محمود يقول لها:

- أتمنى أن تكوني ارتحتِ بالأمس.

- لقد فعلت من أجلنا الكثير يا أبو محمود، ستأكل معنا اليوم.

تناول أبو محمود الطعام معهم، جلست عابدة على قدميه يطعمها بيده، أعادوا إليه جو الأسرة التي حُرِمَ منها والتي ما كانت تغنيه عنها حياته في بيت الصباغ، شكرها على الطعام ثم همَّ يغادر البيت حتى لا يتأخر على إبراهيم الصباغ، شعرت من كلمته أنه يخفي الأمر عنه، أرادت أن ترفع عنه الحرج حتى لا تسبب له مشاكل مع أحد:

- أبو محمود إذا كان وجودنا سيسبب لك مشاكل يمكننا أن نغادر اليوم قبل غد، لدي أهل وبيت في اللد.

- لقد أعدتم لي اليوم جو الأسرة التي حُرِمَتم منه، وشعرت أن لي بنتاً وأحفاداً، لن يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منكم ما دمتُ حياً. أما أمر إبراهيم الصباغ فلا يهمك، إنه

كطفل صغير يثور بسرعة ثم يهدأ، لن يغضب إذا علم بالأمر.

- ومدام جانيت؟

- أظن كل ما يعنيه أنك تتركين البيت، لا تريد سيدة غيرها فيه، حتى ولو كانت خادمة، عفواً يا ابنتي لا تغضبي من صراحتي.

قالها وهمّ يضع مبلغاً من المال مرة أخرى بينما قاطعته وداد قائلة:

- أخبرتك بالأمس أنني لن أربي أولادي بأموال صدقة، أعرف ما أسديته لنا من جميل؛ جميل ربما بخل عليّ به أقرب الناس إليّ، أخي ابن أبي، لكنني سأعمل يا أبو محمود، سأندبر مصاريف أولادي من عملي. ويمكنك أن تساعدني.

- ماذا تتوین؟

- كنت نويت منذ فترة أن أعمل بمفردي، أجد الحياكة وكان عندي ماكينة خياطة في اللد قبل أن أبيعها لسداد أجرة المنزل قبل سفرنا، أستطيع أن أحيك عليها ملابس نسائية والمفروشات. إذا دبرت لي واحدة مع بعض الأدوات البسيطة أستطيع أن أدبر دخلاً لا بأس به، ولكن سيكون كل ذلك ديناً أردّه إليك بعد أن يستقر لنا الحال.

- كما تريدین يا ابنتي، غداً أنزل على القدس، أعرف تاجر يهودي هناك يبيع تلك الآلات مستعملة، وقبل غروب الشمس تكونين بدأت أولى خطواتك في كسب لقمة عيشك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



4))

توطدت علاقة ياسين بإيلان، كانا يتقابلان بصفة شبه يومية تحت شجرة الزيتون، عرف منها قصتها. إيلان ابنة غير شرعية لأب يمني وأم بولندية، تعمل مطربة في أحد الملاهي الليلية في بولندا قبل أن تحترف البغاء وتدمن على الخمر، هرب بها أبوها قاصداً بلدتهم (ذمار) في اليمن، كانت حينها لا تعي شيئاً إلا ما قصته عليها جدتها على فترات متباعدة.

قُتل أبوها في أحداث عنف بعد اندلاع العديد من الخلافات بين القبائل العربية في اليمن واليهود.

علمت البنات أن والدها كان عضواً نشطاً في منظمة يهودية اسمها «الاستيلاء على الأراضي» وكان هدفهم تهجير اليهود اليمنيين إلى مستوطنات أشتراها يهودي أنجليزي لهم بهدف توطينهم في فلسطين.

اختبأت الجدة لعدة أيام لا تغادر المنزل حتى كادت أن تموت جوعاً هي وحفيدتها، فضلت الجوع على القتل، كان لديها يقين أن العرب بانتظارها بالخارج ليقتلواها، كانت تستيقظ من نومها ليلاً على كابوس اقتحام العرب ببيتهم وذبحهم! حتى جاءت تلك الزيارة من رجل أوروبي، بعدها بدت علامات السعادة عليها وهي تعد أشياءهم البسيطة قبل أن تخبرها أنهم عليهم أن يتركوا البيت في المساء، وعليها أن لا تخبر أحداً. لم يكن لها أصدقاء تلعب معهم أمام باب الدار لتخبرهم بشيءٍ ولكنها طمأنت جدتها على ذلك. ليأتي في المساء عدة أشخاص ملثمين يقودونهم في سيارة متهالكة نحو الحدود عبر طرق جبلية ملتوية، انضمت إليهم راحلة كبيرة تضم عدداً من يهود اليمن وعمان والجزيرة العربية على سيارات نصف نقل تنقل المسافرين ومتاعهم، بينهم حاخام لم يتوقف عن الصلوات طوال الطريق، حيث استقلوا سفينة من ميناء (عدن) بمرافقة ضابط من جيش الانتداب البريطاني حتى وصلت إلى ميناء حيفا ومن هناك تفرق الجمع كل حيث كان مرشد يخبرهم، فاستقلت إيلان القطار من اللد بصحبة جدتها إلى القدس حيث كان لقاؤهم الأول معاً.

بمجرد وصول إيلان وجدتها إلى القدس كانت الوكالة اليهودية تجهز لهما داراً، تسمى لخدمات أبيها (الذي مات وهو يدافع عن حق عودة للشعب الإسرائيلي)! تلك الدار التي لم يتسنّ لإيلان الاستقرار فيها قبل أن تعلم أن عليها الالتحاق بالكيوتس!

حياتها كانت في الكيوتس مملة، رتيبة، معسكر كبير تعيش في معزل عن جدتها، إجراءات صارمة منذ الصباح بداية من الإفطار الجماعي مروراً بالعمل في مزارع الكيوتس ودروس دراسة اللغة العبرية، حيث كان لا يسمح بالتحدث بغيرها، كلها أشياء جعلت من إيلان تصبو إلى تلك الدقائق التي تقابل فيها ياسين.



5))

ثلاثة أيام خاصم فيها إسماعيل والده، كان يتعامل معه بصورة حادة فيما يتعلق بأمور الورشة فقط، عم يونس كذلك يشعر بالخزي، تمنى أن كانت الأيام لم تضعهم في هذا المحك.

تحمل إسماعيل كثيرًا من معاملة والده القاسية له، تنازلَ عن حُلمه في الالتحاق بالجامعة ولم يشأ أن يصطدم به، حتى كانت تلك الواقعة، التي كسرت شيئًا لا يمكن إصلاحه في نفس إسماعيل، نظرة ياسين التي كانت تتشبث به ألا يتركهم في مثل هذا اليوم ما زالت تضني شيئًا في قلبه، لياسين مكانة خاصة في قلبه، لا يعلم لماذا؟ ربما لما يشعره معه بإحساس المعلم الذي يبذر أفكاره في عقل نابت صغير، نظرات التقدير والإعجاب التي كان يشاهدها في عين ياسين عندما يشرح له أمرًا كانت ترضي غروره، تلك النظرات التي خذلها إسماعيل وهو يقف مكتوف الأيدي أمام طرد والده لهم في هذا اليوم، واقعة لا يمكن أن ينساها.

لم تجد تبريرات والده له طوال الأيام الماضية حول موقفه، نعته لأول مرة بكلمة (يا ولدي) في هذا اليوم:

«يا ولدي لا يمكن إيواء أسرة طُردت من كنف إبراهيم الصباغ، خطأ كبير لن يغفره لنا، لا هو ولا مدام جانيت. أنا أعرف هؤلاء الناس أكثر منك، لن يسمحوا لأحدٍ أن يقف في وجه رغبتهم، ولنا مصالح معهم كثيرة، كل عملنا مرتبط بسيارتهم أو سيارات قادمه إليهم، خصوصًا بعد إنشاء شركة تكسير الكلس؛ سيارات النقل الثقيل القادمة والمغادرة للقرية كلها ستكون صيانتها معنا، تعلم ما يمكننا أن نجني من وراء ذلك؟ هل تريد أن نخسر كل هذا من أجل ياسين وأمه؟!»

ولكن إسماعيل كان على استعداد أن يخسر حياته كلها إذا تطلب الأمر؛ من أجل الحفاظ على نظرة الثقة تلك التي فقدها للأبد في عين ياسين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أفتقده كثيرًا، وما زاد حزنه عندما علمَ بأن (عم أبو محمود) خادم إبراهيم الصباغ أو اهم، زاد حنقه على والده. كهل في هذا العمر لم تنقصه الشجاعة في حماية أرملة وطفليها من غدر سيده، بينما أبوه تخلى عنهم.

قادته قدماه إلى حيث يسكنون، كانت تنقصه الشجاعة أن يطرق باب الدار، ولكنه لم يكن أمامه حل آخر، افتقد ياسين فقدان الأخ لأخيه، كما كان يصبو إلى اللعب مع عايدة.

طرقَ باب المنزل حتى فتحت له وداد، نظرة الخجل في عينيه التقطتها، فرفعتها عنه بابتسامة الود تلك، وهي تفسح له الطريق للدخول بينما تنادي ياسين:

- صديقك إسماعيل جاء يا ياسين.

كلمة طربت لها أذناه، شعر أن الأمور ستسير على ما يرام، لن تطرده وداد من بيتها كما طردهم أبوه في جنح الليل، خرج ياسين على عجل يسلم عليه، يبدو أنه هو الآخر كان يشتاق إليه. أخرج إسماعيل قطعة حلوى وأعطاهها إلى عايدة، سعدت بها وجرت نحو النافذة تأكلها بينما عيناه تتابعانها، حاول أن يقدم اعتذاراً لوداد عند تلك الليلة ولكنها قد نسيتها وقالت له:

- حصل خير يا إسماعيل، كفى أنك رَحَبْت بنا، لم يكن الأمر بيدك على كل حال.

فتحت وداد دارها إلى إسماعيل يدخله وقتما يشاء، كان كثير الهدايا لعائدة، أتى لها بتلك الدمى باهظة الثمن من القاهرة، بات لا يوصي أصحاب السيارات القادمة منها على الكتب والروايات، بل كان يوصيهم بلعب أطفال للبنات، يأخذها منهم على حذرٍ بعد تأكيد عليهم بأن لا يخبر أحدٌ والده بالأمر.

تحدث مع ياسين ذات مرة عن أمر رجلٍ ظهر في ألمانيا، اسمه (هتلر)، تولى مقاليد الحكم هناك، يظن إسماعيل أنه سيكون له شأن كبير في الصراع الدائر بين الصهاينة وبينهم، رغم محاربة هتلر للشيوعية إلا أن إسماعيل كان يعول عليه كثيراً في تخليص العالم من الخطر الصهيوني المتصاعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(1935-1945)

الفصل الرابع

(1)

رغم ما حدث في تلك الليلة، إلا أن عم يونس كان يعرف جيداً كيف يعيد ابنه إلى حوزته مرة أخرى، استقبل ياسين في ورشته أكثر من مرة، كما عرض عليه العمل معهم، رغم أنه كان يرفض أن يُخرج أسرار مهنته إلى أحد غير ابنه، إلا أنه أراد إصلاح ما يقدر عليه محاولة لإرضاء إسماعيل (الذي شعر بأنه كبر وصار شاباً ورجلاً بجواره) وفي نفس الوقت إراحة ضميره الذي لم يكن على كل حال سعيد بما جرى في تلك الليلة.

- اسمع كلامي يا ولدي، أنا رجل عجوز، صنعة في يدك خيرٌ من أموال في البنك، تعلمها في الصغر تكون أسهل عليك.

- شكرًا يا عم يونس، ولكن تجارة أمي بدأت تأتي ربحها، أصبح لها زبائن من نساء القرية يأتين لها خصيصاً لتفصيل ملابسهن، أبو محمود يتولى البيع للكثير من أصدقائه خصوصاً المفروشات. من يومين جاء لنا بخبر جيد سعدت به أمي جدًّا، تاجر سوري شاهد مصنوعاتنا وأعجبته وقرر التعاقد معها على شراء كميات كبيرة. تقترح أمي أن نحول الأمر إلى مصنع أو ورشة بشراء عدة ماكينات أخرى، إلا أن أبا محمود يمانع كلما عُرض عليه؛ لا أعرف لماذا؟

ظهرت ابتسامة على وجه عم يونس وهو يقول له:

- اسمع كلامه هو أكثر منكم خبرة.

كانت جلسات سمر ليلية تجمعهم بجوار منزل عم يونس، ظهرت الألفة بينه وبين ياسين وإسماعيل، انضم إليهم على فترات متباعدة (الدرويش) الذي بدأ يشعر بالراحة بجوار ياسين، وعلى غير عادته بدأ يختلط مع بعض أهل القرية رغم تلك السنوات التي قضاها وسطهم لا يعلم أحدٌ من أمره شيئاً، رغم ذلك كان قليل الكلام، لم يتسنَّ لأحد حتى معرفة اسمه ولا فصله، ربما كان هذا الدافع إلى تجنب أهل القرية التعامل معه، ففي تلك الفترة كانت القدس ملتقى لكثير من جنسيات العالم الذين مروا من هنا للحج أو للحرب ولا أحد يعرف لماذا أتى إلى هنا!

بعد فترة أعد إسماعيل بمساعدة ياسين (تعريشة عنب) بجوار باب المنزل، لم ينتظر كثيراً حتى امتدت أفرع غصونها على القفص الخشبي بينما غطى ورقها واجهة البيت، وضع إسماعيل أريكة قديمة تحتها، قبل أن يهديه ياسين كسوة تغطيها، هدية أعدتها لهم وداد.

مع مساء كل يوم كان يغلق عم يونس الورشة ثم يصطحب ذلك الفانوس الكهربائي من على بابها ليضعه تحت تعريشة العنب فتضيء المكان وتعكس على الطريق ظلال أوراق العنب، حتى يفرغ من رش المياه أمام باب الدار، تلك العادة التي يواظب عليها مرتين يومياً صباحاً ومساءً. أحياناً يأتي له ياسين يشاركه تجهيز المكان وأحياناً أخرى يتأخر فيكون عم يونس وإسماعيل قد أعدا الجلسة فينضم لهم على فترات الدرويش أو بعض شباب القرية.

الشاي المَعَدَّ على الفحم وكذلك القهوة الفلسطينية التي كان يصنعها عم يونس للحضور كانت تجذب الجميع له، يشتريها من تاجر من حلب يعمل خلطة خصيصًا لهم، يعدها لهم بنفسه مساء كل يوم في جلسات السمر، أحيانًا كثيرة كان ياسين يحضر لهم صينية حلوى من صنَع و داد يأكلونها معها.

بمرور الأيام اقترب أكثر في تلك الفترة ياسين من عم يونس، شعر معه بالأبوَّة بعد أن كان يخشى أن يلتقي بعينه عندما كان يزور إسماعيل، بعد طردهم من البيت، وجدَّ عنده سعة أفق كبيرة، وخبرة بمعرفة الناس، كان أكثر دهاءً من إسماعيل، بل إن إسماعيل يُعد قطرة في بحر من علم عم يونس بأخبار الناس وأحوالهم، يعلم كل العائلات في القرية وأصلها، أتوا من أين وأصل عائلتهم ماذا، إلا أنه كان أكثر مكرًا من إسماعيل الثرثار، الذي لا يتوانى في الثرثرة إلى كل من يعرفه ومن لا يعرفه بما يعلم، أما عم يونس فكان لا يتحدث إلا قليلًا جدًّا، عندما يكون رائق البال، فيجتمع حوله الحضور يسمعون منه قصة كل كبيرة وصغيرة وتاريخ القرية، ذو علم كبير رغم ذلك كثيرًا ما كان يظهر الجهل، حتى قالها ذات مرة.

«اجعل الناس كلها تظنك جاهلاً، بينما أنت تعرف أكثر منهم»

يظن ياسين أنها هوايته إظهار الجهل والطيبة، بينما هو ثعلب في الحقيقة، تلك النظرة التي شاهدها في عينه غير مرة وهو يقص عليه تاريخ جورج الصباغ وعائلته.

كلب عم يونس (ماكس) بدا هو الآخر يشعر بالسعادة، ألف وجودهم وقلَّ نباحه عند حضورهم، تجرأ عليه أخيرًا ياسين وجلس يداعب شعيرات جسده دون أن يخاف، علم من إسماعيل أن والده يهوى تربية الكلاب، كان يمتلك أكثر من عشرة كلاب في البيت، وكان يتاجر فيهم ولم يبقَ منهم إلا ماكس.

عندما علمت و داد بحال عم يونس وياسين، تعجبت في البداية، طبع عم يونس ليس الذي يفتح داره لجلسات سمر ليلية، إلا أنها بدت هي الأخرى على دراية بأحوال الناس فقالت لياسين:

«كل هذا من أجل أن يظل إسماعيل دائمًا تحت عينيه، لا يغفل عنه، لا يريد حتى أن يكون له أصدقاء يجلس معهم بعيدًا عن عينيه».

ولكنها في النهاية سعدت بالوضع، تعلم أن إسماعيل ليس بالشاب الذي يفسد أخلاق ابنها وكذلك وجودهم دائمًا تحت عين عم يونس الذي لن يسمح بأي انحراف في سلوك ابنه أدخل الطمأنينة على قلبها وشجعت ياسين على الذهاب إليه كل يوم للسهر تحت تعريشة العنب.

ولكن كان هناك سبب آخر لتشجيعها ياسين على ذلك، كانت تريد أن تقلل من تواجد إسماعيل في البيت، أصبحت عايدة شابة، رغم أنه عمرها لم يتجاوز الخامسة عشرة إلا أن معالم الأنوثة باتت واضحة تداعب أعين شباب تنفتح زهرة الرجولة فيهم، لم يعجبها حالها مع إسماعيل، كانت تتعامل معه كطفلة مع أخيها الكبير، تعلم و داد ذلك، ولكن الطفلة كبرت ونضجت مفاتها ولا يمكن أن تسمح لها أن تقبله

عندما يأتي لها بهدية أو تجلس معه كثيرًا، رأت في عين الشاب ولعه بالبنت، فأثرت السلامة وحاولت تقليل تواجد عايده معه، حتى طاب لها مجلس عم يونس الذي أخذ منهم إسماعيل الذي كان قبله لا يتوانى عن زيارتهم يوميًا بحجة الجلوس مع ياسين. خلال تلك السنوات ظهرت معالم السكن في القرية، بات شبابها أكثر نضجًا وأطفال الأمس صاروا شبابًا، كبر ياسين وأصبح أكثر عقلًا فقلَّت المشاكل التي كان يسببها لوداد، كما ظهرت الألفة بين شباب القرية وباتوا متقاربين أكثر، تجمعهم لحظات ودٌ كثيرة تحت تعريشة العنب بجوار ورشة عم يونس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

افتتحت بعد ذلك على أطراف البلدة مقهى، يجتمع عليها أهل البلد بعد الانتهاء من عملهم أو من يريد أن يجتمع مع أصدقائه، بدا الغضب على عم يونس بمجرد أن علم بأمر المقهى التي بدأت تجذب الرواد خصوصًا بعد أن اشترى صاحبها جهاز مذياع (راديو) واجتمع حوله روادها يستمعون إلى أغاني أم كلثوم وليلي مراد وعبد الوهاب. يرى فيها ضياعًا لأصول وعادات البلد، التي كانت جلسات السمر فيها تتم في مضيفة أحد كباراتها، يتبادلون الحديث بينما نساؤهم يجتمعن في غرفة مجاورة لهم، أما أن يجلس الشباب على ناصية الشارع يدخلون النرجيلة على الملاء وأعينهم تجرح القادم والذهاب، فهذا حال لم يعجبه.

كان لا يريد أن يفر منهم أحدٌ إلى تلك المقاهي، فأعدَّ عم يونس تلك المفاجأة، جلس في هذا اليوم وعلامات القلق بادية على وجهه ونظره مثبت على الطريق السريع للقدس الذي يظهر أمامهم خلف أشجار الزيتون، بينما ياسين وإسماعيل يتبادلان حديث هامس حول النساء مستغلين انشغال حال عم يونس عنهم حتى انفرجت أساريره وهو يشاهد سيارة إدوارد قادمة من بعيد.

أصبح إدوارد شابًا مكتمل البلوغ في العشرين من عمره، إلا أن أباه ما زال يعامله كالأطفال حتى إنه رضخ لرغبته في الالتحاق بالجامعة في القاهرة من أجل تحقيق حلمه بأن يصبح محاميًا شهيرًا، بينما إدوارد لم يعبأ بأمر التحاقه بها سوى تواجده بالقاهرة لتحقيق حلمه الخاص بالعمل في السينما التي ما زالت حلمًا له.

استقرت السيارة أمام باب الورشة بينما نزل منها إدوارد ألقى السلام على عم يونس الذي كانت عينه تتأمل الأريكة الخلفية للسيارة والتي كان عليها صندوق خشبي كبير.

رحب عم يونس بإدوارد وهو يشكره على تعبه معهم بينما إدوارد بدأ يتحدث بثقة وكأنه خبير مفرقات، يطلب من ياسين وإسماعيل تنزيل الحمولة من السيارة، ولكن بكل هدوء حتى لا ينكسر شيء.

كان عم يونس مُعدًا منضدة خشبية منذ صباح اليوم، ظنَّ إسماعيل أن والده سيستخدمها لوضع فناجين القهوة عليها بدلًا من جلسة الحصيرة على الأرض، ولكن كان لها غرض آخر في رأس عم يونس.

تقدم إسماعيل وياسين ووضعاً ذلك الصندوق الثقيل على المنضدة وهم لا يعلمون من الأمر شيئاً إلا أن عم يونس يعد لهم مفاجأة، بالطبع سعيدة، تقدم إدوارد كجراح ماهر يرفع الصندوق الخشبي ليتظهر المفاجأة أمام الجميع.

جهاز راديو حديث اشتراه عم يونس خصيصاً لهم، ظهرت علامات السعادة على وجه إسماعيل وياسين على حد سواء بينما يخاطبهما عم يونس وهو يضع يده على جهاز الراديو ويقول:

- الآن ليس لكما حجة في الذهاب إلى المقاهي.

أشار إدوارد للجميع بالصمت، وضع أذنيه على سماعات الراديو الكبيرة بينما تلف يده بكرة صغيرة على الجانب الآخر ظهر بعدها صوت الأثير حتى استقر الصوت وبدأ أوضح.

كان صوت مذيع يتحدث بالإنجليزية بينما ظهرت علامات الثقة على إدوارد وهو يقول:

« هذه إذاعة صوت القدس، تبت بثلاث لغات، العربية والإنجليزية والعبرية.»

أدار المحرك مرة أخرى فعادت تلك الخرخشة من جديد حتى استقر صوت (منيرة المهدية) تشدو بأغنية طرب لها عم يونس وهو يقول:

- اتركها لنا يا إدوارد.

ظهر الخلاف من بدايتها بين إسماعيل - الذي كان يريد أن يستمع إلى مطرب شعبي حديث اسمه (محمد عبد المطلب) - وبين عم يونس الذي أصر على سماع أغنية منيرة المهدية (أسمر ملك روجي) حتى اشتعل غضب عم يونس عليهم وهم يغلق الراديو مقسماً بأغظ الأيمان أن تلك الأغاني الهابطة التي يسمعها الشباب تلك الأيام لن تُسمع عنده، ثم تركهم ولم تكمل فرحتهم بجهاز الراديو الذي يبدو أنه سيكون ثمرة خلاف جديد بين إسماعيل ووالده يونس.

تبادل الجميع الضحكات بمجرد مغادرة عم يونس المكان، كانوا اعتادوا على عصبية طبعه، مع الوقت ألفوه، امتدت يد إسماعيل بحرص لتشغيل الراديو فتمت العملية بنجاح، حينها استأذن إدوارد منهم بالمغادرة بعد أن اطمأن أنهم علموا كيفية تشغيله، أقسم عليه إسماعيل أن يجلس معهم بعض الوقت:

- على الأقل تستريح من تعب السفر، سأعدُّ لك أفضل فنجان قهوة تشربها في حياتك، اجلس يا إدوارد واحك لنا عن القاهرة وجامعتها وماذا ترى فيها.

كان إدوارد يحب من يعطيه حق قدره، وإن كان لا يستحقه. كان حقاً الوقت متأخراً، وربما يقلق عليه والده الذي أخبره منذ يومين أنه قادم في الطريق، فقد كان أول مرة يسافر تلك المسافة بالسيارة بمفرده، بعد أن اعتاد ركوب القطار منذ أن التحق بالجامعة. إلا أن رغبة إسماعيل في الجلوس معه أنلجت صدره، يحب دائماً التباهي بنفسه وهو يقصُّ على أهله وأصدقائه عن القاهرة ومغامراته فيها مع كبار الفنانين الذي دخل معهم في صداقة، تظاهر مرة أخرى بالاعتذار هو يقول لهم:

- اعذرني يا إسماعيل، تأخرت في الطريق، وأنا قادم إلى هنا قابلني محمد فوزي وعطلني بعض الوقت وأخشى أن يقلق على والدي.

ظهرت علامات التعجب على وجه الجميع وهم يتساءلون:

- محمد فوزي المطرب المشهور؟

- طبعًا، هو صديقي المقرب في الوسط، هو وليلى مراد وليلى فوزي وأنور وجدي، كلهم أصدقائي.

ثم أخرج من محفظته صورة تجمعه بالفنان محمد فوزي، تظهر فيها ابتساماتهما بينما تعانق يداهما كتف الآخر، صورة تدل على ودّ وصداقة بينهما.

أقسم عليه إسماعيل أن يجلس، لن يتركه قبل أن يحتسي فنجان قهوة ويقص لهم بعض الوقت عن القاهرة وجمالها، تظاهر إدوارد بالقبول على مضض فجلس وسطهم وهو يقص عليهم مغامراته في القاهرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(2)

شجرة الزيتون

نتألم كما يتألم البشر، نشعر بالهجر والنسيان، نتملكنا مشاعر الغيرة كما أشعر بها الآن من شجرة العنب تلك، التي لا تقوى أن ترفع غصن إلا على أفصاص خشبية يصنعها البشر لها، بينما انا تمتد جزوعي بطول الارض وفرعي تعانق السماء وأغصاني تحمل ثمارها طول العام دون تعب أو مساعده من بشري، جزعي مرسى لظهور البشر تشد عضدهم، لم تخذلهم يوماً أو تهوي بهم، تشتد دائماً لهم وبهم، ولكن طبع البشر النسيان.

هجرني ياسين ورفاقه إلى تلك الشجرة الجديدة، ولكن سيعودون بعد قليل، فلا مسافر يستغني عن ظلي، ولا عاشق يستغني عن ستري، ولا جائع يستغني عن ثمري، فأخضر الزيتون ولا يابس الحطب.

أنا الأرض وأنا الوطن، أنا شجرة الزيتون المباركة لا شرقية ولا غربية، جاء ذكرني في القرآن الكريم فكرمني، لذا فأنا رمز السلام على هذه الأرض، سيظل السلام موجوداً طالما أظل عليه بغصوني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



3))

على الرغم من أن إدوارد قد تظاهر بالتمنع من قبول أستضافة إسماعيل له، إلا أنه في الحقيقة كان يحاول أن يهرب من العودة للبيت في هذا اليوم بقدر الإمكان، فبمجرد أن اقترب منتصف الليل وظن أن كل من في البيت قد خلدوا للنوم، استأذن من إسماعيل عائداً إلى بيته، لا يطمع إلا أن يؤجل تلك المواجهة مع والده إلى ساعات الصباح الأولى، عله يجد من يرحمه منها، كان جد اليوم شاقاً والسفر طويلاً عليه، ولا يريد أن ينتهي بتلك المشاجرة العقيمة معه حول نتيجة الكلية.

اقترب من المنزل الذي كانت إضاءته خافتة، خلع نعليه على الباب قبل أن يلقي السلام على أبي محمود مداعباً إياه كوالده «أهلاً يا رجل يا عجوز» بينما يصعد درجات السلم بهدوء حتى لا يوقظ أحداً يسأله عن نتيجته في الجامعة التي ظهرت منذ أيام؛ راسب كالعادة، لم يحزن، ما يهمه هو استمرار بقائه في القاهرة، أخيراً تمت مهمته بنجاح وتسلسل نحو الغرفة، ارتدى على سريرها دون حتى أن يخلع عنه ملابسه، يريد أن ينعم بتلك الساعات قبل مواجهة أبيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خطوبة كارولين مع إدوارد كانت أشبه بالأمر الواقع، لم يتحدث فيها أحداً، الجميع يعلم منذ نعومة أظافرهم، حتى في حياة عيسى الصباغ، أن إدوارد لكارولين، رغم اختلاف طبائعهم، إلا أن حظها العثر جعلها الكبيرة والتي وقع لسان جانيت عليها أثناء تخطيطها للسيطرة على أملاك آل الصباغ.

لم يرفض إدوارد أمر الخطوبة بالرغم من أنه لم ينجذب إليها، ولكن في النهاية لا يمكن أن يرفض الزواج من كارولين التي كانت تعد فرصة لمن هو أكثر منه شأنًا، حباها الله بجمال وجه يطل منه نور الصباح، هادئ القسمات، يغلفه شعراً أصفر تصفحه دائماً بطريقة بسيطة يزيدا جمالاً ورقة، تكمل دراستها في مدرسة للراهبات بالقدس تمكث هناك معظم فترات السنة، تشعر بالألفة هناك وفي العزلة وحياة الدير بعيداً عن مظاهر الثراء التي كانت تفرضها عليها أمها جانيت، تجيد الفرنسية بطلاقة وتكتب بها أشعاراً، إلى جانب أنها تتقن الإنجليزية أيضاً، في النهاية كانت مواصفاتها قياسية بكل الأحوال لا يمكن أن ترفض.

رغم أن إدوارد لم يبادلها المشاعر إلا أنه كان يستكثرها على نفسه! يحبها الجميع ويدللونها، أولهم إبراهيم الصباغ الذي كان يعاملها أفضل مما يعامل من في البيت، حتى بعدما علم بخبر عودة ابنه مساءً أمس، وتسلسل إلى غرفته خوفاً من أن يراه، علم نتيجته، لم يشأ أن يسأله عنها، مل من تصرفاته، ورغبته في التمثيل، فما عاد يعول عليه في شيء، إلا إشفاقاً على مصير ابنة أخيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت جانيت محافظة على عاداتها في شرب الشاي مع الكيك صباحًا في المضيضة بجوار إبراهيم وابنتيها حينما دخل عليهم إدوارد يلقي عليهم السلام، اختص جانيت بسلام حار بطريقة مسرحية وهو ينحنى إليها ويقبل يدها قائلاً بفرنسية رقيقة:

- (بنجور مدام).

جانيت تعشق تلك المظاهر، ظهرت ابتسامة سعادة على وجهها، إلا أنها كانت تريد أن تلفت انتباهه إلى وجود كارولين:

- وابنة عمك أليس لها من هذا الحب جانب؟

أجاب عليها إدوارد وهو يمسك يد كارولين يقبلها بينما عيناه تخاطبان عينيها باحتراف وهو يقول لها:

- ابنة عمي لها الحب كله.

احمرت وجنتاها من مغالته أمام الجميع، لم تكن الأولى، فقد اعتاد إدوارد أثناء تواجده القليل في دير ياسين أن يمطر مسامح خطيئته بكلمات الحب التي كانت تطرب لها أذنها، كان ممثلاً محترفاً يعلم جيداً كيف يملأ وقت فراغه في القرية قبل أن يعود إلى القاهرة يمارس هوايته في صيد جديد.

بينما تملك الغيرة من أختها الصغيرة مارلين، التي كانت لا تحتل أن يتغزل أحد في غيرها بوجودها، كانت ترى نفسها محور الكون، تهتم بملابسها بصورة مبالغ فيها، تراعي أدق التفاصيل، حتى في تلك الجلسة الصباحية، كانت تجلس فيها بملابس شبه رسمية وكأنها في حفلة ساهرة في أحد القصور، رفضت استكمال دراستها، ترى أنها ليست في حاجة إلى تعلم الشعر الإنجليزي والفرنسي وقواعد اللغة والرياضيات، تكفي فقط طلتها على الجميع حتى يبجلونها، فلا تحتاج أن تتكلم لتظهر ثقافتها.

حاول إدوارد أن يخفف من أجواء التوتر السائدة بين الجميع، إلى جانب أنه يسعى كذلك للهروب من والده وتقليل عدد أيام تواجده في البيت، فالمناقشات بينهم أصبحت لا تحتل ودائماً تنتهي بقسم من إبراهيم بحرمان ابنه من الذهاب إلى القاهرة إذا لم يصلح حاله، لذلك حاول أن يهرب من ذلك كله وهو يخاطب زوجة عمه على يكسب تعاطفها معه قائلاً:

- سنذهب اليوم أنا وكارولين في نزهة إلى (جبل الشيخ) بالسيارة.

التفتت إليه مارلين بدلال وهي تقول له دون أن تنتظر حتى جواب جانيت:

- كارولين فقط، ليس لك ابنة عم غيرها؟!!

فداعبها إدوارد قائلاً:

- بالتأكيد بصحبة ابنة عمي الصغيرة العزيزة.

بدأت علامات السعادة عليهم من أمر هذه الرحلة، مداعبات مارلين وابتسامة جانيت وصمت إبراهيم، كانت علامات الموافقة من الجميع، غادرت كارولين بصحبة

أختها الجلسة للاستعداد لرحلة الجبل، بينما عين إبراهيم تتأملهم في حزنٍ وهو يقول لإدوارد:

- خسارة كارولين أن تتزوج ولدًا تافهًا مثلك، كنت أتمنى لها رجلًا ناضجًا يليق بعقلها وكمالها.

تداركت جانيت الموقف قائلة له في عتاب:

- أظن أنك تفكر في أن تقسخ خطبتهم وتحرم ابنة أخيك من خطبتها!

- قسمًا بالله لو كانت هي ابنتي وهو ابن أخي ما زوجتها له.

عاتبته جانيت، أخذت إدوارد في حضنها ودلته كأمه وهي تقول لإبراهيم:

- وهل يوجد مثل إدوارد وجماله ووسامته، أنا على يقين من أن بنات السينما في القاهرة مغرمات به.

ردَّ عليها إبراهيم وهو يداعبها، مداعبة تخفي ما يضمرة في قلبه من حقيقة:

- اطمئني يا جانيت، لن تأتي واحدة من القاهرة تلعب عليه وتسلب قلبه وتضيع التركة من يدك.

غضبت جانيت حينها غضبًا شديدًا، خاصمت فيه إبراهيم عدة أيام بدا هو الآخر في أفضل حالٍ من دونها، لم يعد لها إليه سوى خبر من أسوأ الأخبار التي وقعت على مسامعها في الفترة الأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



4))

يتميز بيت سليم أبو زيد بطابع ريفي قديم مكوّن من طابقين وفناء واسع، بهو الطابق الأسفل كانت تقطنه إحسان زوجته الأولى مع ابنها حيدر قبل أن تنتقل للإقامة معهم ابنتها الكبرى سحر.

تزوجت سحر من صاحب الفرن في قرية دير ياسين، عاشت معه حياة هادئة لم يعكر صفوها كثير من المشاكل، أنجبت منه ولدها الأكبر (سليم)، تيمناً باسم أبيها، أصبح الآن ذا تسع سنوات، يذهب إلى مدرسة القرية بانتظام، وفي الإجازات يساعد أباه في الفرن، بعد سليم أنجبت سحر بنتين توأمتين هما رقية وسعاد، قبل أن تصر عليها أمها اصطحاب زوجها والاستقرار معهم في البيت بإحدى الغرف المجاورة لها بعد أن هجر سليم غرفة إحسان لتصير غرفتها هي ونجلها، بينما استقر تقريباً سليم في غرفة بمفرده بعيداً عن خلافات زوجيته.

حينما تزوج سليم من (حياة) لم تستطع إحسان معارضته، كانت تعلم أنها لن تستطيع أن تقف أمام رغبة زوجها في تلك الفترة، أظهرت علامات الترحيب عكس ما كان يظن قلبها من نيران الحقد والغيرة ولكنها في النهاية قبلت الأمر الواقع لتستقر حياة في الطابق الثاني من البيت.

أنجبت حياة ثلاثة أولاد، كوّن بهم سليم العزوة التي كان يتمناها؛ (أسامة) ابنه الأكبر والذي تحمل كل مسؤوليات شغل أبيه منذ نعومة أظفاره، لم يكمل تعليمه وشاركه في تجارته (رعي الغنم) قبل أن يتزوج دون أن يبلغ عامه السادس عشر وينجب من زوجته أربعة أبناء جميعهم صبية، بالطبع كان الأكبر اسمه (سليم).

حتى أصبح ذلك هو سلو تلك العائلة، ما إن ينبج أحد منهم ذكره الأول إلا ويسارع إلى تسميته (سليم)، طمعاً في نيل رضا جده ومباركته، شارك أسامة والد زوجته في شركة نقل البضائع برأس مال من والده، كبرت الشركة وأصبحت تحتكر نقل الحجارة من دير ياسين - حيث الكسارات - إلى القدس وضواحيها، ذبون دائم عند عم يونس الذي يتولى صيانة جميع تلك الشاحنات التي كان يقود إحداها أسامة بنفسه، عائلة زوجته من أكبر العائلات في اللد، والدها تاجر كبير ومنها عرض عليه أمر مشاركته في الشركة قبل أن يقوى أواصر الصداقة بينهم بزواج أخيه فراس من أخت زوجته لتنتقل بجوار أختها في بيت سليم أبو زيد، أنجب فراس ابنه الأكبر (سليم) وتوقف عن الإنجاب بعدها، بعد ذلك بفترة قررت حياة التي كانت تحظى بمكانة خاصة في قلب سليم أن تقرح بنجلها الثالث والأخير، باسل الذي تزوّج من ابنة خاله تلك العروس التي اختارتها أمه له، قبل بضعة أسابيع فقط من اشتعال نار الغيرة في قلب إحسان وتسعى إلى زواج حيدر ابنها الوحيد، حتى يملأ عليها البيت، بعد أن فشلت محاولاتها الأولى باستقدام سحر وأولادها إلى البيت في كسر سيطرة أبناء حياة عليه، والتي باتت تشعر فيه إحسان بأنها الغريبة.

طَبَعُ سليم أبو زيد الشديد يجعل منه الأمر والنهي في البيت، ملامحه الغاضبة دائماً ونظرة عينه الحادة إلى جانب بخله الشديد الذي جعل من كل مقاليد البيت في يده، يصرف كيفما يشاء، الدقيق للخبيز يدخل البيت بحساب معين، بمقدار ثلاثة أرغفة لكل فرد فيه، تتولى إحسان - التي كانت أشد بخلًا منه - عملية الخبز في الفرن الصغير الذي يتوسط فناء البيت، قبل أن تشاركها سحر تلك المهام، حتى الدجاج والطيور التي تربيتها في البيت كان سليم يعلم عددها بكل دقة ويحدد المواسم التي تذبح فيها ونصيب كل واحد منها.

(حياة زيدان) كانت أغنى نسبيًا من إحسان وأكثر كرمًا منها، حاولت أن تعوض أبناءها ما بخل عليهم والدهم به، وما كان أمر تلك الشركة التي بدأها أسامة مع حماه إلا محاولة منها لوضع بعض الاستقلال المادي لأبنائها، ولكن هيهات أن يحدث هذا وسط قيود صارمة يفرضها سليم على كل نقود واردة أو مصروفة في الشركة أو البيت، حتى بات يحصل أسامة وأخواته على مصروف كباقي أبناء سليم دون الالتفاف إلى أي عمل خاص لهم يستطيعون أن يدخروا منه لشراء ما يطيّب لهم.

باسل الابن الأصغر المتمرد من صغره على طبع والده، حتى في إحدى جلسات السمر الليلية أعلنها على الملأ يرفض أن يسمى ابنه (سليم) كباقي إخوته، غضب حينها سليم أبو زيد أشد غضبًا، رغم أن الأمر لم يكن يتعدى أكثر من دعابة لحظات سمر، ولكنه كاد يطرده من بيته ويتبرأ منه لولا تدخل حياة زيدان، ولكن باسل كان مصرًّا على أمر ما زال في علم الغيب، أعلنها صراحةً إن أنجب ولدًا لن يسميه (سليم) مما أدى إلى تصدُّع ذلك الجدار بينه وبين والده حتى في أمر خطوبته من ابنة خاله التي لولا صلة القرابة بينهم ما كان ذهب سليم ليطلبها له.

باسل هو الوحيد الذي خرج عن طوع أبيه، رفض العمل في شركاتته، لم يسمع نصيحة أمه بأن يكون سندا لأخويه وأبيه، بمجرد أن أنهى تعليمه الأساسي حتى ذهب والتحق بإحدى الوظائف الإدارية في اللد، قبل أن ينضم إلى المقاومة، فشارك رغم صغر سنه مع قوات عز الدين القسام حتى وفاته، ثم اشترك في الثورة الفلسطينية الكبرى عام 1936م بعد استشهاد قائدها عز الدين القسام. ذلك كله قبل أن تشغله أمه بالزواج من أجل الابتعاد عن السياسة ورجال المقاومة وهو ما نجحت فيه لبعض الوقت.

بعد فترة ليست قصيرة من زواجه عاد باسل مرة أخرى إلى العمل السياسي، فانضم باسل بعدها إلى فدائيو (عبد القادر الحسيني) الذي بدأ يذيع صيته في أوساط القدس وفلسطين كلها، خصوصًا بعد قرار الأمم المتحدة بإنهاء الانتداب البريطاني وتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية! فتولّى قيادة قطاع القدس وعمل على وقْف زحف القوى اليهودية، ومن ثم قام بعمليات هجومية على قطاعان المستوطنين المتواجدين في محيط المدينة المقدّسة منها معركة مقر القيادة العسكرية اليهودية في حي «سانهدريا».

لم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من الفراسة ليعلم الجميع مدى الفجوة التي تزداد يوماً بعد يوم بين سليم أبو زيد الذي كان يرى المقاومة (حفنة من اللصوص) الذين

يهددون أمن وسلامة ممتلكاته وبين ابنه الذي كرس حياته كلها في خدمتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد سليم إلى بيته هذا المساء والغضب يملأ وجهه بعدما علم من جانبيت بأمر اشتراك باسل في العمليات الفدائية ضد الصهاينة في المستعمرات المجاورة، وما يمكن أن يسببه ذلك من ضرر لمصالحهم مع الإنجليز في شركة تكسير الكلس التي باتت أرباحها في توسع، لهجة غلب عليها الود والنصح تحدثت بها جانبيت، لم تخف خلفها تهديدها المستتر لسليم إذا لم يصرف نجله عن المقاومة.

فبمجرد أن دخل سليم البيت حتى نادى بصوته المرتفع على باسل، نبرة صوته أصابت الجميع بالهلع والخوف، من الصعب أن يُخرج سليم شيئاً عن اترانه إلا أمر جلال، ناهيك عن قصده باسل خصيصاً بالمناداة، فعلم الجميع أن في الأمر شيئاً، وهو ما دفع حياة زيدان بالخروج مسرعة قبل أن يفرد سليم بباسل الذي لحقها وقد ظهرت عليه علامات غضب تنذر بما سينتهي إليه النقاش بعد أن أصبح يتأفف في الفترة الأخيرة من تعنيف وتوبيخ والده له على الملأ.

- نعم يا والدي.

- ألم أقل لك من قبل لا شأن لك برجال المقاومة وتلك الجماعات المتشردة؟

- يا أبي المقاومة ليست تشرداً، إننا ندافع عن وطننا ووجودنا وأهلنا ضد...

قاطعة سليم بلهجة ناهية:

- لا أريد أن أسمع هذا الحديث الواهي الذي يملأون به رؤوسكم الفارغة.

- رؤوسنا ليست واهية يا والدي، إننا ندافع عن الأرض، ولن أترك المقاومة مهما كلفني الأمر. هذا طريقي ولن أحيده عنه.

- هذا ليس اختياراً يا باسل؛ إنه أمر. لقد تحملت أفعالك الصببانية طوال تلك الفترة على أمل أن تعقل وتساعدني كأخويك في عملي، تحملت خيبتني فيك وقلة رجائي، ولكن أن تؤثر أفعالك هذه على أعمالنا، هذا ما لن أسمح به لك أبداً.

- يا أبي لو كان آخر يوم لي في هذه الدنيا ما تركت المقاومة، وإن كان وجودي يسبب لك الإحراج يمكنني مغادرة البيت، أما المقاومة فلن أتركها.

ظهرت علامات الغضب أكثر على وجة سليم أبو زيد الذي لم يتمالك نفسه وهو يصفع باسل على وجهه، صفة أضنت قلب أمه قبل أن تتقدم تفصل بينهما واقفة في وجه سليم تحاطبه:

- إياك أن تكررهما مرة أخرى، باسل رجل وليس صبياً صغيراً كي تعامله هكذا.

رد عليه سليم:

- هذا ما جنينا من تربيتك فيه، تربية تجلب العار إلى أهلها.

حذت تلك الكلمة في نفس باسل الذي استعاد بعض وعيه بعد تلك الصفة فقاطعه مرة أخرى وإن كانت ما زالت حياة تفصل بينهما:

- بل العار كل العار، على من يفضّل ماله وعمله، على أرضه وشرفه.
- هذا ما تعلمته من تلك العصابات أن ترد على أبيك؛ إذا ليس لك مكان في هذا البيت، اخرج منه الآن قبل أن أغسل عارك بيدي، لست ابني ولا أريد أن أراك مرة أخرى.
- كانت حياة تقدّر غضب سليم حق قدره، تعلم ما اقترفه باسل من جرم في الرد عليه، لن يغفره له أبدًا، كما بدا باسل أشد قسوة على أبيه بعد تلك الكلمات، كانت نظرات التحدي بينهما لا تتذر بالخير، فتقدمت من باسل وهي تخاطبة بلهجة أمره لم يستطع معها باسل إلا الامتثال لأوامرها:
- لا يصح أن تخاطب أبك بتلك الطريقة يا باسل، اخرج الآن وأطع أمر أبيك.
- ولكن لن أترك المقاومة مهما كلفني الأمر.
- قلت لك اخرج الآن يا باسل لقد تجاوزت كل الحدود المسموح بها، اخرج الآن قبل أن تلحقك لعنة غضب أبيك وأمك أيضًا.
- امتثل باسل لأمرها وغادر البيت، تلك المغادرة التي عزم معها ألا يعود إليه مرة أخرى، أما حياة فقد رمقت سليم بنظرة غضب وهي تعاتبه:
- باسل كبير يا سليم وما كان يصح أن تعامله هكذا، بذلك نخسر ولدنا للأبد.
- ليس لي أبناء منك غير أسامة وفراس، أما باسل فقط مات بالنسبة لي يوم أن خرج عن طوعي. إن أردت الدفاع عنه فلتلحقي به.
- قالها سليم وقد همّ يغادر البيت عائداً إلى منزل إبراهيم الصباغ، تلك الأيام لا تتذر بخير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



5))

بينما تجلس جانيت بصحبة سليم أبو زيد في المضيضة بحضور إبراهيم يتناقشون في بعض الأمور المالية الخاصة بالشركة وكيفية إدارتها إذ فوجئت جانيت بأبي محمود يطلب الإذن لدخول السيد ديفيد ألكسندر، كان كصاحب بيت لا يحتاج حضوره إلى استئذان، فوبخته جانيت وهي تهم بالذهاب إليه بنفسها ترحب به، كانت أول مرة يأتي بدون موعد سابق أو حفلة عشاء مدعو لها!

قابلها ديفيد ألكسندر بوجه متجهم، لم تستبشر فيه خيرًا، كان يقف أمامها بملابسه الرسمية كاملة، شعرت أن في الأمر شيئًا، أحوال الحرب العالمية الثانية تطغى علي كل محطات الإذاعات في الراديو، رافقته حيث مجلس إبراهيم مع سليم الذي سلم عليهم على عجل وهو يخبرهم بأنه مضطر للسفر إلى إنجلترا:

- الحرب دارت رحاها وجيوش هتلر حققت انتصارات كبيرة جدًا في أوروبا بأسرها بعد أن أستطاع أن يعزو بولندا، واحتل أجزاء كبيرة من أفريقيا، وشرق وجنوب آسيا، لم يصبح أمامه سوى لندن التي حشدت كل قواها لمواجهة ذلك المجنون الذي يريد أن يخضع العالم لهيمنتته، وقد استدعتني حكومة تشيرشل في لندن إلى هناك للتشاور ولا أعلم متى أعود مرة أخرى.

شعرت جانيت بروحها سُلِبَت منها، لم تدار دموعها وهي تسلم سلامًا حارًا عليه، أطالت فيها مسك يده كزوجة تودع زوجها الذي يسافر على غفلة، لم يخف على أحد حزنها على فراقه حتى من تلك القبله التي طبعها على وجنتيها وهو يغادر المكان غير عابئ بوجود إبراهيم الصباغ الذي تظاهر بعدم الانتباه بينما سمع سليم أبو زيد يقول «أستغفر الله العظيم».

على عكس حالها، شعر إبراهيم ببعض الراحة بعد أن علم بمغادرته فلسطين، يعلم أن ذلك سيحد من نفوذ جانيت كثيرًا التي لا تتوانى في مواقف عدة أن تهددهم بعلاقتها معه والتي كانت تدعي أنها علاقة أسرية قديمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استعدت مارلين جيدًا لتلك الرحلة التي تستغرق ربما ثلاثة أيام، أعدت حقيبة سفر كبيرة وضعت فيها الكثير من الملابس الخاصة بها والتي تناسب ركوب الخيل، وتسلق الجبال، وكذلك بعض الفساتين الكلاسيكية التي تناسب حفلات العشاء في أفخر المطاعم. بينما اكتفت كارولين بحقيبة صغيرة وضعت فيها احتياجاتها الأساسية فقط.

لم يكف منذ أمس إدوارد عن الحكى لهما عن مدى الاستمتاع الذي سيشاهدها في تلك الرحلة، أنهى كل استعدادات السفر، مرَّ صباحًا على عم يونس يطمئن على السيارة قبل تلك الرحلة الطويلة، بعدها ذهب لشراء بعض المعلبات لاستخدامها خلال السفر، وضع الحقائق في السيارة بينما انطلقت مارلين تجلس على الكرسي الأمامي بجوار إدوارد حينما جددتها جانيت بنظرة غضب وهي تقول لها:

- اجعلي أختك تجلس بجوار خطيبها.

وافقت مارلين على مضض، بينما ظهرت ابتسامة سعادة على وجه كارولين وهي تجلس بجوار إدوارد وعيون جانيت وإبراهيم تتابعهما وهما يأملان أن تكون تلك الرحلة بداية جديدة في علاقة كارولين وإدوارد.

انطلق إدوارد بالسيارة من القدس. سلك ذلك الطريق السريع وسط الجبال، كانت تستمتع كارولين بمنظر الجبال على الجانبين، تركت يدها ليد إدوارد بينما لا تكف في الخلف مارلين عن الثرثرة ونظرة عينها يملأها الحقد على أختها. وصلوا بعد عدة ساعات سفر إلى (جبل الشيخ).

منظر الثلوج وهي تغطي الجبل كانت تتلج الصدور. انطلقت مارلين بحبوية وسط مناظر الطبيعة الساحرة بعد أن بدلت ملابسها الكلاسيكية إلى ملابس تسلق جبال، علقت ذراعها في ذراع إدوارد متعلقة به في دلال، ابتسمت في البداية كارولين وهي تبرز تصرفات أختها بصيبة صغيرة سعيدة بتلك الرحلة وسط الطبيعة الخلابة.

باتوا ليلتهم في الجبل، استمتعوا بعشاء جبلي وحفلة غناء بدوية، حكى إدوارد عن بحيرة طبريا وجمالها، تعلقت مارلين مرة أخرى بذراعة وهي تتأشده أن يأخذهم إليها، تذكر أخيراً كارولين فقال لها:

- ما رأيك؟

- إن كنتم تريدون فليس لدي مانع.

تهللت أسارير مارلين وهي تقول دون أن تنتظر رأي إدوارد:

- إذا فلننطلق في الصباح في رحلة بحرية في بحيرة طبريا.

طوال تلك الرحلة لم تكف مارلين عن ملازمة إدوارد حتى إنها لم تترك مساحة لكارولين للانفراد مع خطيبها. دعاهم إدوارد إلى عشاء وحفلة رقص على ظهر المركب، ارتدت مارلين في العشاء فستان سهرة أسود، عاري الأكتاف، تظهر ساقها منه حتى منتصفهما، تعجبت كارولين من جراءة أختها في الملابس، حتى إنها لا تعلم متى اشترت تلك الفساتين، بينما إدوارد بمجرد أن شاهدها لم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب بها، أطلق صافرة إعجاب وهو ينحني لها ويقبل يدها ويقول لها:

- مولاتي الجميلة، هل تسمحين لي بهذه الرقصة.

أخذت مارلين إدوارد في عالم غير العالم، لم يستطع أن يتمالك نفسه أمام جمالها، كان كأنه يشاهدها لأول مرة في حياته، تمتلك ميولاً فطرية على الإغواء، قالت له بدلال بينما تراقصه:

- من أجمل؟ أنا أم بنات السينما التي تشاهدها في مصر؟

- لم أر أجمل منك، هم مجرد (مانيكانات) خالية من الروح، أما أنت فجمال الروح الصافي، لو أتحت لك الفرصة في مصر ستصبحين أجمل من (كاميليا) التي يهيم بها الملك فاروق حياً.

كانت كارولين تتابع رقصة أختها مع إدوارد الذي لم يعرض عليها حتى الرقص بمجرد أن شاهد مارلين بذلك الفستان العاري، بينما تشاهد تمايل أختها على كتف إدوارد كلما سمحت لها الفرصة، كانا يتهامسان بكلمات لم يتسنَّ لها سماعها. قالت في نفسها وقد بدأت تستاء من تصرفات أختها:

«تظنه دميتي التي كانت تتشاجر معي دائماً عندما تجدني ألعب بها، وبمجرد أن أتركها تزهد فيها، تحب دائماً ما في يد غيرها».

بعد انتهاء الموسيقى وتوقف الرقص عاد إدوارد ومارلين إلى المائدة. كان حال كارولين عكس ما كانت عليه مارلين، التي لا تريد العودة إلى البيت. اقترحت على إدوارد العودة مرة أخرى إلى جبل الشيخ، منظر الثلوج التي تغطي الجبل تسعدها، قطعتهم كارولين تلك المرة بحدة قائلة:

- أظن تأخرنا عن البيت بما يكفي، ويجب علينا العودة فوراً. غير أنني أشعر بالإرهاق وأحتاج إلى الراحة.

طريق العودة لم يكن كطريق الذهاب، ظلت مارلين متجهمة الوجه من إصرار أختها على العودة إلى البيت، جلست في المقعد الخلفي لا تتطرق ببنت شفة بينما يشاركها الصمت إدوارد وكارولين التي اشتعلت نار الغيرة في قلبها من تصرفات أختها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



6))

انكفأت وداد على ماكينة الخياطة طول الوقت، شعرت أخيرًا بحريتها عندما استطاعت أن تكسب قوت يومها من عرق جبينها، رغم ذلك ظهرت عليها علامات الكبر، اشتعل رأسها شيئًا بصورة مفاجئة، انحنى الظهر وضعف البصر حتى ما عادت تستطيع أن تلضم سم الخياط، ساعدتها على فترات عابدة وإن كانت صغيرة لم تستطع أن تتحمل مسؤولية تلك الكمية من المشغولات التي كان يأتي بها أبو محمود يوميًا لوداد.

كبرت عابدة وبلغت مبالغ النساء، تلك الطفلة هادئة الطبع نضجت وأصبحت تصرفاتها تثير غضب وداد التي لا تكف عن تعنيفها هي وياسين طوال الوقت على ما لم يقتروا من ذنب، ولكن الخوف دائمًا الذي يسكن قلب وداد يجعلها تخشى من أبسط الأمور، قيدت حركة عابدة إلى أقصى حد، لم تسمح لها بالخروج من البيت، حتى دراستها رفضت أن تستكملها، كانت دائمًا ترى أن مكانها في النهاية بيت زوجها فما فائدة التعليم، تطمع أن تجد لها عريسًا مناسبًا حتى في ذلك السن المبكر حتى ترتاح من مسؤوليتها.

كانت عابدة هادئة الطبع ومطبعة لأمرها أكثر من ياسين، الذي كان دائم الشجار مع أمه، وكانت لا يعجبها طبعه المندفع دائمًا، وجد في النهاية وسيلة لا بأس بها في مساعدة أمه، كان يقف ببعض المشغولات التي تصنعها على منضدة صغيرة تحت باب البيت، قبل أن ينتقل بها إلى سوق أسبوعي بالقدس عند المدخل الشمالي لها عند (باب العامود)، وأحيانًا في (خان الزيت) يعرض فيها مشغولاتها، كان يبيع البعض ولكن ليست بالصورة التي يصبو إليها فكان مصدر الدخل الرئيسي هو هؤلاء العملاء الذين يأتي بهم أبو محمود، رغم ذلك لم يكف عن لقاء إيلان.

كبرت إيلان وكبر في قلب ياسين حبها، ما عادت تجدي معها قطع الحلوى الصغيرة التي كان يدخرها لها حتى يراها.

في ذلك اليوم وجد نفسه يحتاج للحديث عنها مع إسماعيل، صارحه بما يجيش في صدره من مشاعر تجاهها لأول مرة منذ سنوات استمرت فيها صداقتهما، كان لا تعجبه آراء إسماعيل في النساء ولا نظرتة لهن، فلم يكن لدى إسماعيل أي غضاضة في الظهر بمن يحب، دخل في عدة علاقات مع نساء كلما سمحت له الظروف وغاب عن نظر أبيه، كان آخرها ما قصة على ياسين من تلك اللبنانية التي قصدت ورشتهم لإصلاح سيارتها، كان عم يونس غير موجود، سال لعاب إسماعيل عليها، لم تغب عينه عن صدر فستانها طوال فترة إصلاح السيارة، حتى انتهى منها وقد شعر أنها بدأت تبادله النظرات، عرض عليها الذهاب معها لتجربة السيارة، فكان ما كان بداخلها.

يعشق من النساء من هم أكبر منه، كثيرًا ما كان يداعب ياسين عن جانيت زوجة إبراهيم، قال له ذات مرة:

- لو كنت استطعت أن تأتي بها، لكنت معززاً مكرم في هذا البيت، البيت الذي يكون لك فيه عشيقة تكون سيده، حتى في وجود زوجها.

صمت لحظة قبل أن يكمل وقد ذهب به الخيال:

- والحق يقال بيت إبراهيم الصباغ كله يعشق كلاً من كارولين ومارلين وخصوصاً جانيت.

في هذا اليوم غضب منه ياسين لأول مرة، كان يرفض أن يتحدث بهذه الطريقة عن شخص يعرفه، كان يعتبر كارولين ومارلين بمثابة أختيه، لا يصح أن يستمع إلى من يتحدث عنهما بتلك الطريقة، ولكنه كذلك لم يجد بديلاً غير إسماعيل ليحكي له عن إيلان، اشتعل حبها في قلبه خصوصاً بعد أن افتقد لقاءها لعدة أيام لم يراها فيها.

حكى لإسماعيل لأول مرة عنها. يعرفها جيداً، فبمجرد أن باح ياسين بما يضره قلبه لها، حاول إسماعيل أن يسترجع ذاكرته، هل نطق بكلمة سوء عنها أو أظهر رغبتة فيها أمام ياسين من قبل؟ تلك الرغبات التي كان لا ينقطع عنها لسانه كلما جلس مع ياسين، فما إن يشاهد أي امرأة تسير أمامه حتى يفتتن بها ويتمناها في سره وعلنه.

لا يهم الآن فطالما ياسين حكى له عنها فبال تأكيد لم يخطئ بكلمة فيها، حمد الله أن ياسين قد صارحه بحقيقة شعوره تجاهها في تلك الفترة، فقد كان يفكر فيها جيداً، ويسعى للإيقاع بها، يعشق بنات اليهود اللاتي انتشرن بكثرة في الأحياء العربية، يقف على مدخل القرية يشاهدهن ذهاباً وإياباً وفي نفسه ما فيها.

مال على ياسين بعد ما فرغ من قصته مع إيلان ومدى حبه لها قال له:

- هل قبلتها؟

- لا.

ثم صمت ياسين برهة وكأنه يفكر قبل أن يتكلم بتأنيب ضمير:

- نعم، كانت مرة واحدة، والله لم أكررها.

تعالّت ضحكات إسماعيل وهو يقول له:

- مرة واحد فقط! ولم تكرررها؟ ساذج عبيط، معك تلك البنت بجمالها وترغب فيك ولا تفكر أن تظفر بها وتتمتع بجمالها!!

- إني أحبها يا إسماعيل، ولا أفكر في الأمر مطلقاً بذلك التفكير.

- وهل الحب يمنع الجنس؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتظرها فترات كثيرة، بيد أنها خلفت و عدها، مرت شهور لم يرها فيها، بدون موعد مسبق كانا يلتقيان، المكان معروف، تحت شجرة الزيتون العتيقة. أما الموعد فهو ما يحدده قلباهما، كل يوم تقريباً بات ينتظرها حتى شاهد طيفها يعود إليه من بعيد، سبقه الشوق في عينه وهو يقابلها، تعانق يداها يديها، نظرة عين تقضح كليهما، فما

عاد اللسان يحتاج إلى ترجمتها، الكلام الذي يخرج من القلب يصل للقلب مباشرة، تجنب العتاب، فما جدوى العتاب بعد لقاء الأحباب، فغلبهما الشوق، بررت غيابها، كانت تحتاج أن تقص عليه ما تعانیه وحفظته في نفسها، لا تجد من تبوح له بأسرارها.

- تغيرت قيادات الكيبوتس، نعامل هناك أسوأ معاملة، يتم التفرقة بين اليهود من السفارديم والأشكناز، الحياة في الكيبوتس كئيبة، أشبه بمعسكرات حربية، أظن أن أمرًا ما سيحدث، لم يتسن لي الخروج كثيرًا للقائك، ولكني أفقدك كثيرًا، يضايقني دائمًا أمريكي اسمه (بن تيسون)، تولى قيادة الكيبوتس في الفترة الأخيرة، عضو نشط في منظمة الهاجاناه، يضيق الخناق حولي ويراقبني باستمرار، انتهزت أول فرصة لغيابه للقائك.

يستمتع إليها ياسين بحزن ممزوج بالسعادة.. سعادة اللقاء بعد غياب، وحزن من يعلم أن القدر والحياة لن يسمحا لحيتهما أن يستمر. كل كلمة تقولها إيلان كفيلة أن تلقي الرعب في نفس ياسين، كلمة (الهاجاناه) التي تنطقها بعفوية كفيلة أن تدخل الرعب في قلب الجنين في بطن أمه لما يعرف عنها من عملياتها العسكرية ومخططاتها للاستيطان وجرائمها في فلسطين، ولكن إذا كان حالها هكذا ولم تكن سعيدة، فلم تصبر على ذلك، سألتها وقد بدا منزعًا على مصيرهما:

- ولم أتيتم إلى هنا يا إيلان، جئتم تسلبون الأرض من أصحابها؟

- لم نأت يا ياسين، لقد سقنا إلى هنا كما تساق البعير، لست وحدي الذي أكره الكيبوتس، كما أكره هذه الأرض، وأشعر بالغرابة فيها، كثير منا لا يستطيع أن ينطق بها خوفًا من بطش الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية، يوعدوننا بأرض الميعاد في (إرتس إسرائيل)، لن يسمحوا لنا بالمغادرة، نحن هنا سجناء لتحقيق مخطط ليس لنا يد فيه، مخطط نحن اليهود والعرب لعبة فيه على حد سواء.

صمتت برهة ثم أكملت:

- أشعر بالغرابة في هذه الأرض، كما كنت أشعر بالغرابة في اليمن. وكأن إحساس الغربة لا يريد أن يتركني. جئت إلى هذه الدنيا غريبة وسأرحل عنها غريبة. أتعلم يا ياسين؟ لم أشعر بالوطن إلا في حبك.

احتضنها ياسين، أطال البقاء معها، تغيرت نظرتة إليها بعد كلام إسماعيل لا ينكر، لأول مرة تخلو قبيلته من البراءة، كانت شرهة، استغل خلو الطرقات في ساعة العساري وشجرة الزيتون تظلل عليهم حتى فاق على تلك اليد الغليظة تنزعه منها، تلقي به بعيدًا عن الأرض، لم يتسن له أن يرى ملامح صاحبها بينما عيناه تشاهدان مؤخرة البندقية التي تدق رأسه وما تصل إليه من جسده، كان صوت صراخ إيلان يدوي في أذنيه وهي تتوسل إلى بن تيسون:

- أرجوك لا تؤذه، ليس له ذنب في شيء.

كانت نظرة الحقد في عين بن تيسون نحو ياسين قاسية، أدخلت الرعب إلى قلبه، توقع في نفسه بينما يقف بجوار بن تيسون، شخصان آخران، مسلحان بالبنادق وهو

يخاطب إيلان بكل غضب:

- كنت أعلم أن لك عشيقًا تقابلينه سرًا، لم ترفضني امرأة غيرك، فعلمت أنك تخفي سرًا.

- لا يوجد سر، سأفعل كل ما تريد ولكن أرجوك لا تؤذه.

كان ياسين يجلس على الأرض لا يقوى على الحركة بينما يتابع توسلات إيلان إلى بن تيسون أن يرحمه، لم يستطع أن يتحرك من مكانه، البنادق مصوّبة إليه، بات يشعر أن نهايته تقترب، شاهد بن تيسون وهو يسير مع إيلان يجذبها من شعرها وهي في استسلام كامل منها.

اقترب منه أحدهما، صوّب فوهة بندقيته نحوه، صوت شد أجزاء البندقية الآلية كاد أن يقف قلبه، أغمض عينيه، ينتظر سماع صوت تلك الرصاصة، ولكن قبل أن تتطلق سقط غصن ثقيل من الشجرة على يد حامل البندقية، اهتزت يده بينما فوجئ بعدد من الحجارة تلقى عليهم من الجانب الآخر خلف الشجرة، وصوت يهذي، التفت الجميع نحوه، كان ذلك الدرويش المجذوب، يقف يرتعد خلف الشجرة، يحمل في يده عدة حجارة يقذفهم بها، بينما يهذي بكلام غير مفهوم. تقدم نحوه الجندي يهم أن يفتك به، وقبل أن يفعلها التفت إليهم بن تيسون يخاطبهم بلهجة ناهية:

- كفى هذا، لا نريد مشاكل مع العرب الآن، موعدهم قريب.

ارتدى ياسين على الأرض يلتقط الأنفاس، لا يتخيل أن يكون الأمر مر هكذا، غصن شجرة الزيتون أنقذه من القتل، بينما ذلك الدرويش المجذوب أنقذه من برائن هؤلاء الذئاب.

اقترب منه الدرويش، نظرة في عينيه وهو يمد له يده، كان ياسين يشعر بالامتنان له، بادلته نظرة تحمل ابتسامة ألم، يشعر أن عظامه كلها تكسرت، حاول أن يرفع جسده ولكن الألم أكبر من أن يحتمل، ساعده الدرويش حتى نصب قامته وقال له:

- شكرًا يا عمي، لقد أنقذتني.

بادلته الدرويش ابتسامة ثقة وهو يقول له.

- ألم أقل لك من قبل إنني هنا لحر استكم يا ولدي.

كانت الحالة التي عليها لا تسمح له بفك ألغاز درویش مجذوب يهذي بما لا يفهمه أحد، سار بجواره هو يطلب منه ألا يذهب إلى البيت مباشرة بهذا الشكل، فتوجهها إلى ورشة عم يونس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



7))

شجرة الزيتون

طابع البشر النكران، يأتي النكران من الجهل، التفت ياسين إلى الدرويش يشكره، بينما لم ترتفع عينه إلى ذلك الغصن الذي اقتطعته من جسدي كي أنقذه، ولا يعلم مَنْ سخره القدر لهذا، لقد أنقذته. يظن الإنسان أي جماد لا أشعر ولا أحس، لا يعلم أنني عبدٌ مأمورٌ مثله، أسبِّح ربي وأحمده على نعمة، مخلوق يأتيه أوامر الخالق، فجاءت لي الرياح محملةً بأمر ربي كي أنقذ ياسين، فمالَ غصني فأنقذه. ولكن البشر لا يعلمون، رغم قول ربي لهم (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ). فأنا جندٌ من جنود ربي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخامس

(1)

لم تكن تلك الرحلة إلا القشة التي قسمت ظهر البعير، لم تكن كارولين بالفتاة الساذجة التي يسيل لعابها على كلمات الحب الصببانية التي كان يطر بها بها إدوارد عند لقائه بها، أملاً في نيل رضاء أمها، وهي الوحيدة التي تقف أمام والده وتدافع عن تصرفاته، أو حتى من باب التسلية، وإن كانت لا تتكر أنها تسعد في كل حال عند سماعها كفتاة في ربيع أيامها، كانت تطمح أن تعيش أجمل فترات حياتها بمرافقة خطيبها.

ولكن كارولين كانت على دراية كاملة من أن إدوارد لا يبادلها الشعور، كذبت نفسها كثيراً حتى اشتعلت نار الغيرة في قلبها في تلك الرحلة. لم يظهر إدوارد أي اهتمام بمشاعرها، بينما تغازله أختها على الملأ أمام الجميع وتندلل عليه، لم يبادلها كلمة ودًا واحدة طول الرحلة، شعرت أنها في حياته مجرد فرصة لإرضاء أمها وأبيه، أو ربما زيجة مغصوب عليها.

جافى النوم جفونها لأيام عديدة، وما إن يزورها حتى تشعر بالأرق بعد قليل، فكرت في الأمر ملياً، كانت تخشى عواقبه، أما الآن ربما يكون هذا القرار هو الأفضل لها، وفيه ما يرفع الحرج عن الجميع، ولكن إدوارد ومارلين ربما يتقصصان شخصية المظلومين، من جنت عليهما كارولين، فما عليها إلا الصبر، إن كانت ما تظنه حقيقة، فدائماً الثمرة الفاسدة تسقط بمفردها.

أفاقت في تلك الليلة من غفوتها، التقت إلى سرير أختها فوجدته فارغاً، لا تعلم لماذا تسرب الشك إلى قلبها، ولماذا في تلك اللحظة بالذات قامت تبحث عنها؟! كان شيء ما يحركها، وكأنها تركت نفسها للشكوك تتلاعب بها.

قادتها قدماها إلى غرفة إدوارد، سارت بخطوات بطيئة وهي تتخيل المشهد الذي سينكشف الآن أمامها، كان الصمت مطبقاً على المكان، إلا أن الفضول كان يقودها أن تضع يدها على مقبض الباب وتفتحه.

أغمضت عينيها وهي تخشى تلك الصورة المرسومة في خيالها، إلا أن الغرفة كانت فارغة، سرير إدوارد مهندم كما هو، بيد أنه لم يصل بعد من الخارج. لم يهدئ الوضع من روعها، زاده غموضاً، تحركت تبحث عنهم في كل مكان في المنزل حتى قادتها قدماها هذه المرة إلى المضيئة، كانت فارغة هي الأخرى.

بدأت تشعر باختناق الهواء داخل رنتيها، توجّهت نحو الحديقة، تحتاج أن تستنشق بعض الهواء النقي، فربما لم يكن ما في رأسها إلا الأوهام، ربما هي بنت سيئة الظن بأختها وخطيبها، زيّنت لها نفسها الأمانة بالسوء ذلك الوهم، وقبل أن تغادر ألفت صوت هسيس في غرفة الحديقة - تلك الغرفة المهجورة منذ مغادرة وداد وأسرتها - تقدمت ببطء، نظرت بحرص من خلف زجاج النافذة حتى لا يراها أحد، وإن كانت حالاتهما لا تسمح في رؤيتهما.

كانت مارلين وإدوارد غائبين في قبلة مشتعلة تعكس ما يجيش بنفسيهما من أحاسيس. نزلت دمعة تجرح خدها، صمتت؛ رغم ما كان يمكنها أن تفضحهما، لملمت خبيبتها فيهما، وعادت إلى غرفتها، لا تدري كيف تتصرف وإن كانت على يقين أن أمر خطبتها من إدوارد قد انتهى نهائياً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(2)

دخول ياسين على أمه ملطخاً بالدماء، أعاد إليها تلك الليلة التي دخل فيها زوجها محمولاً على أكتاف أربعة من الرجال فاقد الوعي، كان ياسين متكناً على ذراع إسماعيل بينما يلتف ذارعه الأخرى حول خصره عندما صرخت وداد في فزع عند رؤية ابنها هكذا، حاول ياسين تهدئتها، بنبرة صوت يملأها الألم قال لها:

- لا تقلقي يا أمي، أنا بخير.

- بخير والدماء تنزف من كل مكان في جسدك!؟

ثم وجهت حديثها إلى إسماعيل قائلة:

- ماذا حدث يا إسماعيل؟

لم يترك ياسين فرصة لإسماعيل للكلام فكان رده على أمه:

- قلت لك لا تقلقي يا أمي، تشاجرت مع بعض اليهود وانتهى الأمر.

ضربت وداد صدرها بكفها بقوة وهي تقول بغضب:

- اليهود؟! ما لنا ومال اليهود، لماذا احتككت بهم، إذا تعرضوا لك في السوق لماذا لم تتركهم وترحل، وهل نحن نقدر على اليهود؟

- أنا أقدر على الشيطان نفسه، ولن أترك حقي، لقد تجمع على هؤلاء الكلاب، وسوف أخذ حقي منهم.

تعالى صوت وداد بالكلام، بدت نبرتها أكثر حدة وهي تقول:

- أقسم بالله لو تعرضت لهم مرة أخرى لن تدخل هذا البيت، وسأتبرأ منك ليوم القيامة.

حاول إسماعيل تهدئة الموقف، تدخل بينما يسند ياسين على الأريكة ليجلس عليها:

- اطمئني يا عمتي، لم يحدث شيء، تلك المناوشات الكثيرة بين العرب واليهود، الذين ملأوا أرجاء القدس، وينتهي الأمر، لن نشاهدهم مرة أخرى.

لم تعبأ وداد بكلام إسماعيل، بينما أكملت كلامها إلى ياسين الذي استقر على الأريكة بعد أن صدرت منه بعض تأوهات الألم.

- ولماذا احتكّ بك اليهود يا ياسين، ماذا فعلت لهم كي يتعرضوا لك بتلك القسوة؟

ظهرت علامات الجزع على وجه ياسين من كثرة أسئلة أمه، قال لها بكل غضب:

- كفاك أسئلة يا أمي، قلت لك متعب وانتهى الأمر.

لم ينقذه من نيران أسئلة أمه سوى دخول عايدة أخته الصغيرة وقد هالها صوت الضجة بالداخل، تلك الطفلة التي شبت واکتمل نضجها رغم صغر سنها، كان أول مرة يشاهدها فيها إسماعيل، لم يكن يتخيل أن تلك الطفلة التي كان يحملها على ذراعه ويهديها الحلوى كبرت الآن، وأصبحت شابة يافعة، واکتملت أنوثتها.

نظر إليها إسماعيل ولم يصدق عينيه، مدّ يده يسلم عليها وقد ذهب في حال غير حال:

- أهلاً يا عابدة، كيف حالك يا صغيرتي.

- أهلاً يا إسماعيل، لماذا لا تأتي لتزورنا مثل ذي قبل، لقد افتقدناك كثيراً.

كلمات قالتها الطفلة بعفوية ولكنها لامست قلب إسماعيل، الذي لم يشعر بوجود وداد وياسين وهو يقول لها:

- لقد افتقدتك كثيراً يا عابدة.

صعقت وداد من الكلمة، لفتت أنتباهاها، جددت عابدة بنظرة غضب وهي تقول لها:

- اخرجي الآن يا عابدة ولا تدخلني بدون إذن عندما يكون هنا ضيف.

كانت الكلمة رسالة هامة إلى إسماعيل، سمعها وحزت في نفسه، قال لوداد وقد هم مغادراً المنزل:

- أنا لست غريباً يا عمتي، ياسين أخي وعابدة أختي، وعلى العموم أعتذر إنني أطلت البقاء.

لم تجبه وداد، تركته يغادر المنزل بينما تلفتت إلى ياسين تسأله بصورة أكثر حدة:

- مع من كنت حينما هجم عليك اليهود يا ياسين؟

- قلت لك كفاك أسئلة يا أمي، لقد تعبت من كثرة التحقيقات.

كان صوت الطرق على باب الغرفة هو المنقذ الأخير له من نيران أسئلة أمه التي كان يهرب منها، إذ فتحت عابدة أخته الباب وطلت منه كارولين، فانشغلت وداد عنه باستقبال الضيفة التي رحبت بها بصورة لم تكن تتخيلها.

- أهلاً بيك يا بُنتي، شرفتِ دارنا بزيارتك.

- أهلاً بك يا عمتي، جئت أطمئن على ياسين بعد ما حكى عمي إبراهيم ما حدث له صباح اليوم، جئت حتى قبل أبو محمود الذي أوصاه عمي باصطحاب ياسين إلى المشفى.

التفتت وداد إلى ياسين تجرده بتلك النظرة التي لم تغب عن عينيها منذ أن رآته وهي تقول له:

- أرايت، سيرتنا أصبحت على كل لسان في القرية.

ثم التفتت تكمل حديثها مع كارولين:

- اليهود - حرقهم الله - لا يريدون أن يتركونا في حالنا، ولكنها فرصة أن تزورينا منذ أن غادرنا بيتكم. لم أفتقد أحداً بقدر افتقادي ابتسامتك البريئة يا كارولين.

- تسلمي يا عمتي، لقد افتقدناك جميعاً، حتى عمي إبراهيم لا يفتأ إلا أن يذكر بك بكل خير، لقد رحلت وأخذت معك البركة من البيت.

- طاب حديثك يا ابنتي، بنت أصول لأبيك، الذي لم أراه، ولكني ما سمعت عنه إلا كل خير، تفضلي.

قالتها وهي تهم تمسح بيدها مكاناً لها على السرير المقابل للأريكة التي كان متكئاً عليها ياسين، سعد بلقاها جداً وامتننت له، كانت الفرع الأصيل في عائلة الصباغ، الفرع الذي لم تدنسه شهوة المال ولا حب الشهرة، طاب حديثها حتى تأخر الوقت واستأذنت منهم على وعد العودة لهم مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثلاثة أيام قضاها ياسين في البيت، تتأوب على زيارته بعض رجال القرية، أبو محمود أكثرهم سؤالاً عليه، أصرّ على اصطحابه إلى مستشفى في القدس للاطمئنان عليه، تكفل بكل المصاريف، لا تعرف وداد لماذا يفعل معها ذلك الرجل كل ذلك ولا كيف ترد له الجميل؟

أخيراً خرج ياسين من البيت، اشتاق إلى لقاء إسماعيل، ذهب إليه في بيته، جمعتهم تعريشة العنب بينما يستمعان إلى الراديو الذي طغت عليه أخبار الحرب العالمية الثانية، كان عم يونس أكثر اهتماماً بالأخبار السياسية، يتابعها في صمت، لا يعطي رأياً في الحرب، بينما إسماعيل كل يوم يزداد يقيناً من انتصارات هتلر، حققت دول المحور انتصارات كبيرة في آسيا وأفريقيا، حكى لياسين ما يفعله باليهود في أوروبا.

- يُقال إنه يحرقهم أحياء، سيخلصنا هتلر من اليهود كلهم في ظرف أسابيع قليلة.
استهزاء عم يونس بكلام ابنه قبل أن يعنفه على حديثه عنهم، منعه عن التحدث في السياسية، خصوصاً في تلك الأيام.

بينما عم يونس أخذ في شجاره المستمر مع إسماعيل حتى أغفلهم ياسين وغادر المكان. أخذته قدماه إلى شجرة الزيتون، كان يتمنى لقاءها، يعلم أنه ربما لن يراها بعد ذلك اليوم مرة أخرى، ذهب إليها والحزن يملأ قلبه، لا يعلم كيف يلتقي بعينيها بعد ما حدث، أصعب النظرات هي نظرة امرأة لرجل لم يستطع حمايتها، ولا حماية نفسه.

لم يمض الكثير من الوقت حتى شاهد طيفها يمر عليه من بعيد، لم يصدق عينيه، تقدمت منه، كان وجهها أكثر سعادة من حالته، ارتمت في حضنه وهي تقول له:

- لقد افتقدتُك يا ياسين، كنت آتي كل يوم إلى هنا لعلّي أحظى برؤياك، مضى على كل يوم وساعة وثانية كدهر في بُعدك، أشعر بتأنيب ضمير لما حدث، أشعر أن ما حدث لك كان بسببي.

- ليس لك ذنب في شيء، لولا خوفي عليك لما تركتهم.

ظهرت علامات القلق على وجهها وهي تخاطبه:

- إياك يا ياسين، إياك أن تتعرض لهم، أنت لا تعرفهم، إنهم مجرمون، لن يرحموا أحداً.

- تخافين على أم تخافين على نفسك؟

- أنا منهم يا ياسين، ثم إن المشكلة كلها كانت مع بن تيسون، والحمد لله غادر منذ يومين الكيبوتس عائداً إلى أمريكا، يقال إنه تم استدعاؤه من قبل الجيش الأمريكي للمشاركة في الحرب. أتمنى ألا يعود ذلك الرجل مرة أخرى.

- أتمنى أن يقابله هتلر ويعلم أنه يهودي فيحرقه حيّاً مثل باقي اليهود.

أشاحت إيلان وجهها الجهة المقابلة، علم أنه تجاوز في حقّ عشيرتها، حتى ولو كان يكرههم لا يجب أن يتحدث عنهم بهذا السوء أمامها، همّ أن يعتذر لها، لم تسمع اعتذاره، خاطبته قائلة:

- أمي في بولندا، جيتو اسمه (وارسو) أكبر مكان يرتكب فيه السفاح هتلر جرائمه ضدنا، أخاف عليها، لا تعلم ماذا يفعل ذلك السفاح بالمدنيين الأبرياء من اليهود.

لم يستطع ياسين أن يدعي لهم بالسلامة، ما زال في قلبه شيء منهم، أراد تغيير مسار الحديث، يتجنب مناطق الخلافات، اقترب منها وأمسك يدها، امتد دفاء حرارتها تدفئ قلبه بينما عيناه تتأملانها.

- ستمر تلك الفترة بالتأكيد، إذا غادر بن تيسون هذا فيمكننا الزواج، سأفاتيح أمي في الأمر في أقرب فرصة، إنها تحبك منذ أن رأتك أول مرة في القطار، ولن تمنع.

- أمك تحب تلك الطفلة الصغيرة التي ترى السعادة في وجهها وهي تتصدق عليها بقطعة حلوى، ولكنها بالتأكيد لن تحب الفتاة اليهودية زوجة ابنها.

- أنا أعرف أمي أكثر منك، رغم حدة طبعها، إلا أنها طيبة القلب، القدر وحده الذي جعلها تلعب دور الأب والأم، حملها في شبابها ما يفوق طاقة البشر، خرجت بطفلين صغيرين في جنح الليل تنسكع لقمتهما من الأعراب، بعد أن سلب أخوها ميراثها، كل ذلك جعلها تظهر وكأنها قاسية القلب، ولكني دائماً أشعر بطيبيتها.

- ليس هذا وقت الحديث يا ياسين، أردت فقط أن أطمئن عليك، أردت أن تعلم أنني لم أحب في حياتي غيرك، ما زلت تلك الطفلة الصغيرة التي تفرح بقطعة الحلوى التي تختزنها لي.

اعتادت أن تنتهي لقاءتهما بتلك القبلة، التي تحولت بصورة كبيرة إلى نيران تتأجج في جسديهما حتى باتت بعض لقاءاتهما تقتصر عليها، وأصبح الشوق في عينيه لا يوارى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(3)

لم يكن يتخيل إسماعيل أن يرق قلبه إلى أي فتاة، كان يتفاخر بما حققه من مغامرات نسائية بعيداً عن فكرة الحب، سخرَ منه وسخرَ من جميع قصص العشاق، حتى وقَعَ قلبه صريع غرام عايدة منذ أن رآها في بيت ياسين عند أصحابه مصاباً.

لم يكن يعلم أن تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تنام فوق كتفه، صارت شابة كبيرة نضجت معالم الأنوثة فيها وتفجرت، أحب نظرة البراءة فيها، بعيداً عن تلك الغرائز التي تجذبه للنساء، فكّر أول ما فكر فيها عندما راوده سؤال، لماذا لم أحب حتى الآن؟ كانت الإجابة جاهزة على لسانه، لم أجد من تجذبني إليها ببراءتها، حتى وجد تلك البراءة في عين عايدة.

تتبعها كثيراً، حتى تبدو لقاءاتهما في البداية صدفة، يتبادل السلام معها ويسأل عن حال أخيها وأمها بينما هي تجيب عليه باقتضاب قبل أن تستكمل جولتها في السوق لشراء احتياجات البيت، حتى باتت تلك الصدفة مواعيد ثابتة، تنتظرها عايدة كما كان ينتظرها إسماعيل، عندما لمعت شرارة الحب في عينه وهو يمسك يدها يسلم عليها في الوداع قائلاً:

- متى أشاهدك مرة أخرى؟

- بالتأكيد سأكون في سوق الجمعة الأسبوعي في القدس، أمي ترسلني كل أسبوع إلى هناك لشراء بعض الاحتياجات.

لم ينم حتى ذلك اليوم، بات ينتظره بشوق، كان عم يونس يتابع تغير حال ابنه، حتى ياسين الذي ما كان يتوقع أن يتعاف إسماعيل عن النظر إلى امرأة تسير أمامه، ولكن إسماعيل كان يحاول أن يغير نظرة ياسين إليه، يمهد لخطبة عايدة، يريد أن يزيل من ذهن ياسين شخصية إسماعيل المُحِبَّة للنساء، لا يصح أن يكون هكذا وهو متقدم لخطبة أخته.

مضت الأيام وأخذ الشوق إلى هناك، كان منذ الفجر يجول في سوق خان الزيت، يتأمل الفلاحات اللاتي افترشن في السوق ببعض الفواكه الطازجة، محلات بيع المخللات والبقالات، معاصر الزيتون التي تقف أمامها عربات تجرها الحمير محمّلة بمحصول الزيتون تمهيداً لعصره، بات شارداً الذهن، يبحث عن ضالته حتى وجدها قادمة نحوه بمشيتها البطيئة، تقدّم منها وقد ارتسمت على شفثيه الابتسامة، تبادل معها أول كلمة (بحبك) كان يشعر بالشوق يعتصر قلبهما، تعانقت أيديهما بطوال السوق الذي يمتد من باب العمود حتى كنسية القيامة، زحمة السوق يوم الجمعة وكذلك بعده عن دير ياسين سمح له بذلك، تبادل الهمسات والنظرات، كانت تنتشي عايدة من السعادة بمرافقته، لا تتخيل أن تعيش مثل ذلك الحلم.

اقتربت الشمس من منتصفها، شعرت عايدة بأنها ستتأخر على البيت، استأذنت إسماعيل أن تذهب لشراء حاجاتها من بعض الباعة والتي بررت لأمها ذهابها للسوق فيها. تركها إسماعيل على وعد اللقاء.

كانت تسير عايدة في هذا اليوم منتشية بروعة اللقاء كالفراشة، تشاكس ذلك البائع، وتفاصيل تلك البائعة في بضاعتها، تقف تنتقي بعناية الخضراوات، لا تشتري إلا الطازج منها، تعرف جيداً كيف تقع يدها عليه، يعرفها كثيرٌ من الباعة الذين اعتادوا على فصالتها ويعاملونها كابنة لهم.

فبينما تقف عايدة أمام عربة بائع طماطم تتشاكس معه كعادتها، إذ اقترب منها امرأة بدينة بعض الشيء تلقي السلام عليها، بعد أن راقبتها في السوق جيداً، كانت تعرفها ولكن هذه المرة شعرت أنها تريد أن تتحدث معها.

- أنتِ عايدة بنت وداد؟

- نعم يا عمتي.

اقتربت منها إحسان تضمُّها إلى صدرها وهي تحتضنها، تسأل عن حال أمها وكأنها تعرفها من زمن، ذكرتها بنفسها رغم أنها على يقين أنها لا تعرفها من قبل:

- أنا إحسان زوجة سليم أبو زيد، عين أعيان دير ياسين.

- أهلاً يا عمتي.

التفتت إحسان تمدُّ يدها إلى الطماطم التي اشترتها عايدة وهي تقول لها:

- أحسنت اختيار الطماطم، كثيرٌ من بنات هذه الأيام لا يحسنّ انتقاء الخضراوات، لذلك أذهب بنفسي إلى الأسواق أختار حاجتي.

ابتسمت لها عايدة وقد طابت لها الإشادة بها وهي تقول:

- شكرًا يا عمتي، إن احتجت شيئاً من السوق أستطيع أن أقضيها لك.

أجابتها إحسان وهي تغادر السوق باسمه:

- سيحدث يا حبيبتي لا تتعجلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(4)

رغم ما تحملته كارولين في قلبها وصمت عنه لسانها، إلا أن ملامح هذا الوجه البريء لم يكن ليعرف الزيف، ففضح ما كتمه اللسان. بدت معاملتها لهما أكثر حدة، لا تطبيق حتى كلمة (صباح الخير) من إدوارد، نظراتها له كانت تصيبه بالرعب خصوصًا بعد ما قصت عليه مارلين نفس الأمر وأن أختها لم تعد تبيت في غرفتيهما معًا.

أصبح إدوارد على يقين من أن كارولين تعلم بشيء، أو على الأقل يساورها شك، فلم يكن الأمر غائبًا عن كل من في البيت، والتي لم تسع محاولاتهم إصلاح تلك الفجوة التي حدثت بينهم، رغم محاولات إبراهيم الصباغ الحثيثة في هذا الشأن بعد أن لاحظ نظرة الحزن التي لا تفارق ابنة أخيه المحببة إلى قلبه، ولا من جانب التي كان لا يعينها في الأمر إلا أن لا يضيع من يديها إدوارد وتضيع الثروة، حاولت معها بالهدوء كثيرًا حتى عنفتها ذات مرة قائلة:

- لا أعرف ماذا تريد، الولد يحاول كسب ودك بكل الطرق وأنت تصدينه، حتى يمل ويهرب منك، ويضيع منا كل شيء.

لم تكن كارولين غافلة عن رغبات أمها التي باتت تثير استياءها، والتي لا تتوانى أن تستخدم كل من حولها حتى تحقق أحلامها وسطوتها، كما أصبح كل من في البيت يثير اشمئزازها، فقالت لها بلهجة تهكم واضحة وهي تغادر المكان غير عابئة بالنيران التي اشتعلت من قولها:

- لا تقلقي يا مدام جانيت، إن ضاع من يدي، فلن يضيع من يد مارلين.

لم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من الفراسة لتعلم جانيت ما يدور في البيت، أفصحت كارولين في لحظة غضب منها عما يجيش في قلبها وإن كان بصورة غير مباشرة، ولكنها لا تخفى عن إدراك حتى الصبي الصغير.

أثرت جانيت الصمت، تشعر بالضياح الآن في المنزل، إبراهيم أصبح أكثر حدة، خصوصًا بعد مغادرة ديفيد ألكسندر القدس، وكأنه كان ينتقم منها بمجرد أن شعر أنها بلا ظهر تستند عليه، فلم تنشأ أن تفتح على نفسها جبهات جديدة الآن وتركت الأمر للمستقبل ترى ماذا يفعل بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصمت أصبح يطبق على كل من في البيت في حالة ترقب للمستقبل، الجميع يخشاه ولا يقدر أن يفتح ذلك الجرح العميق، إبراهيم الصباغ يلاحظ تغيير كل من في البيت ولكنه لم يفهم إلا شيئًا واحدًا، بالتأكيد إدوارد فعل مصيبة من مصائبه التي لا تنتهي، وجانيت كالعادة تداري عليه، رسوبه المستمر في الجامعة جعله على شفة الفصل منها، أقسم له إبراهيم هذه المرة إنه إذا تم فصله من الجامعة فلن يذهب إلى القاهرة مرة أخرى أبدًا، لعن السينما التي أتلفت رأسه.

بينما إدوارد لا يعلم لماذا يصر والده عليه استكمال دراسته التي لا يحبها ولا يظهر أي تفوق فيها، ولم يقبل أن يلتحق بها إلا رغبة منه للسفر إلى القاهرة لتحقيق حلمه الخاص البعيد تمامًا عن الدراسة الجامعية، شغفه بالسينما لا ينتهي، يعلم أنه سيكون يومًا ممثلًا مشهورًا، سيحقق طفرة في التمثيل ولكن فقط ينتظر الفرصة، تلك الفرصة التي من أجلها استأجر غرفة صغيرة أعلى بناية في شارع (عماد الدين) المشهور بتواجد الفنانين فيه والقريب من شارع (محمد علي) المعروف عنه أنه (شارع الألاتية) بينما تجنب السكن في أحد البيوت القريبة من الجامعة كما كان يسكن الطلاب المغتربون.

لازم مقاهي الفنانين ومكاتب (الرجيسيرات)، تعرّف على (زكريا أحمد) و(زكي طليمات) وبدأ يدخل معهم في صداقاتٍ من أجل الحصول على فرصة واحدة فقط في التمثيل، هي فرصة واحدة إن أتت له سينطلق بسرعة الصاروخ وسيجتاوز شهرة (حسين صدقي) الذي لا يعجبه تمثيله، يراه دائمًا ثقيل الظل.

يفعل كل شيء من أجل تلك الفرصة، يعتني بملابسه ومظهره جيدًا، يواظب على تدريبات اللياقة من أجل أن يُظهر قوته، شعره يلعب دائمًا أكثر من لمعة شعر أنور وجدي وهو خارج لتوه من خناقة في أحد مشاهد أفلامه، لا يذهب إلى أستوديو مصر ببذلة واحدة مرتين متتاليتين، يجلس بجوار ريجيسير يظل طول مدة تصوير الفيلم يعزم عليه بالسجائر الأمريكية عليه يتذكره فيعطيه ولو مشهدًا صامتًا في الفيلم.

كان يفعل كل ذلك من أجل تلك الفرصة والتي بات يخطط لها جيدًا، سيدخل المرة القادمة إلى أستوديو مصر بينما تلك العيون التي كانت تتجاهله، تلتفت إليه بإعجاب، تتمنى أن تحظى بابتسامة من رفيفته.

طرأت على رأسه تلك الفكرة في رحلة الجبل، هذا كل ما يحتاج إليه، وجه جديدًا يشاركه بطولات أفلامه، يقدمون معًا ثنائياً مذهلاً، يفوق شهرة (أنور وجدي) و(ليلى مراد).

وجه مارلين السينمائي وحضورها القوي سوف يساعده في هذا، عرض عليها الأمر ذات مرة، لم يكن في خاطرها أن تعمل في السينما، ولكن ظننت أن إدوارد اكتشف فيها ما غفل عنه الجميع، أحببت الفكرة، السفر معه إلى مدينة الأضواء؛ القاهرة. باتت ليالي تحلم بما يقصه عليها عن جمالها وسحرها، أضواء شوارعها التي لا تنطفئ طول الليل كأنها جوهرة في كبد السماء، منظرها وهي تسير بفستانها الأسود الذي يظهر مفاتها أمام عدسات الكاميرات والصحفيين بـ (مهرجان البندقية السينمائي)، مشهد وصفه لها فطاب لخاطرهما. عزمًا على تنفيذ ما يريدون، ليس لدى إدوارد أي فرصة أخرى، كل من في البيت بات يبغضه، حتى جانبيت تغيرت معاملتها له، يجب أن يغادر البيت في أسرع وقتٍ وألا يعود إليه إلا وهو فنان مشهور، ولكن عليه في البداية اقتناص فرصته الأخيرة منه.

اقتربت مارلين من أختها أخيراً، بدا عليها الهدوء وليس كما ظنت كارولين أنها ستأتي لها معذرة عما حدث مع خطيبها، تصارحها بالحقيقة تطلب منها الصفح والغفران، ولكن كانت نظرتها المتعالية لا تفارق عينيها وهي تقول لها:

- أعلم أنك تغارين مني، ومن علاقتي بإدوارد.

قاطعتها كارولين بتهكم:

- مارلين، أنت لا تخجلين أن تقولي هذا؟ إدوارد خطيبي، أو كان خطيبي.

- تلك الخطبة التي لم تناسبكما منذ اللحظة الأولى، إدوارد يحتاج وجهًا سينمائيًا مثله يشاركه طموحه وأحلامه، الآن نحن نصحح أخطاء آبائنا، ليس علينا أن نكون دُمى في أيديهم يحركونها كيفما شاءوا.

- حسناً، أظن حقاً أن الطيور على أشكالها تقع، تذكرني كلامي هذا يا مارلين، أنك ستندمين على ثقك بإدوارد.

- أنا لا أثق في إدوارد يا عزيزتي، أنا أثق في شخص واحد فقط هو أنا؛ مارلين.

قالتها بكل غرور وهي تغادر المكان بينما شعرت كارولين بالراحة، كل الظروف تقودها إلى قرارها الذي ليس مفر منه، تحلم بالسلام الأبدي وليس هناك أفضل من ذلك القرار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(5)

بعد أن حمل أبو محمود صحن الإفطار من على المائدة والذي لم يحضره سوى كارولين بصحبة عمها إبراهيم وجانيت، طلبت منه جانيت كعادتها إحضار الشاي والكيك بالمضيئة، عدم وجود إدوارد ومارلين معهم أتاح لها الفرصة أن تختلي بابنتها الكبرى، تريد أن تتحدث معها قليلاً، لا تعلم من أين ستبدأ بعد ما سمعته منها من قبل، ولكنها بالطبع استغلت غياب إدوارد عن الإفطار للسؤال عنه:

- كارولين، ألم تشاهدي إدوارد اليوم؟

- أظنه غادر البيت مع مارلين.

- إلى أين؟ وفي مثل هذه الساعة المبكرة؟

- عفواً لقد أخطأت التعبير، الصحيح أنه هربَ ومعه مارلين.

قالتها وهي ترتشف الشاي بشفتيها وكأنه أمرٌ عابرٌ لا يستحق التوقف عنده. ظهرت علامات الفزع على الجميع، مدام جانيت التي كانت رشفة الشاي على فمها ارتعشت يداها، فوق على وجهها وملابسها، لم تصدق أذنيها بينما إبراهيم الصباغ بات أهدأ منها، أعاد السؤال مرة أخرى على كارولين بنبرة أكثر حكمة:

- من أين علمت بهذا؟

- صارحتني به ضمناً منذ يومين، واليوم مررت عليها في غرفتها فوجدتها فارغة حتى من خزانة ملابسها، وكذلك كان الحال في غرفة إدوارد، فعلمت أنهم عزموا على تنفيذ ما خططوا له.

أخذ إبراهيم نفساً طويلاً قبل أن يكمل حديثه مع كارولين، يحاول أن يستشف منها موقفها والتي كان أكثر ما يعنيه في الموضوع بأكمله:

- ولمَ لم تخبرينا يا ابنتي إن كنتِ تعلمين من قبل بما ينويان؟

- ولمَ أخبركم؟! الأمر كله لم يعد يعنيني في شيء.

قالتها كارولين، تجدها جانيت بنظرة الغضب بينما إبراهيم كان ما زال يحافظ على ابتسامة الهدوء على شفثيه والتي لاحظتها جانيت، لم يكن عقلها يستوعب أن يقابل ذلك الحدث المشين، الذي تطير فيه الرقاب، بكل هذا الهدوء من كليهما، فاشتعلت نيران الغضب في حديثها وهي تقول له:

- لقد أغوى ابنك ابنتي يا إبراهيم، وحرّضها على ترك بيت أهلها والهروب معه.

- ألم يكن هذا ما تريده منذ البداية؟ أن يتزوج إدوارد إحدى ابنتيك. أظن أن هذا أفضل ما حدث، كارولين لا تستحق أن يحدث لها هذا.

- أن يتزوج يا إبراهيم، لا أن يغويها ويهربا معاً.

- سيعودان لا تقلقي، بعد أن تنفذ نقوده لن يجد له مأوى، ولكن قسمًا بربي حينها سألقيه في الشارع مع الكلاب الضالة.

- لا يعنيني ابنك الآن وكيف تؤدبه، ما يهمني هو ابنتي فقط، إن لم تذهب إلى إدوارد وتأتي إليّ بابنتي لن يمر هذا الأمر على خير يا إبراهيم.
- اطمئني يا عزيزتي، أنا لا أخشى عليها، هي تعلم ماذا تفعل جيداً.
ثم صمت برهة وقد عادت ابتسامة السخرية على وجهه:
- مثل أمها.

كان ما يحدث أكبر من استيعابها، لم تدر ماذا عليها أن تفعل، ربما يكون إبراهيم محقاً فيما يقول، ربما كان ذلك مناسباً أكثر، كارولين من البداية لا تصلح لطبيعة إدوارد المتمردة دائماً، ولكن ما مصير ابنتها الآن في تلك البلد الغريب عنها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السادس

(1)

عندما علمت جانيت بقدم سليم أبو زيد إليهم ظهرت عليها علامات الاستياء والتأفف. مزاجها في أسوأ حالاته من جراء المصائب التي تهطل على رأسها، لا يعجبها تصرفات سليم أبو زيد في الفترة الأخيرة، يحاول السيطرة على الشركة بإشراك ابنه في كل كبيرة وصغيرة فيها، أسس شركة نقل بدون علمهم مع صهره وبمشاركة ابنه الأكبر أسامة وبدأ يحتكر نقل الأحجار فيها، وهو ما لقي تحفظها ولكنَّ يديها مازالتا مكبلتين، تنتظر أقرب فرصة للنيل من كل خصومها.

رغم ذلك حافظتْ جانيت على اترانها في حضوره، باتت تتودد إليه الفترة الماضية، خصوصًا بعد سفر ديفيد، لا تريد أن تخسر كل أصدقائها في القرية، عائلة أبو زيد عائلة كبيرة لا يمكن خسارتها على الأقل في هذا الوقت.

قابلته بحفاوة مبالغ بها، لا تعكس ما يكنه قلبها من تخوف منه. سليم كان على حاله، لا يحبها كما كان يعلنها في غير مناسبة، ولكن ليس له سبيل آخر إلا التعامل معها، تقدّم وألقى السلام عليهما بينما السيد إبراهيم ينادي على أبو محمود يطلب القهوة التركي المخصوص للسيد سليم، حينما أخرج من علبة حديدية سيجارة (لاكي سترايك) ويهم يقدمها إليه.

- سيجارة أمريكي مكن.

- لا أحب الأمريكي، أفضل السجائر اللف.

ثم أخرج من جيب صدره التي كان يرتديها علبة التبغ وبدأ في لف سيجارة له بينما يمد إبراهيم يده بسيجارة إلى جانيت التي تمنعت قائلة له:

- أريد أن أجرب سيجارة السيد سليم.

تبادل الثلاثة التدخين مع فناجين القهوة التي أعدها أبو محمود بينما يتحدث سليم قائلاً:

- حيدر كبر يا إبراهيم ونريد أن نخطب له، فبمجرد أن تزوج أخاه الثالث من زوجته الثانية وأمه إحسان مصممة على زواجه، أنا والحق أريد ذلك، عل ينصلح حاله.

- ونعم الرأي، هناك ألف عائلة في بر الشام كله تتمنى أن تناسب سليم أبو زيد، اختر من تشاء ثم نذهب معاً لخطبتها.

- دمت صديقاً يا إبراهيم، لهذا أتيت لك الآن، فأنت في مقام ولي أمر العروس، وموافقك أولى.

ظهرت علامات الفرع على وجه جانيت، أنزلت فناجان القهوة من على شفيتها بينما نظر إبراهيم في دهشة إلى سليم أبو زيد، لا يتخيل أن يأتي كي يطلب منه يد إحدى بنات أخيه، كارولين الجميع يعلم أنها مخطوبة فكيف الحال إذا طلب يد مارلين، كيف يخبره أنه علم لتوه خبر هروبها مع خطيب أختها!

- من تقصد؟

شرب سليم رشفة من فنجان القهوة بينما وضعه مكانه مرة أخرى بكل هدوء وهو يستكمل حديثه:

- عايدة بنت وداد.

- عايدة؟!!

تنفس الجميع الصعداء، اعتدل إبراهيم في جلسته بعد أن كاد يغشى عليه، بينما ظهرت ابتسامة سعادة على وجه جانيت، وهي تثنى على اختياره.

- عايدة بنت جميلة، أبوها كان صديقاً لزوجي - رحمهما الله - لولا أن وداد أرادت الاستقلال بأولادها لكانوا يملأون البيت علينا الآن.

قاطعها إبراهيم، لا وقت لتجميل وجهها الآن:

- ولم لم تذهب لوداد تخطبها؟

- قلت لك إنك في منزلة عمها، ألم تقصد دارك أول ما قصدت في القرية؟! بالتأكيد تعرفها جيداً ومر افقتك معنا تعضد موقفنا.

- عايدة بنتنا، وحيدر ابننا، ولن نتوسط في أفضل من تلك الزيجة، على بركة الله، بعد العصر نذهب لهم نخطبها. ولكن لا تنسى أن تحضر حيدر، صحيح هل يعرف العروس من قبل؟

- لا؛ ولكن أمه رأتها في السوق أكثر من مرة وأعجبتها.

- على بركة الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مغادرة سليم أبو زيد مباشرة طلب إبراهيم من أبو محمود أن يذهب إلى وداد يخبرها أنه وسليم أبو زيد سوف يزورانها بعد عصر اليوم.

طوال اليوم ولا تعرف وداد ماذا يحدث، ولماذا أصابها الهم، ذهبت الأفكار في رأسها يميناً ويساراً، ولكن في النهاية عليها إعداد استقبال الضيوف، حتى اقتربت الشمس من مغربها، سمعت صوت طرقي على باب الغرفة، تقدم ياسين يفتح الباب حتى أهاله الموقف ومن خلفه تقف وداد التي لم تكن تستعد لاستقبال ذلك العدد.

كانت تظن أن الزيارة تقتصر على السيد إبراهيم بمرافقة سليم أبو زيد أو يزيد عليهم أبو محمود، ولكنها فوجئت بصحبة سليم لأبنائه الثلاثة لم يرغب عنه سوى باسل الذي يعلم الجميع أنه استقل عن أبيه إلا من زيارات متقطعة على فترات متباعدة يحاول فيها الحفاظ على الود بينهما بدافع من أمه حياة، كانوا في أبهى صورهم، كأنهم ذاهبون إلى فرح، لملمت وداد شتات أمرها وهي ترحب بالضيوف الذين انتشروا في كل مكان في الغرفة يجلسون على كل ما يصلح للجلوس، كانت جلستهم مرحة، وروحهم حلوة، لم تشعر معها بالغربة إلا ضيق اليد الذي لم يجعلها تستقبل الضيوف

أفضل استقبال، كانت أول مرة تشاهد إبراهيم منذ أن غادرت البيت، كسا الشيب شعرة، ولكن ما زال به روح الشباب، ظهرت في حديثه وهو يقول لها:

- ما زلتِ كما أنتِ يا أم ياسين، لم تتلّ منك الأيام كما نالت منا، كأنك لم تغادري البيت إلا أمس.

ظهرت علامات الخجل على وجه وداد وكأنها عروس تهرب من نظرات عريسها، طربت قلبها كلمات الود وإن عجز اللسان عن ردها بينما يكمل إبراهيم حديثه:

- افتقدناك كثيرًا يا ست وداد، ولكن ما أراح قلبنا هو الأخبار التي تصلنا عنك دائمًا أنك في أفضل حال.

- حمدًا لله يا سيد إبراهيم.

- لقد كان قاسم زوجك ونعم الأخ، وكان يشرفنا وجودك في وسطنا، وأصبحت واحدة منا، أولادك أولادنا، والآن جننا إليك لنطلب يد ابنتك عايذة إلى ابننا حيدر ابن السيد سليم.

لم تتمالك وداد نفسها من السعادة، ولا ياسين الذي رحّب بالأمر كثيرًا، وإن لاذ بالصمت في حضور أمه التي حاولت أن تحافظ على اتزانها أمام أهل عريس ابنتها، رغم أن دموع الفرحة كادت تفر من عينيها، شعرت لأول مرة أن ابنتها كبرت وأصبحت عروسًا، وجاء كبارات البلد لخطبتها. تذكرت قاسم، كانت تتمنى أن يكون بجوارها الآن، كانت تتمنى أن تخبره أنها أدت رسالتها على أكمل وجه، لم تقصر مع أولادها، وتقود ابنتها الآن إلى بيت زوجها، وممن؟ من عائلة أبو زيد ذات الحسب والنسب الكبير في بر الشام كله.

كانت علامات الفرح البادية على وجه وداد تُغني عن الجواب، إلا أنها في النهاية أثرت التريث، تريد أن تدلل ابنتها، تحدثت في البداية إلى السيد إبراهيم وعيناها تخاطبان سليم قائلة:

- البنيت ابنتكم يا سيد إبراهيم، جنّت بها إليكم لحمة حمراء فأويتمونا، وكنتم نعم الأهل، ولكن لا بد أن نأخذ رأيها، أما عني فلو باستطاعتي أن أذهب بها اليوم إلى بيت عريسها لفعلت، ولكن شرع الله يقول أن نأخذ رأيها، اتركونا فقط يومين ننشاور معها في الأمر وإن شاء الله ربنا يقدم الخير دائمًا.

استمرت جلسة الود بين الجميع، خرجت عليهم عايذة. جلست متجهمة الوجه وهي لا ترفع نظرها من الأرض، ظن الجميع أنه خجل العروس، بينما عقلها سارح في لقاء إسماعيل، وماذا ينوي أن يفعل حين سماع الخبر.

بعد أن غادر الضيوف الغرفة بدت السعادة على قلب وداد وياسين، لم تتوقف وداد للحظة عن الإشادة بالعريس وأديه، عينه كانت في الأرض لم ترتفع إليها، نسبه الذي يشرف، عائلة أبو زيد ألف من يتمنى نسبها في بر الشام كله، ياسين هو كذلك يعلم أبناء سليم من زوجته الثانية، سمعتهم في القرية ممتازة، يحملون عبء الشركة على كتفهم، حيدر لم يسمع عنه إلا من كلام إسماعيل وخوف أمه عليه، ولكن في

النهاية عريس لا يمكن أن يرفض، بينما عايدة كانت متمسكة بالصمت، الصمت الذي أدخل الريبة على قلب أمها وهي تقول لها:

- أظنك غير سعيدة بالزواج؟

- كنت أريد أن أكمل تعليمي؟

ظهرت علامات الغضب على وجه وداد، شعرت أن الأمر به ما يفوق رغبتها في استكمال تعليمها، ذلك الموضوع الذي انتهينا منه.

- وما ذكرك اليوم باستكمال تعليمك، ربما تريدان أن تدخلتي الجامعة؟! -

- ولم لا؟

كانت الكلمة الأخيرة كفيلاً أن تشغل الغضب في قلب وداد التي ما كانت تطمح في أكثر من أن تطمئن على ابنتها في بيت زوجها، قامت من جلستها وهمت تضرب عايدة، كانت أول مرة يدها تمتد عليها، أخرجت فيها غضب سنوات تحملت فيها بمفردها مسؤوليتهم - كقطه تحمل صغارها تقفد بهم فوق أسطح العمارات - حافظت وداد عليهم من أجل تلك اللحظة التي تريد ابنتها الآن برعونتها أن تضيعها. كادت أن تهلك في يدها لولا تدخل ياسين، أخذ صف أخته.

- كفاك يا أمي، لن نجبرها على الزواج، إذا لم ترده فلن يجبرها أحد على ذلك.

اشتعلت النيران في قلب وداد كادت أن تحرق كل من يقترب منها، ارتدت أقرب ما تصل إليها يدها وهمت تخرج من البيت بينما اقترب ياسين من عايدة يحتضنها وهو يقول لها:

- اطمئني يا عايدة، لن يجبرك أحد على شيء ما دمت على قيد الحياة.

كادت دموعها في حضنه أن تقضح أمرها، كانت تريد أن تقص له عما يجيش في قلبها من مشاعر تجاه إسماعيل، هو صديقه المقرب، وبالتأكيد سيرحب بالأمر، ولكنها أثرت الصمت، لا تعلم رد فعله، على الأقل لا تريد أن تفقد حضنه في تلك اللحظة التي ارتمت فيه يعوضها عن فقدان الأب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(2)

تأخر رد وداد على إبراهيم؛ أرسل لها مع أبو محمود أكثر من مرة دون إجابة واضحة، عايدة ما زالت مصرة على موقفها ويدعمها ياسين، خاصمتهم وداد وكانت لا تأكل معهم في طبق واحد، ولا تدري ماذا تفعل.

من الناحية الأخرى كان سليم أبو زيد يستعجل الرد، يعتبر تأخيره إهانة له، أن يُرفض ولد من عائلة أبو زيد لهو كارثة تطير فيها الرقاب، آخر مرة خاطب إبراهيم الصباغ معتبراً إياه ولي أمرها بلهجة لا تخلو من الحدة.

جانيت من اتجاهها كانت تعلم أن سليم أبو زيد شديد العصبية لعائلته معتر باسمها، ربما يحمل إبراهيم مسؤولية رفض عايدة لابنه، ضغطت عليه أن ينهي الموضوع في أقرب وقت، الحرب العالمية أدت إلى حالة كساد في تجارة العالم أجمع، والشركة تمر بظروف صعبة لا تتحمل أن يخرج منها سليم أبو زيد بسبب تصرف طائش من وداد ونجلتها، وعدّها أن ينهي الأمر اليوم، سيذهب شخصياً إلى وداد يعلم ما في الموضوع، رحبت بالفكرة ولكنها اقترحت عليه أن تذهب معه:

- نحن نساء نفهم بعضنا أكثر، أستطيع أن أقنعها.

في المساء فوجئت وداد بجانيت بوجهها النحيف وابتسامة الثعلب التي تغلفه تقف أمام باب غرفتها بجوار السيد إبراهيم، لم تكن رأتها منذ تلك الليلة، كانت كما هي، وما أخذه الزمن من نضرة وجهها عوضته مساحيق التجميل المبالغ فيها. تمنّت وداد أن تطردها من غرفتها جزاءً لما اقترفته في حقها منذ سنوات، ولكن ليس من أخلاقها مثل هذه التصرفات، رحبت بها على مضض بعد ترحيبها بالسيد إبراهيم، الذي لم يكن لديه وقت ليرد على ترحيبها المبالغ فيه أو لكي يمهد للموضوع ففتحه قائلاً:

- يا ست وداد السيد سليم يتعجل في الرد، وليس من المناسب أن أتأخر عليه حتى الآن، ولا أظن أن نسبه يحتاج كل هذا التفكير؟

- أعلم والله يا سيد إبراهيم، لقد طار قلبي فرحاً بطلب خطبتها، ولكني لا أعلم بنات الجيل الحالي وعقولهم من أين أتت! البنات تريد استكمال تعليمها وأخوها يدعم موقفها، ولا أستطيع أن أجبرها على شيء.

تعجب إبراهيم، هل يمكن أن يرفض نسب سليم أبو زيد، وقف أمام ردها عاجزاً عن الكلام، هنا لم يكن أمام جانيت حل إلا التدخل، رسمت ابتسامة الثعلب على وجهها وهي تقترب من وداد تقول لها:

- يا ست وداد نحن نساء مثل بعض، وأسرارنا واحدة، وعايدة ابنتنا، إن كان في الأمر ما يستحق الستر والكتمان أخبرينا به، لعلنا نستطيع أن نلحق المصيبة قبل وقوعها، إنه شرفنا على كل حال.

اشتعل بركان الغضب من رأس وداد، كادت أن تلطم جانيت على وجهها، وقبل أن تتكلم قاطعها السيد إبراهيم، الذي لم يكن يتخيل أن يصل التجاوز بجانيت إلى حد اتهام عايده في شرفها، نظر إليها بنظرة غضب وهو يقول لها:

- جانيت، هل جننت، وداد وعايده أشرف من أن يتحدث عنهما أحدٌ بسوء، ومن يفعلها أقطع لسانه، حتى لو كان سليم أبو زيد نفسه، أنا ظهرهما في هذه الدنيا، ولن أسمح لأحد أن يقترب منهما.

شعرت جانيت أنها لم تقدر الموقف حق قدره، حاولت أن تستجمع من الكلمات ما تخفف به من وطأة حديثها، ولكن إبراهيم الصباغ قاطعها مرة أخرى:

- انتهى الكلام يا جانيت، من فضلك اسبقيني إلى البيت، أحتاج الحديث مع وداد بمفردها.

لم تتخيل جانيت أن يأتي عليها اليوم وتطرد من منزل خادمة كانت تعد لها قهوة الصباح، لم يكن هناك حل سوى الانسحاب حفاظاً على ما تبقى لها من ماء وجه، ولكنها أقسمت أن ترد لهم جميعاً الصاع صاعين.

بمجرد أن خرجت جانيت والذي أعاد الهدوء بعض الشيء إلى وداد من تصرف السيد إبراهيم قالت له:

- الحمد لله أن ياسين لم يكن موجوداً في البيت، كانت ستطير فيه رقاب يا سيد إبراهيم.

- وداد، دعك من كلام النساء هذا أنا لا أحبه، دعينا نتكلم الآن ببعض العقل، سليم أبو زيد عصبي الطبع، إذا رفضت نسبه سيعتبرها إهانة له ولا أعلم كيف سيتصرف، من ناحيتي لن أترك أحداً يمسسكم بسوء ما دمت حياً، لم أتخل عنكم للحظة واحدة يا وداد، وإن تطلب الأمر سأدخل معه في خصومة كبيرة، خصومة ربما تضر بمصالحي أنا شخصياً، وما أظنك ترضين لي بهذا.

- حقاً لم تتخلّ عنا يوماً يا سيد إبراهيم؟! وقد تركت السيدة جانيت في تلك الليلة تتهمني في شرفي وتهم تطردنا من البيت، لولا ستر الله الذي سخر لنا أبو محمود، أكرمه الله كما أكرمنا وأوانا.

كانت ضحكات إبراهيم يسمعها العابد عند حائط المبكى في القدس، ظهرت علامات التعجب على وجه وداد بينما يكمل إبراهيم حديثه بلهجة السخرية قائلاً:

- أبو محمود؟! أبو محمود يا وداد لا يستطيع أن يدخل المرحاض لقضاء حاجته دون إذني، تظنين أنه آواكم هنا بدون علمي، أنا من أرسلته خلفكم بعد أن خرجت من الدار، كان بإمكانني أن أصر على وجودكم، ولكن رأيت أن ذلك أفضل لكم، أن تستقلي بأبنائك بعيداً عن جانيت وتحت رعايتي كذلك. أويتمكم إكراماً لأخي عيسى الذي لم يصدّ سائلاً عن داره أبداً.

صمت برهة ثم التفت إلى ماكينة الخياطة التي كانت مغطاة.

- هل أبو محمود كان يمتلك ثمن تلك الماكينة يا وداد، إنتاجك كله ملقى في المخزن عندي لا يجد من يشتريه.

أخذ إبراهيم نفساً وهو يكمل:

- لقد عاهدت الله منذ تلك الليلة التي خرجت فيها من عندي أن أفعل كل ما في وسعي كي أحافظ على أولاد قاسم، ويعلم الله أنني أوفي بعهدي، فأتمنى أن تكوني مقدرة لي ولو بعض الجميل، ولا تتسببي لي في مشاكل تضر بي.

كانت الأحداث أكبر من أن يستوعبها عقلها، ساد الصمت حتى سمعت صوت فتح باب الغرفة وعائدة تدخل والدموع تملأ عينيها، تركته وداد وتوجهت إلى ابنتها تهدئ من روعها بينما تحاول أن تفهم منها ما حدث. تهديداتها في صدرها لم تجعلها تفهم ماذا يحدث، بينما تبعها بعد قليل ياسين الذي دخل والغضب باد على وجهه متوجهاً إليها، قبل أن يلاحظ وجود السيد إبراهيم في المنزل.

تغيرت ملامحه في لحظة من حال إلى حال، رحب بالسيد إبراهيم ترحاباً حاراً، جلس بجواره وهو يقول له:

- أهلاً بك يا عمي، كنت أتياً إليك الآن.

- خيراً يا ياسين؟

- أبلغ السيد سليم أبو زيد أننا وافقنا عن طلب خطبة عائدة.

ظهرت علامات السعادة على وجه إبراهيم، لم يعنيه في الأمر ما حدث وما سبب التغيير، ما يعنيه أنه سوف يذهب الآن لسليم يخبره بالموافقة على طلب الزواج، بينما عينه تلتفت إلى وداد التي ما زالت تضم عائدة في حضنها متسائلاً بعينه عن جوابها بعد تغير موقف ياسين فقالت له:

- أخوها الكبير وفي مقام أبيها، الكلمة الأولى والأخيرة له.

- على بركة الله، وخير البر عاجله سأذهب الآن إلى سليم أبلغه موافقتكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(3)

مشهد خلفي

صباح ذلك اليوم؛ وبينما يهْمُ إبراهيم بالذهاب إلى بيت و داد، كان إسماعيل كعادته يتابع عايدة في خروجها من البيت، اعتادا على اللقاء في أسواق البلدة الأسبوعية، ألقت مجلسه وبدأ إعجابها به يزداد يوماً بعد يوم، كتتمت الشوق في قلبها، كانت في هذه المرة شاردة الذهن، لا تعلم كيف تفتح معه موضوع طلب ابن سليم أبو زيد خطبتها، عندما يتحدث كانت تنصت له، بينما هذه المرة شاركته الحديث:

- أتعلم منك كل يوم يا إسماعيل، أحب الجلوس معاك، أشعر في حضورك بجهلي، ليثني أكملت تعليمي حتى أكون مثلك. ولكن أمي قالت لي البنت ليس لها إلا بيت زوجها، رفضت إكمال تعليمي وتنتظر العريس المناسب كي تسترني. هل خلفه البنات فضيحة تحتاج إلى الستر في أقرب فرصة؟

- أتعلمين ما المشكلة في دير ياسين يا عايدة؟ هي صراع الأجيال، أبأونا لا يفهمون طموح شباب الأربعينيات وأمالهم، يريدون منا أن نعيش بفكر جيل العشرينيات البالي، حتى محطة إذاعة لندن يخاف والدي أن يغيرها، يخشى أن يسمع غير منيرة المهديّة وعبد الحمولي، يصب لعنته على جيل الشباب من محمد فوزي وعبد الوهاب، يتهمهم بإفساد الذوق العام. إدوارد ومشاكله التي لا تنتهي مع والده حول رغبتة في العمل في السينما، يظنها أنها مهنة وضيعة، يخاف أن يقال له إن ولده أصبح (مشخصاتي)، لقد كان إدوارد محقاً فيما فعله، أظنه سيصل إلى ما يريد يوماً ما، فعل ما عجزت طوال عمري أن أفعله، أتمنى أن تواتيني الشجاعة يوماً وأن أهرب بحريتي من نيران قيد أبي. حتى أخوك ياسين وطموحه، حقق مكاسب لا بأس بها من تجارته في السوق، رغم ذلك ما زالت أمك تظن أنه ذلك الصبي الصغير الذي يجلب لها المشاكل مع الجيران بلعبه، صراع الأجيال الذي لن ينتهي، بين حكمة وشموخ الماضي، وثورة وطموح الشباب. فإن لم تكن مكسور الجناح تسير تحت طوعهم، تصبح في نظرهم الولد العاق الفاسد.

سارا معاً في الطرقات يده تعانق يدها، كبت الشوق في أضلعه، ولكن فضحته عيناه، أحب براءتها، لم يحاول أن يغويها كما يفعل مع أي امرأة يقابلها، يشعر معها بالبراءة فرفض تدنيسها. وهي الأخرى أعجبت به، لم تستطع أن تصارحه بالأمر، لمحت له أنه ربما لا تستطيع أن تلقاه بعد اليوم، وقبل أن يتعجب أو يسألها، وبينما يسيران متجاورين يعانق الشوق ظلّهما، إذ تقف عايدة ترتعد فرائسها، رفعت عينها لتجد ياسين يقف أمامها، لم يكن هناك فرصة للكلام أو التبرير، إسماعيل يمسك يدها ويسيران في إحدى الشوارع الخلفية للسوق، شارع اتخذه العشاق للقاءاتهم السرية دائماً.

اقترب منها ياسين وعيناه تشتعلان غضباً قبل أن يلطمها على خدها صفعه كادت تسقط من أثرها على الأرض، لم تدرِ ماذا تفعل، جريت مسرعة عائدة إلى البيت، لا

تعلم مهرباً منه إلا إليه، ولكن كيف تنتظر في وجه ياسين بعد الآن، كيف تواجه أمها بعد أن يخبرها ياسين بما رأى، لن يمكنها بعد الآن تبرير رفض ابن سليم أبو زيد، شعرت حينها أن حياتها انتهت.

أما ياسين فقد اقترب من إسماعيل، أمسكه من ياقة قميصه يجذبه إليه وهو يقول له:
- حتى أختي يا إسماعيل، تظنها من تلك الساقطات اللواتي تحكي لي عنهن كل يوم.
- لا ياسين، أنا أحبها، سأتي مع والدي لخطبتها، كنت عازماً على أن أفتحك في الموضوع، ولكن انتظرت موافقة أبي حتى أتحدث معك وأنا أقف على أرض صلبة.

- كنت تنتظر أن تقايني في الموضوع فتقابلتني سرّاً! عليك تأخذ منها ما تريد وتتركها مثل من سبقها لتكون مضغّة في فمك تسلي بها ليل سمرك مع أصدقائك.
- كلامك لا يصح يا ياسين، أنت صديقي وأخي ويستحيل أن أفكر في أختك مثل هذا التفكير.

- ولكنك فكرت يا إسماعيل، لا أريد أن أشاهدك مرة أخرى، ولو كنت آخر الرجال لن أزوجك أختي، لا آمن عليها مع رجل مثلك، أنت مجرد صديقٍ عابرٍ أما أختي فأتمنى لها زوجاً أفضل منك، فابتعد عنها أفضل لك يا إسماعيل، ابتعد عنها وإلا لن أرحمك.

قالها له ياسين، ثم أعطى له ظهره وتركه، لم يكن لدى إسماعيل كلمة يدافع بها عن نفسه، الأمر لا يحتمل، لا يحتمل أن يخسر ياسين، ولا عايدة التي أشرق حبها في قلبه، تابع ياسين وطرقات القرية تبتلعه بينما يمضي نفسه أن يصلح الأمر بعد قليل، كل ما يحتاجه فقط هو زيارة لخطبتها بمرافقة أبيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(4)

خرج ياسين من الغرفة بمجرد أن غادرها السيد إبراهيم، كان يحاول أن يتجنّب نظرات أمه المتسائلة له عن سبب تغيّر موقفه، ذلك التغيّر الذي تبّع دخول أخته والبكاء يقطع جفونها، كان لا يعلم بماذا يخبرها؛ فقرر الهروب.

لم يعد له مكان غيرها، خسر إسماعيل إلى الأبد، لا يتخيل أن تصل به الدناءة إلى هذا الحد، خسر معه عم يونس الذي بات يألف مجلسه ويحب مداعبته العصبية التي كانت تنثير ضحكاتهم قبل أن يهيم بغلق الراديو ويطردهم في نهاية كل مساء وهو يلعن آباءهم.

جلس تحت شجرة الزيتون يناجي خيالها، كان يتمنى أن يراها، كلما اشتاق إليها يجدها أمامه، لن يخذله القدر هذه المرة. تقدمت منه، ظهرت ابتسامة السعادة على شفيتها عندما رأته، تغيرت بعدما شاهدت الحزن في عينيه، اقتربت منه أكثر، اختلست قبلةً منه وهي تسأله عن حاله:

- ما بك يا ياسين؟

- خسرت اليوم أعز صديق لي. أتعلمين يا إيلان؟ شعرت اليوم لأول مرة باليتم.

اقتربت منه إيلان أكثر، ضمته في حضنها وهي تقول له:

- تشعر باليتم وأنا بجوارك يا ياسين؟! أنا أبوك وأمك وأختك.

- لا أعلم ماذا يخفي لنا القدر يا إيلان، كل شيء حولنا لا يطمئن.

- أنا لك يا ياسين، لن أخذلك أبدًا.

بينما تأخذهم وعود العشاق إذ اقتربت منه إيلان وهمست في أذنيه قائلة:

- جدتي في المعبد، لن تعود الآن، ألا تريد أن ترى دارنا؟

كان يعلم ما تصبو إليه، يشاركها الشوق، انساق خلفها لا يعلم ماذا يفعل متناسيًا ما كان به من هم كبير منذ قليل، تاركًا نفسه لجنوحها يقوده، سارا في تلك الدروب الضيقة يعانق الشوق خطواتها بين أشجار اللوز والزيتون، قاصدين قرية (عين كارم)، كان الطريق الحجري المرصوف وشكل المباني المميز بقناطر نوافذها يضيف جواً من السحر، كانت القرية تبعد بضعة كيلو مترات، ساراها معًا إيلان وياسين في صمتٍ تامٍ في انتظار ما سيسفر عنه قرارهما الصامت.

سلكا بعض الدروب الضيقة داخل القرية وصولاً إلى حوش واسع، مُطلّ من جهة على الشارع الرئيسي، والذي لم تدخل من بوابته إيلان متجنباً نظرات المتطفلين من الجيران بينما سلكت ذلك الزقاق الضيق الذي يفصل المنزل عن الشارع الخلفي، نزلت بضع درجات تحد الحي اليهودي بالكامل الذي شعر برهبه بمجرد أن اقترب منه ياسين. منازل اليهود مميّزة الشكل، ملابس النساء والرجال ذوي القبعات السوداء والسوالف الطويلة المعقوفة الذين أفهم كثيرًا يتهودون عند حائط المبكى،

بعض الشباب ذوي الملابس الأوربية الحديثة، نظرات الجميع له تثير الرعب في قلبه.

المنزل تتوسطه بوابة حديدية صغيرة تعلوها نجمة داوود بينما بعض الكتابة باللغّة العبرية فوق البوابة الحديدية العتيقة مباشرة، كان البيت بالداخل عبارة عن حوش واسع غير مكتمل البناء محدّد بسور خارجي به بوابة حديدية كبيرة، يظن أنه أطلال معبدٍ يهوديٍّ متهدمٍ أو غير مكتمل البناء.

داخل ذلك الفناء توجد غرفة واحدة بجوار أحد الأسوار، يبدو أنها غرفة إيلان وجدتها، تقدمت منها إيلان وفتحت بابها، زاد اضطراب ياسين مع فتح المصباح الكهربائي، عكسَ أثاثُ الغرفة الرهبة في قلبه، صورة للصهيوني (تيدور هرتزل) بلحيته الكثيفة موضوعة على الحائط الأمامي للغرفة، على اليسار منها يوجد منضدة موضوع عليها شمعدان سباعي الأطراف، بينما الجهة المقابلة سرير وحيد في الغرفة، كان عتيقاً ككل شيء بها، له أربع سيقان تمتد بعمدان تعانق سقفها المرتفع، بجواره منضدة أصغر من السابقة، موضوع عليها صورة قديمة لم يشك ياسين لحظة أنها لشوشانة جدة إيلان في شبابها، بمجرد أن رآها شم رائحتها النتنة التي لم تفارق أنفه منذ أن شاهدها من أكثر من عشر سنوات في القطار في ذلك اليوم.

اقتربت منه إيلان تقذفه بيدها على السرير، بدا أمامها مستسلم، لا يعلم ماذا يفعل، بينما هي كانت تعلم تماماً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(5)

ما إن شاهد بنيامين ياسين يغادر البيت حتى اقتحمه على غفلة، حتى لم يتسنَّ لإيلان أن ترتدي ملابسها، امتدت يدها إلى أقرب وسادة تداري بها صدرها الناfran أمامها بينما عيناه تداعبهما، وهو يقول لها وابتسامه السخرية بادية على وجهه:
- يبدو أن غياب بن تيسون أتاح لك الكثير من المتعة التي كنت تقفدينها معه.

جحدته إيلان بنظرة غضبٍ بعد أن أكملت ارتداء حمالة الصدر وهي تقف تستكمل ارتداء ملابسها، كانت علامات الاشمئزاز بادية على ملامحها بينما تخاطبه بلهجة امرأة:

- من الذي سمح لك بدخول غرفتي، أنا الآن خارج الكيبوتس، وليس لك أمر عليّ، من فضلك غادر المكان فوراً وإلا لن يحمد عقبى ما فعلت.

تقدم بنيامين أكثر منها مما أثار الريبة في قلبها قبل أن يرتفع صوته بالضحك وهو يغير اتجاهه ناحية السرير الذي كان يشهد لحظات اللذة الجنونية منذ لحظات، سمع صوت مفصلاته الحديدية تنن من تحته فداعبها وهو يقول لها:

- أظن أننا قد نضطر إلى تغيير تلك المفصلات، إنها تزعج العشاق، أليس كذلك؟ راحة العشاق ضرورية حتى نحصل على ما نريد.

- قلت لك إنه أمرٌ لا يعينك.

تقدّم منها مرة أخرى، جذبها من شعرها إليه بشدة وهو يخاطبها بنبرة صوت خلّت من أي مشاعر بينما يطبق بقبضة يده على شعرها قائلاً:

- ليس من حقك أن تحددى ما يعنينا وما لا يعنينا، الأمر كله لنا يا إيلان، أنت هنا لتقومي بدور معين ولن نسمح لك بتجاوزه، حتى لو حصلت على بعض المتع الشخصية التي لا بأس بها، في النهاية كل مواطن في دولة إسرائيل هو جندي فيها، مطالب أن يدافع عنها، ويساعد على قيامها.

أفلتت من يده إيلان وهي تنظر له بنظرة حقد، بينما أكمل هو كلامه لا يبالي بنظراتها متوعداً:

- لا أظن أن بن تيسون سيكون سعيداً عندما يعلم بما حدث عند عودته، من الأفضل لك أن تبرر الأمر على أنه كان خدمة لدولة إسرائيل، حينها فقط ربما نجد لك مبرراً لنرحمك من نيرانه.

تعالت ضحكته بينما يخرج من الغرفة في حين عودة شوشانه إلى البيت، حاولت الترحيب به فنظر إليها في ودّ مصطنع لكبر سنّها، قبل أن يغادر الغرفة دون أن ينطق ببنت شفة، حينما بصقت عليه إيلان بمجرد أن غادر طيفه باب الغرفة.



(6)

عندما شاهد إبراهيم الصباغ أبو محمود قادم إليه في الجبل بينما كان هو يتابع عمل الكسارات فيه، حتى شعر بالخوف، أبو محمود لا يأت له في هذا الوقت إلا لأمر هام، وقف يلهث الأنفاس بينها يهمس له بما لا يسمعه أولاد سليم أبو زيد، حتى تملكته علامات الرعب وهمَّ يغادر المكان مسرعاً عائداً إلى بيته.

اخترق الرذّة الرئيسية مباشرة بدا ككهل عجوز، أنهكته الأيام الأخيرة وما بات يتحمل صدماتها، لم يعبأ بجانيت التي كانت تجلس لا تعي مما يحدث حولها في البيت من شيء، صعد درجات السلم على وهن بما يتناسب مع ضخامة جسده وما فعلته به الأيام، متوجّهاً مباشرة إلى غرفة كارولين.

حافظ على اتزانه أمام باب غرفتها قبل أن يطرق عليه طرقاتٍ متتابعة قبل أن تأذن للطارق في الدخول، كان الوضع كما وصفه أبو محمود تماماً، وسط الغرفة تقف كارولين تجمع ما تبقى من ملابسها بينما خزانات الملابس فارغة تماماً وضحت له من دلفاتها المفتوحة. نظر إليها إبراهيم بينما تركت فستاناً في يدها بعد أن علمت أنها لن تحتاج إليه، قدفته بعيداً عن حقيبتها إلى حقيبة أخرى كانت تجهزها أيضاً.

تقدّم منها إبراهيم يقبل جبينها وهو يقول لها:

- هل تتوین السفر يا كارولين؟

- ليس بالضبط.

- لا أفهم، ما الأمر؟

التفتت إليه كارولين، جلست بجواره على السرير، باتت نبرتها أكثر ودّاً، شعر معها ببعض الهدوء والراحة:

- تعلم يا عمي أنني أحبك، وأقدرك.

- ويعلم الله أنك أغلى عندي من ابني إدوارد، ولولا أنني أعلم أنه لا يستحقك، لكنت ذهبت إليه في القاهرة وأتيت به راكعاً أمامك، ولكن سعدت بخبر هروبه لتتخلصي من ذلك الكابوس.

أشاحت كارولين وجهها الناحية الأخرى، لا تريد أن تتحدث في الأمر، قبل أن تعاود الحديث مرة أخرى بنفس نبرة الود.

- عمي، لقد اتخذت قراراً وأتمنى أن تساعدني عليه.

- خيراً يا ابنتي؟

- لقد قررت الذهاب إلى الدير.

- فلتذهبي، أنت كثيرة الزيارات للدير في الفترة الأخيرة ولم أمنعك، ولكن هل زيارتك للدير تحتاج كل هذه الملابس، أم أنك تتوین التبرع بها للفقراء.

- عمي أنا لا أشعر بالسلام والراحة إلا في الدير، الحياة هناك تناسبني، لا أستطيع العيش في عالمكم، لم أخلق لحياة الفتن والمكائد، أشعر أنني غريبة، حياة الدير بزهدا وحدها التي تشعرني بالطمأنينة والسلام اللذين أصبو إليهما.

كان إبراهيم الصباغ يتمنى أن يكون ظنه خطأ، ولكن يبدو أن ابنة أخيه مزمعه على ما كان يخشاه، حاول أن يكذب نفسه في حديثه معها:

- حياة الدير حياة رهبان، ناس وهبوا حياتهم للرب، وخدمته، زورهم باستمرار ولا تتأخري في مد يد العون لهم.

- عمي؛ انا قررت الرهينة.

نزلت الكلمة كالصاعقة على قلب إبراهيم، اقترب منها، كادت الدمعة تفر من عينيه وهو يقول لها:

- تترهبين وتتركين عمك يا كارولين، تحرميني من أن أفرح بك كعروس، أن أركب في الكنيسة إلى عريسك، أن أذهب إليك صباح كل يوم بالزيارة، أن أحمل أولادك على يدي، تحرميني من لعب أحفادي على كتفي.

- صدقني يا عمي، لن أفنقد أحداً غيرك، ولكن تلك الحياة لن تناسبني، حياة الرهينة هي طريق السلام لي.

- هلا فكرت في الأمر جيداً، لا أريدك أن تتسرع، ربما ما حدث من إدوارد ومارلين أثرا على قرارك.

- لقد فكرت ملياً، قدمت الاعترافات إلى الكاهن في الكنيسة، وهو من زكاني في طربي، عليّ الالتحاق بالدير اليوم أو غداً على الأكثر.

نزلت دمعة من عين إبراهيم حاول كتمها، لم يتمالك نفسه بينما شاركته فيها كارولين وهي تقول له:

- يمكنك أن تأتي لزيارتي يا عمي.

ثم التفتت وقد غيرت معالم الحزن على وجهها إلى بهجة وهي تشير إلى حقيبة الملابس.

- سأمر على عمتي وداد قبل الدخول إلى الدير، تلك الحقيبة بها كثير من الملابس التي لا تناسب الحياة هناك، ولكنها ستناسب عايدة، عروس جديد تريد أن تفرح.

أوماً إبراهيم برأسه بالموافقة دون أن ينبس ببنت شفة، غادر الغرفة والحزن بادٍ عليه، كانت جانيت غير عابئة بأمر ابنتها كارولين، التي ترى أنها دللتها أكثر من اللازم وأصبحت خارج طوعها هي الأخرى، تقدّم منها إبراهيم وهو يجلس أمامها دون أن ينظر في وجهها قائلاً كلمات معدودة، أصابتها بالدهشة وإن كانت لم تبدّ تجاهها رد فعل.

- كارولين قررت أن تدخل الدير، قررت الرهينة.

حينها أيقنت جانيت أنها فقدت ابنتها ربما إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(7)

عدة أيام قضاها إسماعيل في البيت لا يغادره، يحاول أن يهرب من نظرات والده، يشعر أن خلف تلك النظرات عيناً تعلم كل شيء خصوصاً حينما يسأله عن ياسين بين الحين والآخر، لم لم يعد يأت ليجلس معهم يومياً كعادته؟ هل تشاجرتم؟ لا يعلم بماذا يجيبه إسماعيل، يحاول تلافي نظرات والده بالانهماك في العمل.

كان عم يونس يتابع عمل إسماعيل في تلك السيارة التي أصرَّ على إصلاحها بنفسه بينما عينه تلتفت له بين حين وآخر حتى لم يجد مفراً من الحديث معه، ترك السيارة وتقدّم نحوه، سبق الخوف قدميه حتى وصل إليه، كان يجلس تحت تعريشة العنب في ساعة العصري يستمع إلى إذاعة لندن باهتمام، بيد أن حدث الجديد في أمر الحرب، وبمجرد أن شاهد والده حتى تراجع خطوات للخلف، وابتسم له كأنه يعرف لماذا يتقدم منه الآن.

يعلم إسماعيل أن الأمر لن يمر بسلام، ولكن لماذا، عايدة بنت مهندبة، تربت على أيديهم، لم يسمع عم يونس يتكلم عنها مرة بكلمة سوء، إنها فرصته الأخيرة للحفاظ على ما يريد، بعد أن ضحى - بسبب تسلط أبيه - بكل ما يحب، حتى أصبح أسير تحكّماته، استجمع شتاته أخيراً وتقدّم يجلس بجواره، كان الشوق يفضح عينيه فالتفت إليه يونس قائلاً:

- قل يا ولدي، عن أي مصيبة تريد أن تخبرني.
- دائماً لا أستطيع أن أخفي عنك شيئاً يا ولدي.
- إذا ما أظنه صحيح، تريد أن تخبرني بأمر هامّ، أعلم دخلتكم.
- يا ولدي لقد صرفت النظر عن فكرة السفر إلى القاهرة نهائياً، حقاً مكاني هنا معك، فما رأيك أن أتزوج وأملأ البيت عليك بالأحفاد.
- لا أحب تلك المقدمات، أخبرني من هي؟
- حسناً، أنت تعرفها يا ولدي، وما أظنك سوف تمنع، بنت أصول تربت على يدنا من الصغر.
- إن كانت كذلك فلا مانع، من هي؟
- عايدة، أخت ياسين.

تجهم وجه يونس وهو يسمع الاسم، تبدّلت ملامحه من الود إلى الدهشة، قال له متسائلاً:

- لم تشاهد ياسين منذ فترة على ما أظن؟
- نعم منذ ثلاثة أيام.
- أظن أن الأمر بات الآن صعباً جداً، لقد خطبت عايدة يا ولدي، ذهب لخطبتها حيدر بن سليم أبو زيد برفقة إبراهيم الصباغ.

- لا يمكن هذا يا والدي، بالتأكيد أرغموها على تلك الزيجة، لن أسمح لهم بأن يلقوا بها في تلك الزيجة، إنها ما زالت صغيرة، ولا يمكن إرغامها على أمر كهذا ونحن نفق نتفرج.

كان عم يونس يقدر الحالة النفسية التي يمر بها ابنه، حاول التودد إليه حتى لا يزيد الأمر سوءاً:

- ولكن يا ولدي لم يطلب أحدٌ رأينا، ولا يمكن أن نقحم أنفسنا على أمر كهذا، لها أم وأخ وموافقان على الزواج، فماذا بأيدينا أن نفعل؟

- سنذهب الآن ونطلب يدها، حينها يمكننا أن نوقف تلك الزيجة، ستختارني أنا، أنا على يقين من ذلك.

- أجننت يا ولدا! تذهب تخطب على خطبة ابن سليم أبو زيد، تريد أن يلحقنا العار طول عمرنا، لا يمكن أن يكون الطيش وصل بك إلى هذا الحد.

- أبي! إن لم تذهب معي الآن وتخطبها فسوف أفعلها بنفسني.

- اذهب وسترى كيف سيطر دونك. اعقل يا ولدي، سليم أبو زيد من كبارات البلد، وأخذ السيد إبراهيم الصباغ معه بنفسه يخطبون عايده، أقسم بالله لو كنت أخبرتني قبل خطبتها ما كنا تركناها، ولكنها الآن على ذمة غيرك، ولا يمكن أن تفعل ما يشيننا طول العمر.

- أنت لا يهمك أن يشيننا شيء، أنت فقط تخشى من غضب كبارات البلد.

- إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي.

- لا يا والدي، إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا «كلب»، حتى لا يغتر به المقام.

قالها إسماعيل، بينما يغادر المكان عائداً إلى غرفته، لا يعرف ماذا يفعل، لأول مرة يشعر أن والده محق، رغم ذلك لم يستطع أن يتعاطف معه، يحمله منذ البداية وزر ما وصل إليه. ليس ثم من مقابلة ياسين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مشاعره متضاربة، لا يعلم كيف سينظر في وجه ياسين الآن، ولكنه ليس أمامه حل آخر، كان ياسين بمثابة أخ أصغر له؛ أخ يزرع فيه كل ما يصبو إليه، خسارة ياسين ليست محل اختيار، كذلك خسارة عايده.

تقدم نحو البيت، وقف أسفله يتأمل الغرفة المضيئة، متواجدون لا شك، هكذا قال في نفسه، في هذا البيت يسكن قلبه بعد أن خُطف منه، اقترب من السلم الحديدي المجاور للجدار، هم بصعوده ليشرح لهم الأمر، تجنب لقاء وداد، يعلم قسوتها وقوتها، ربما لا يأمن رد فعلها، بالتأكيد ياسين أمره سيكون أهون عليه، نادى عليه عدة مرات.

عندما سمع صوته ياسين هم يستأذن من الضيوف، لم تعلم وداد حتى الآن ماذا حدث، ولكنها تشعر بأمر غير طبيعي، تتجنب السؤال، ليس في عقلها متسع

للصراع، نظرت بغضب إلى ياسين وهي تقول له:

- وهل هذا وقت إسماعيل؟

ردَّ عليها ياسين وهو يقترب منها يهمس لها:

- لن أتأخر يا أمي، ربما تكون فرصه لحيدر أن يجلس بمفرده مع عايدة يتكلمان أكثر.

لم يكن هذا هدف ياسين، كان يريد فقط أن يوقف نداء إسماعيل، لا يريد أن يفسد جلسة عايدة مع خطيبها، كما أُرِد أن ينهي هذا الموضوع كله الآن.

عندما ظهر ياسين من أعلى درجات السلم كانت ملامحة لا تتبى بالخير لإسماعيل، حاول أن يستشف من تلك الملامح الجامدة ما يعينه على بداية الحديث، اقترب منه ياسين، كانت كلماته قليلة ومحسومة:

- اعتذر عن استقبالك يا إسماعيل، لدينا ضيوف، حيدر خطيب عايدة بالداخل.

سمعتها إسماعيل، وخزت في قلبه، كان يشعر بأن طعنة من الخلف ألمت به، كادت الدمعة تقارق جفنيه لولا أن حبسها، قال لياسين بصوت عطوف:

- لا يمكنك أن تفعل هذا يا ياسين، لا يمكنك أن تجني على أختك، وعلى صداقتنا.

- أنت من فعلتها يا إسماعيل، فعلتها عندما استبحت لنفسك أن تعبت بمشاعر صبية صغيرة ولم تراعِ حق الصداقة التي بيننا.

- قسماً بالله لم يحدث، كنت سأحدثك في الأمر، كنت فقط أريد أن آخذ موافقة والدي حتى أتحدث إليك على أرض صلبة.

- لا يهم هذا، لقد فات الأوان، خطبت عايدة، وبعد أشهر ستكون دخلتها، فإن كان في قلبك ودٌّ لنا وعهد، لم تصنه، فابتعد عنها، ولا تسبب لها في فضيحة تطاردها باقي العمر.

- لا يمكن هذا يا ياسين، أنا أحترم عايدة كما أحترم والدتك وأقدرها ومن قبلهما أنت.

- إن كنت كذلك حقاً فابتعد عنها، هذا آخر رجاء مني لك.

قالها ياسين وهو يعطيه ظهره عائداً إلى البيت، حتى نداء إسماعيل لم يلتفت إليه، كاد أن يغشى عليه، لا يعلم ماذا فعل، ربما هو انتقام القدر منه على ما اقترف قبل ذلك، ربما القدر لا يريد له أن يبدأ حياة طاهرة مع من أحب، ولكنه في النهاية لم يكن أمامه حل إلا احترام رغبة ياسين. ربما تنقلب الأمور ويحدث ما يتمناه، لن يهدم سمعة عايدة، سيتحمل نار الفراق من أجلها ومن أجل صداقته مع ياسين.



(8)

رضيت عايدة بالأمر الواقع، مرة بعد الأخرى أصبحت تتقبل خطيبتها، قبلته إرضاءً لأمها وأخيها كما يتقبل المريض الدواء المر. رغم ذلك بدأت تميل له، خصوصاً بعد أن انسحب إسماعيل نهائياً من حياتها حفاظاً على وعده لياسين. بضعة أيام فقط نامت والدموع لا تفارق جفونها، ولكن مع الأيام بدأت تألف مجلس حيدر وزياراته، كان شاباً جميلاً الوجه، شديد البياض، يكمل تعليمه بإحدى المدارس في القدس، سعدت به لا تنكر، استطاع أن يُنسيها إسماعيل، ظهرت علامات السعادة يوماً بعد آخر عليها، شعر الجميع بالارتياح، خصوصاً ياسين ووداد اللذين كانا يؤلمهما أن تتزوج ابنتهما مغصوبة على أمرها. أما الآن فباتت عايدة سعيدة، تتزين في انتظار عريسها في الزيارات التي يصطحب فيها أهله، تنتظره على شغف، تهتم بإعداد الطعام له بنفسها، تتودد إلى أخته سحر التي رافقته بمصاحبة أولادها أكثر من مرة، نادى أمه أحسان بـ (أمي)، كان الجميع يشعر بالراحة.

لذلك اتفق الطرفان أن ينهيا أمر الزواج بأسرع وقت، جمعت إحسان أكثر من جلسة مع وداد اتفقا فيها على معظم تفاصيل الزواج، قبل أن يجلس ياسين مع سليم أبو زيد وأولاده يضعون باقي التفاصيل. كانت جلسات ودّ لم تظهر فيها أي خلافات حضر بعضها إبراهيم الصباغ الذي أصرّ أن يتكفل بكل تجهيزات العروس، حتى بات ياسين يشعر بالأبوة لأول مرة في حضوره.

حتى في الجلسات التي لم يحضرها إبراهيم كان ياسين يذهب إليه في المضيئة بعد يوم أو يومين يقص عليه آخر المستجدات ويطلب رأيه، ذلك الود الذي أدخل السعادة على قلبه، بينما يشعر إبراهيم بأن ياسين عوضه ابنه الذي فرّ إلى القاهرة ولا يعلم متى يعود، في مرة من تلك المرات عرض إبراهيم على ياسين العمل معه في كسارة الحجارة، رحب ياسين بالأمر ولكن أجل الحديث فيه لبعده زفاف أخته.

بات الجميع في حالة رضا وسعادة إلا جانبتي التي كانت نيران الحقد تشتعل في قلبها متوعدة الجميع أن تلك الفرحة لن تدوم، ما زالت تذكر طرد إبراهيم لها أمام وداد، أقسمت على الانتقام.

أعدّ بالاتفاق مع سليم أبو زيد فرحاً اجتمع فيه أهل القرية كلهم، شعرت وداد بالسعادة لأول مرة في حياتها، رقصت وسط جلسات النساء لأول مرة، اهتز جسدها كأنها صبية في ربيع عمرها، كانت تشعر بأنها أدت ما عليها ورُفَعَ عن كاهلها حمل كان يثقله.

العروس بدت أجمل، في كامل زينتها، يجتمع حولها البنات من أهل القرية يباركنها، رقصت بفرح وسطهن.

استمر الفرح أسبوعاً، اجتمع خلاله الناس في جلسات (الدبكة) و(اليرغول) و(الدحية)، شاركهم الرقص إبراهيم الصباغ وسليم أبو زيد، تخلى كلاهما عن وقاره وشاركوا الشباب الرقص، ظهر فيها لأول مرة أبو محمود الذي كان يتجنب أن يرى

وداد، حتى حانت زفة العريس، شارك الجميع في إقامتها داخل القرية وعلى أطرافها، يزفون العروس على جملٍ ومن خلفها 12 فرساً حتى وصلت بيت زوجها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت معالم البهجة على وجه وداد تُشجع ياسين على حديثها في أمره مع إيلان، التقط طرف الحديث منها عندما قالت له بعد أن فرغ البيت عليهم لأول مرة بعد زفاف عايدة على عريسها.

- عقبالك يا ياسين، أفرح بك وأزفك بيدي إلى عروسك. حينها أكون أدبت رسالتي كاملة، وألحق بربك، وأنا قد فعلت كل ما عليّ فعله.

- أطل الله عمرك يا أمي.

صمت لحظة بعد أن ردَّ عليها وهو يكمل حديثه:

- أنا حقاً أفكر في الأمر من فترة، وكنت فقط أنتظر أن أطمئن على عايدة في بيت زوجها حتى أفتحك في الموضوع.

- إنه يوم المنى، يوم أن أراك عريساً، يوم أحمل أحفادي منك. سأبحث لك بنفسي عن أجمل عروس في فلسطين كلها، ولو تكفل مهرك شعر رأسي سأبيعه لك.

تتهد ياسين، كلما اقترب بالحديث عنها أبعدته أمه وكأنها تعلم، ولكن الآن ليس موضع انسحاب، أخذ نفساً عميقاً وهو يقول لها:

- ولكني لا أريد أجمل عروس في فلسطين كلها، أريد واحدة فقط.

- من؟

- إيلان.

ضربت وداد صدرها بيدها بكل قوة وهي تصرخ فيه:

- اليهودية حفيدة شوشانه.

- ما لنا بدينها يا أمي، لقد تربينا على جيرتهم، كانوا جيراننا في اللد وفي دير ياسين، ولم تمنعيني يوماً من اللعب مع أولادهم، فما جد في الأمر؟

- لا تعلم ما جد، ما جد يا ياسين أنهم يريدون أن يسلبوا أرضنا، أن يقتلوا أبناءنا، أن يطردوكم من أرض أجدادكم.

- ليس كل اليهود سواء يا أمي.

- كلهم ألعن من بعض، أنت لا تعلم عنهم شيئاً، لا أريد أن أسمع الكلام الذي يملأ به إسماعيل أذنيك عن الفرق بين اليهود والصهاينة، كلهم أولاد كلب جاءوا هنا ليقتلونا.

قامت وتوجهت إليه، باتت نظراتها أكثر قسوة، نظرة لا يستطيع أن يجادلها معها كلمة، نظرة ترعد فرائسه منذ أن كان صغيراً، ظن أنه تخلص منها، ولكنها جاءت الآن أمامه ترهبه مرة أخرى بينما وداد تكمل حديثها:

- إن فكرت في هذا الأمر مرة أخرى لست ابني ومتبرئة منك ليوم القيامة.
أنهت وداد حديثها بعد أن عكر ابنها صفو أجمل لياليها، غادرت الغرفة تقف
تستنشق بعض الهواء النقي، بينما تركت ياسين لا يدري ماذا عليه أن يفعل، أمه لا
تدري ما أبعاد علاقته مع إيلان، يستحيل أن يصارحها بها، لم تكن مجرد علاقة
حب مرهقة، ما عاد يستطيع أن يتخلى عنها، لا يعلم ماذا عليه أن يفعل، ولكن في
النهاية لن يتخلى عن إيلان مهما كلفه الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(9)

كان أصوات فرح عايذة تمزق قلبه، وقف أمام باب الورشة يعتصر الألم قلبه، أصوات ضرب أقدام الرجال على الأرض بالدبكة الفلسطينية كأنها تضرب في قلبه، نزلت الدمعة لأول مرة من عينه، لم تجد من يشاركها حزنها، تخيل الآن عايذة وهي تقف وسط أهل العريس والفرحة بادية على وجهها، نسيته بالتأكيد، وخسر معها كل شيء، حتى ياسين لن يستطيع أن يعود إليه مرة أخرى.

غابت الشمس في كبد السماء، وأفل معها شوقه إلى عايذة، وإلى دير ياسين بأكملها، تأمل من مكانه عم يونس، كان يسير منتصب القامة كعادته، يطفئ مصباح الورشة قبل أن يغلق بابها، لم يذهب لموضعه أمام تعريشة العنب بعد أن هجرها أصحابها، كانت خطواته بطيئة، وكأنه كبير في العمر عشرات السنوات، خلال تلك الأيام التي يشاهد فيها قلب ابنه يعتصر ألمًا ولم يستطع أن يمد له يد المساعدة. قالها إسماعيل في نفسه: «سوف أفتقدك كثيرًا يا والدي، حقيقي سأفتقدك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الهدوء يخيم على دير ياسين كلها، لا تسمع منه إلا صوت هفيف منخفض، بينما يعلو بين الحين والآخر صوت نباح الكلب (ماكس) الذي يبدو أنه الوحيد الذي يشعر بصاحبه!

عزم على تنفيذ ما يصبو إليه، لم يكن من ذلك مفر، أطبق عليه والده فلم يعد أمامه مفر إلا ذلك، ضاقت عليه دير ياسين بما رحبت، لم يعد له صديق ولا حبيب، لم يبق له أمل يعيش من أجله سوى حلمه في تحقيق ذاته في القاهرة.

ما زال غموض موقف والده من ذهابه إليها يثير شيئًا ما في نفسه، وهو ما زاد شغفه بها، القاهرة مدينة الأحلام بالنسبة له، حلم بزيارتها أكثر مما يحلم (شباب اليهود العودة إلى فلسطين!) حتى جلسات إدوارد التي كان يهرب منها بات يفضلها عندما يتحدث عن القاهرة، وسحرها؛ شارع عماد الدين، وسينمات وسط البلد، المقاهي التي تعج بالزائرين، العمارات متعددة الطوابق ذات المصاعد الكهربائية، أحيائها القديمة، مساجد أولياء الله الصالحين الذين كان يقول والده عنهم «لوالهم لحرقت القاهرة بذنوب أهلها، ولكن الله أكرمها لإكرامهم آل بيت نبيه».

تحرك بهدوء في هزاع الليل بعد أن حمل على كتفه حقيبة سفر صغيرة، تكفي بالكاد لمتعلقاته الشخصية، لا يحتاج إلى شيء آخر، القاهرة بها كل شيء، سيبدأ من هناك حياة جديدة، حتى وإن اضطر أن يعمل أي شيء.

رغم ذلك لم يستطع أن يسافر دون أن يلقي نظرة وداع على وجه والده، تمنى أن يكون سفره برضاه، تمنى أن يصاحبه بسيارته القديمة نحو محطة القطار، تمنى أن يكون الوداع بينهما في محطة القطار بدلًا من أن يحاول أن يختلس نظرة منه وهو نائم.

اقترب من باب الغرفة وفتحها على مهل، صوت صرير المفصلات الحديدية الصدئة كان يزعجة، يخشى أن يوقظ والده فيحدث ما لا يحمد عقباه، ألقى نظرة على السرير فوجد الفراش ممهداً، ولده ليس عليه. فأين يمكن أن يكون في مثل هذه الساعة؟ ربما يتوضأ لصلاة الفجر! لا يهم، فيبدو أن القدر لا يريد له حتى أن يلقي نظرة الوداع الأخيرة عليه قبل أن يتركه، التفت خارجاً من الغرفة والحزن بادٍ على ملامحه، حتى اصطدم بشخصٍ ما أدخل الرعب على قلبه.

كان والده يقف أمامه مباشرة، وكأنه كان يراقبه في كل خطواته منذ أن استيقظ، وكأنه كان يستمع إلى أفكاره في تلك الليلة، تبادلت نظرات والده الغاضبة بين وجهه وحقية السفر المعلقة على كتفه قبل أن يصفع وجهه هو يقول له:

- عايز تهرب يا (...).

لم يتمالك إسماعيل نفسه، كانت الصفعة الأولى له من والده، وكذلك كانت الأخيرة، فعندما همَّ عم يونس أن يفعلها ثانية كانت يد إسماعيل أسبق لمنع يده، اشتدت يد الولد الفتية على يد أبيه، نظرة التحدي في عين إسماعيل أدخلت الرعب في قلب يونس! علم حينها أنه فقد السيطرة على ابنه للأبد.

- لن أسمح لك أن تكسرنى مرة أخرى، لقد اتخذت القرار، أنا ذاهب إلى القاهرة، لا أحتاج موافقتك بعد الآن، لا أحتاج إلى أي شيء منك، غداً في القاهرة أبني حياتي بعيداً عن تحكمتك، بعيداً عن إصرارك على كسر أي طموح لي، عن كسر شخصيتي، تريد أن تحولني إلى مسخ منك، كهل عجوز ضعيف يخشى حتى ظل الناس أن يقترب منه، ولكن سأتححر الآن من كل هذا. سأتححر وأبدأ حيث وكما أريد، لا كما تريد أنت.

أنهى إسماعيل كلامه، ترك يد والده التي كان مطبقاً عليها بقوة وهو يغادر المكان، تسارعت دقات قلب عم يونس حتى كاد يسمعها إسماعيل هو يغادر باب المنزل.

نادى عليه، فلم يكن من مجيب، حاول عم يونس اللحاق به حتى تعثرت قدماه في السجادة وهو يتبعه يحاول يمنعه من الخروج، حتى سقطه على الأرض لم يمنعه من التشبث بقدمي إسماعيل، ارتمى تحتها.

لم يتخيل إسماعيل أن تصل الأمور إلى هذا الحد، وقف منتصب القامة بينما يمسك بقدميه عم يونس تحته، وقبل أن يهم بحمله من على الأرض كان عم يونس يتوسل إليه:

- مستعد أن أفعل لك ما تريد، ولكن القاهرة لا يا ولدي؛ القاهرة لا، لقد فعلت كل شيء من أجل ألا أفقدك.

- أظنك فقدتني بالفعل يا عم يونس.

غادر إسماعيل عتبة المنزل، تجنب النظر إلى الخلف، كان يعلم أنه سيضعف أمام نظرة والده حتى سمع صوت ارتطام جسد بالخلف وهو يسارع تلك الدرجات الثلاث التي تفصل باب المنزل عن الشارع.

عاد إسماعيل بسرعة إلى والده، ألقى الحقيبة التي كانت على كتفه جانباً بينما يحاول أن يساعده على القيام من على الأرض، كان وجهه ملطخاً بالدماء إثر السقوط، بينما لم تستطع قدماه أن تحملاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما غادر الطبيب غرفة عم يونس لم يكن إسماعيل يتخيل أن تصل الأمور إلى هذا الحد، عم يونس ذلك الكهل الذي كان يملأ فراغ المكان بحيوية وخفة ظل، وعصبيته المحببة للجميع، بات الآن طريح الفراش، نقل الطبيب بكل أسي لإسماعيل الخبر:

- لقد تعرض والدك لصدمة نفسية كبيرة، أثرت على حركته، للأسف أصيب بالشلل ولن يستطيع الحركة بعد الآن.

لم تستطع دموع الندم أن تغسل ما يشعر به إسماعيل من ألم وهو يقف أمام باب الغرفة الذي أصبح عم يونس طريح فراشها فاقد الحركة للأبد، ومعها فقد إسماعيل كل أمل في الذهاب إلى القاهرة.

حتى الكلب ماكس الذي رغم كبر سنه كان دائماً في قمة النشاط بانته علامات الشيخوخة عليه، وظهرت عليه علامات الموت حزناً على حال عم يونس، حتى نفق بعد أيام قليلة من تلك الحادثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(1946-1947)

الفصل السابع

(1)

اصطدمت عايدة منذ اليوم الأول لها في بيت سليم أبو زيد بذلك النمط الجديد عليها. استيقظت في صباح دُخلتها - التي لم تتم! - على صوت طرقي على الباب منذ ساعات الصباح الأولى، شعرت ببعض الفزع بينما كان حيدر مستلقياً بجوارها في سبات عميق حينما همت تفتح باب عرفتها فوجدت إحسان تقف أمامها، كانت نظرتها قاسية بعض الشيء وهي تعاتبها على تأخرها في النوم لمثل تلك الساعات قائلة لها:

- نحن هنا ما زلنا نحافظ على عادات أهل الريف، نستيقظ مبكراً نخبز الخبيز ونضعه في الفرن قبل أن يستيقظ الرجال ليجدوا إفطارهم جاهزاً. يجب أن تعتادي على ذلك.

لم تدر بماذا عليها أن تجيبها عايدة، لملت خبيبتها في ليلة الأمس وهمت تخرج إليها بعد أن ارتدت ملابسها.

كانت سحر تجلس أمام صحن كبير من الفخار بيديها الملطختين بما داخله من عجين بينما تلتفت إليها بابتسامة ود:
- صباحية مباركة يا عروسة.

أماءت لها عايدة بوجه عبوس عما حدث وهي تهتم تجلس بجوارها تساعدتها، محاولة في الإفلات من قبضة إحسان وسطوتها، كانت سحر تشعر بالخجل من تصرفات أمها، لا يعقل أن توظف عروساً لم يمض على دخلتها بضع ساعات لتطلب منها المساعدة في أعمال البيت، اقتربت منها في غفلة من إحسان التي كانت تشعل الحطب في الفرن وهي تقول لها:

- لا تغضبي يا عايدة، طبع أمي صعب بعض الشيء ولكنها طيبة القلب، ستعتادين عليه.

لا تدري عايدة بماذا عليها أن تجيب في مثل هذه المواقف، اقتربت منها سحر أكثر تهمس في أذنيها فظهرت علامات العبوس على وجه عايدة فهمتها سحر وهي تقول لها:

- لا تقلقي يا أختي فالقادم أفضل بإذن الله، أمامكما العمر كله.

كانت إحسان تتابع حديثهما الصامت قبل أن تنادي على عايدة تساعدتها في وضع الخبيز في الفرن:

- هل تعرفين أن تُعدي العيش الطازج أم اعتدت على شرائه جاهزاً من الأفران مثل أبناء المدن؟! البيت الذي لا يخبز فيه عجين لا توجد به امرأة.

لاذت عايدة بالصمت، لم يخرجها منه إلا صوت طرق وداد على البيت وهي تنادي على أهلها، شعرت ببعض الراحة، كغريب عائد إلى وطنه ارتمت في حضنها، لم

تستطع أن تمنع دموعها، ظنت في البداية وداد أنها دموع الابتعاد عنها لأول مرة في حياتها ولكن بعد تلك التهديدات شعرت بأن شيئاً ما في الأمر.

استقبلتها إحسان بوجه مبتسم لا يعكس ملامحه المتجهمة منذ قليل، رحبت بها قبل أن يخرج حيدر يرحب بحماته التي استأذنت من الحضور بالاختلاء بعابدة في غرفتها.

كانت فرصة أخرى لعابدة، أجهشت فيها في البكاء، لم تستطع أن تقص أمر إحسان وما كان منها في صباح ذلك اليوم، كانت تعلم رد فعل أمها، ستحاول أن تبرر تصرفات حماتها، حاولت وداد أن تطمئن على ابنتها فلم تطمئننها. شعرت بما تشعر به من مرارة، ولكن أسرّتها في نفسها قبل أن تتركها وتغادر البيت وهي تقول لها:
- ربنا يصلح الأحوال إن شاء الله.

حتى سلام الوداع تجنبته وداد وتوجهت نحو الباب مباشرة مغادرة المكان لا تدري أي منقلب سيصير إليه مصير ابنتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(2)

اقترب إسماعيل أكثر خلال تلك الفترة من عم يونس، شعر أنه يتعرف عليه لأول مرة رغم تلك السنوات التي لم يفترقا فيها، كان إسماعيل يتحاشى نظرات عم يونس له بعد تلك الواقعة التي حمل فيها نفسه ما وصل إليه والده، بينما لم يشعر عم يونس بأي ضغينة منه.

قبل بالأمر الواقع، عادت ابتسامته مرة أخرى تملأ المكان فأعاد الحيوية إلى إسماعيل الذي كان يقوم بعمل الورشة كله بمفرده، ذلك بمراقبة والده الجالس على كرسي متحرك يجلس عليه منذ الصباح أمام الورشة يتابع خطوات عمل إسماعيل في السيارات وهو يداعب فرو كلبه (ماكس) الذي لا يفارق جوار كرسيه.

بات هادئ الطبع على غير عادته، حتى إنه أصبح يشارك إسماعيل سماع أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم، جلسا معاً بمفردهما تحت تعريشة العنب مساء كل يوم يستمعان إلى محطات الراديو، كانت أخبار الحرب العالمية التي وضعت أوزارها تسيطر على كل محطات الراديو، شعر إسماعيل بخيبة أمل بعد هزيمة هتلر المفاجئة في الحرب بعد معركة (ستالينجراد)، كان إسماعيل يراهن على هتلر في تخليصهم من الخطر الصهيوني المتزايد على أرض فلسطين، فقد ثقته في الألمان، تحدّث بكل أسف عنهم مع عم يونس الذي لم يؤيد كلامه كعادته:

- لن تقوم قائمة مرة أخرى للألمان في هذا العالم، انتهت أسطورة ألمانيا للأبد.

- بالعكس يا ولدي، أنا أصلحت جميع الماكينات العالمية، الماكينة الألمانية لا يُعلَى عليها، حتى وإن كانت خارجة من حادثة، فبأقل مجهود تعود أحسن من ذي قبل، الماكينة الألمانية تعطل ولا تفسد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يتخيل إسماعيل أن يصل صفاء الود بينه وبين عم يونس إلى أن يفتح له والده قلبه ويقص عليه ما كان من أمر القاهرة، كان ذلك في إحدى ليالي الشتاء الباردة بعد أن أنهى إسماعيل العمل في الورشة لسيارة كانت عائدة من القاهرة، ما زال اسم (القاهرة) يطنني شيئاً في قلبه، جلس بجوار والده يستمع إلى أنغام أم كلثوم بينما كان عم يونس سارح الخيال لا يعي من أمر الدنيا شيئاً عندما داعبه إسماعيل قائلاً:

- بتحب يا عم يونس؟

ظهرت ابتسامة ود على وجهه وهو يجيب على إسماعيل بما لم يتوقع:

- هل يوجد من حب مثلي يا ولد، هل حُب شباب تلك الأيام حب!

لم يشأ إسماعيل أن يتحدث أكثر من ذلك، ترك العنان إلى ذاكرة عم يونس تقص عليه من الأمر ما لم يتخيله.

ذهب عم يونس صبيئاً صغيراً إلى بورسعيد في بدايات القرن العشرين، عمل في (شركة قناة السويس) في صيانته السفن، قبل أن ينتقل إلى القاهرة للعمل في ورشة

ميكانيكاً هناك؛ وهناك تعلم كل شيء.

عامله صاحب الورشة كأبن له، كان رجلاً تقيًا وورعًا، مواظبًا على الصلاة في المسجد، لا يتسنى أن يغلق باب الورشة حين رفع المؤذن صوته للصلاة بمسجد سيدنا الحسين المجاور لورشتهم بالجمالية. أحبَّ ابنته، كانت ابنة الرابعة عشر عامًا، شبت على يده فبارك والدها الزواج منه، كان يعامله كابن أكبر، وقد كان يونس ونعم الابن، تحمّل مسؤولية الورشة بعد وفاة صاحبها، وتكفّل بالإنفاق على بيته وأبنائه الذين لم يهتموا بصنعة والدهم واتخذوا مسلكهم إلى الوظائف الحكومية وأصبحوا (أفندية)، وضع أشقاء زوجته كل ثقتهم في عم يونس الذي كان ونعم الحارس على أموالهم، استطاع أن يحقق في حينها ثروة ضخمة، أصبحت الأموال في يده لا تُعد ولا تحصى.

قادته قدماه إلى مقاهي وسط البلد ومنها قاده أصدقاء السوء إلى شارع (كلوت بك) وكر البغاء والدعارة في مصر، الشارع الذي كانت تتبارى فيه الغواني والساقطات من المصريات والأجانب لبيع الهوى، أصبح ملازم البقاء فيه بين حاناته وبيوته، أصبح زبونًا دائمًا في أحد بيوت الدعارة ولازم حب إحدى غوانيتها حتى أنفق عليها كل ما يكسب، تبدل به الحال ولم يستطع أن يوفي حتى بمصاريف الورشة اليومية حتى أهملها كما أهمل بيته وزوجته التي رزق منها بابنه الوحيد (إسماعيل)، وحينها وقفت أمامه زوجته بعد أن أضناها التعب ويئست في إصلاح حال زوجها الذي كان يعود لها كل يوم وعلامات السكر واضحة عليه قبل أن يوسعها ضربًا عندما تلومه على ما يفعله بنفسه.

زادت أعباء الحياة عليه ولم يستطع أن يوفي باحتياجاته المتزايدة في ملازمة الراقصات والغواني حتى تزوج في يوم ما من إحداهن، اجتمع أخوات زوجته وقرروا طرد يونس من البيت ومن الورشة التي تم تأجيرها إلى أحد العمال بها، حينها استقر يونس في ريعان شبابه في شارع كلوت بك حتى انتهى به المقام أن أصبح بلطجي للعاهرات.

استمر الوضع بضعة أشهر قبل أن يدخل يونس في مشاجرة مع بعض البلطجية أصيب خلالها بإصابات بالغة في العمود الفقري أثرت على قدرته على الحركة قبل أن تتخلى عنه صاحبة البيت التي كانت تأويه، وتطرده في الشارع.

لم يكن له مأوى غيرها، طرقت بابها ودموع الندم بادية على وجهه في تلك الساعة المتأخرة من الليل، يشعر بالندم ولا يعرف كيف كان سيهرب من نظراتها، فتح شقيقها الأصغر الباب وعلامات الحزن بادية على وجهه، ظنها يونس أنها بدت عليه عند رؤيته عائداً إليهم، ابتعد شقيق زوجته عن الطريق فاتحاً المجال أمام يونس لدخول البيت، فوجئ برد فعله، تصور أنه سيطرده منه، تقدّم نحو الغرفة التي شهدت أجمل أيام حياته، كانت أشقاؤها جميعاً مجتمعين حول الفراش، بينما أمها تجلس بجوار زوجته ممسكة بيدها مصحفاً تقرأ فيه، كانت علامات المرض بادية على وجهها، السواد يملأ تحت عينيها لمنتصف وجهها، مغمضة العينين حتى

ظن أنها فارقت الحياة، اقترب منها يونس يقبل يدها وهو يجلس بجوارها على الأرض، لم يتخيل أن تصل بها الأحوال إلى هذا الحد، عاتبته أمها حينما قالت له:
- كانت وردة ذبلت كل يوم منذ أن غادرتها.

لم تشفع دموعه لها وتوسلاته، جلس بجوار مرقدها عدة أيام لا يبرحه إلا للصلاة وهو يدعو الله أن يحفظها ونجلها له، حتى كان قضاؤه مع الساعات الأولى لفجر يوم الجمعة، عندما فاضت روحها الكريمة إلى بارئها وفارقت الحياة.

كان نحيب عم يونس في جنازتها يسمعه الجميع، لم يمنعه أحدٌ عن ذرف دموع الندم عما اقترفت يده من ذنب في حقها، بعد الجنازة كره القاهرة والبلاد كلها، لم يستطع أن يمكث فيها أكثر من عدة أشهر لم تقارق صورتها كل مكان يتواجد فيه، لم يستطع أن يعيد الورشة إلى سابق عهدها ففر بإسماعيل عائداً إلى موطنه فلسطين بعيداً عن جحيم القاهرة وذكرياتها الحلوة والمرة على حد سواء يأمل أن يبدأ حياة جديدة بعيداً عنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يعلم إسماعيل عندما سمع قصة عم يونس مع وردة؛ أمه، أن يشفق عليه أم يبغضه، شعر بما قاساه من ألم وبات يلتمس له العذر عما كان يلاقه من معاملته، الدروس والمواقف التي مرت عليه كانت كفيلة أن تصل به إلى هذا الحد.

في إحدى مرات صفاء البال صارحه يونس قائلاً:

- في القاهرة ستجد المسجد بجوار الحانة. قبر ولي صالح يجلس على بابه دجال يستخدم اسمه للنصب على الناس. ستجد أفضل راقصة كذلك أفضل عالم دين. مدينة الألف مئذنة وكذلك الألف عاهرة. أبوابها مفتوحة للجميع فاختر منها ما تشاء. أنت من تختار أي منقلب ستصير، فيها باب الجامع بجوار باب الحانة.

صمت عم يونس برهه قبل أن يستكمل كلامه:

- لن أمنعك بعد الآن أن إردت أن تذهب إليها. الآن أنا أثق بك، وأعلم أنك ستختار الطريق السليم إذا سافرت إليها.

جاءه ما بات العمر يحلم به ولكن بعدما زهده، فكانت دعوة عم يونس له بالذهاب للقاهرة كطوق النجاة الذي أرسل إلى غريق ولكن بعد الوصول إلى بر الأمان. فبعد تلك الحادثة أصبح لا يستطيع أن يغادر والده ويتركه بمفرده، قل شغفه بالقاهرة وتنازل عن حلمه فيها نهائياً، تجاوز الثلاثين من عمره وفقد معها كل حلم له.

أهدى إسماعيل كلباً جديداً إلى عم يونس أوصى به أحد زبائنهم القادمين من القاهرة، أعاد نباح الكلب بعض الحياة إلى ورشتهم بعد أن انقطعت عنها بشل عم يونس ونفوق ماكس، ما إن شاهد عم يونس إسماعيل يتقدم نحوه بالكلب الجديد حتى فاضت دمعة من عينه وهم يتلمس فراءه ممتناً لإسماعيل على تلك الهدية الذي شاركه دمعه قبل أن يداعبه:

- ماذا ستسميه يا عم يونس؟

- مآكس؛ لا بُدَّ أن يكون اسمه مآكس، منذ أن رببت أول كلب وأنا أطلق على كل واحد أقتنيه اسم (مآكس).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(3)

غابت عنه هذه المرة كثيرًا، لم يعرف كيف يصل إليها، تجنب فكرة طائشة راودته أن يذهب إليها في الكيبوتس، أو حتى بيت جدتها شوشانه، كان حلاً لا يحمد عقباه، ظل لبضعة أيام حبيس نفسه تحت شجرة الزيتون، مكان لقائهما الدائم على أمل لقائهما، حتى أشفق عليه القدر وجمعهما.

كانت نظرة عينيها منكسرة، لم يتخيل أن يشاهدها عليها، اقترب منها، احتضنها وكأنه يعاقب تلك الأيام التي ابتعدت فيها عنه، كانت تشيح بنظرها عنه وكأنها تهرب من شيء ما، ما إن يحاول أن يسأل حتى ترفع يدها تغلق فمه، لا تريد فتح جراح، اشتاقت إليه، نزلت دمعة من عينيها تواسي حزنه، امتدت يده لمسحها وهو يحاول أن يفهم منها ما الأمر حتى أجابت عليه:

- لقد أنت أُمي إلى هنا، كانت أسيرة في معسكرات النازيين، حكمت لي ما لم يستطع عقلي أن يتصوره عن قسوتهم، لقد ظلت حبيسة قبو في (جيتو وارسو) لمدة ثمانية عشر يوماً لم تذوق فيها طعم الزاد حتى اقتحم النازيون الحي اليهودي وأبادوه بالكامل واقتادوا من ظل منهم على قيد الحياة إلى معسكرات العمل القسري في مقاطعة (لوبلين) التابعة للحكومة العامة، نجت أُمي حينها من المحرقة بأعجوبة.

لم يستطع أن ينطق ببنت شفة يواسي بها آلامها، أكملت وعلامات الأسى بادية على وجهها:

- لقد ضحى قيادات الصهاينة في أوروبا بنصف يهودها وسلموهم إلى النازيين ليحرقوهم في غرف غاز مقابل ترحيل الباقي من اليهود إلى هنا، لحسن حظ أُمي كانت من هؤلاء اليهود المُرحّلين.

صمتت برهة إيلان قبل أن تستكمل:

- لم أتخيل أن أشاهد أُمي بهذا المنظر، كانت تبدو ككهل عجوز رغم أن عمرها لم يتجاوز الأربعين، نحيفة الجسد يكاد أن يغمى عليها من الهزال، كانت تستمر لبضعة أيام دون أن تتذوق طعم الأكل، اعتادت على الجوع منذ أن اختبأت من النازيين في القبو، كانت نظرات الفزع لا تفارق عينيها. ماتت بعد أن جاءت إلى (أرض الميعاد) ببضعة أسابيع، شارك في جنازتها عدد من القيادات في الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية، بعضهم نعى بطولاتها والبعض الآخر تأسف لوفاتها هنا، كان يتمنى لو أنها ماتت في وارسو أو في أحد معسكرات الحرق النازي بدل أن تكبدهم عناء نقلها!

كان ياسين يشعر بما يعنصرها من إحساس الألم، لم تستطع الكلمات أن تشاركها حزنها، اقترب منها يضمها إليه، أراحت رأسها على كتفيه، رفعت عينيها في عينيها، اشتاقت إليه كما اشتاق إليها، داعبها وهو يبتسم قائلاً:

- وجدّتك ما زالت تذهب إلى المعبد؟

فهمت ما كان يصبو إليه، شاركته جنونه، تقدما خفية إلى ذلك المعبد المتهدم الذي كان يشهد لحظات جنونهما، لم تكن تلك المرة كسابقاتها، كانت إيلان أشرس من ذي قبل، وكأنها تنتقم من أحد في لقائها به، لم يستطع أن يجاري جنونها، كان متعجباً رغم ما اعتراه من سعادة قبل أن يسألها:

- ما بك يا إيلان؟

- ما قصصته عليك ليس كافياً كي تشعر بما أشعر به؟!!

- أظن أن الأمر يحوي أكثر من ذلك.

أشاحت بنظرها بعيداً عنه، لم تدر بماذا تخبره ولكنها كانت تعلم أنه ليس مفر من الحقيقة، ستكون لقاءاتهما الفترة القادمة مستحيلة، اقتربت منه وبدأت تتحدث معه همساً:

- لم تكن العودة لأمي وحدها يا ياسين.

صمتت لحظة وهي تتأمل صورة (تيودور هرتزل) المعلقة على الحائط أمامها بينما تكمل حديثها:

- لقد عاد بن تيسون أيضاً.

ابتعد عنها ياسين فزعاً، تنهَّد بصوت مرتفع لا يخفي علامات الذعر على وجه ياسين، حاول أن يخفيها عنها، ولكنه لم يستطع؛ سألها:

- لهذا السبب كنت لا أراك إذاً، وليس بسبب عودة أمك يا إيلان؟

- ليس صحيح، لقد عاد فعلاً بن تيسون، ولكنه لم يعد كسابق عهده، حتى عندما يلقاني كان يتجاهلني وكأنه لم يكن يعرفني، حارب في الجبهة اليابانية في الحرب العالمية قبل العودة إلى (أرتس إسرائيل).

قاطعها ياسين باستهجان قائلاً:

- تقصدي قبل العودة إلى فلسطين؟

- ليس هذا وقت مسميات جدلية يا ياسين.

قاطعها ياسين، لن تمر عليه الكلمة مرور الكرام متجنباً مناطق خلافاتها كعادته، هذه المرة تجاوزت كل الحدود، يجب أن تعلم إذا أرادت أن تكمل معه أنه لن يتنازل عن هذه الأرض مهما حدث:

- إنها ليست مسميات جدلية يا إيلان، إنه وطن وأرض، وطن ربما أمثال بن تيسون الذين عاشوا يتسكعون حياتهم بين الأمم لا يفهمونه، وطن لن نتركه إلا بعد أن نترك أرواحنا أجسادها.

كانت إيلان تشعر بالتشبع من كلمات الوطنية والولاء للأرض التي كان يمطرها على مسامعها كل يوم قيادات الصهاينة في الكيبوتس، الحاخامات في المعابد. ملت منها وما عاد سماعها يشجي قلبها. فقدت الإيمان بكل شيء ولم تعد تعلم ما معنى

كلمة (الوطن)، ولم تمثل في نفسها أي قيمة، أكملت حديثها دون الالتفاف إلى معاتبته:

- المهم الآن أن بن تيسون عاد أكثر قسوة من ذي قبل، لم تتحمل حتى قيادات الهاجاناه أسلوبه معهم، كان يرى أنه صاحب الفضل فيما وصل إليه اليهود هنا بفضل جهود الأمريكان، علمت أنه انشق عن الهاجاناه وانضم إلى منظمة حديثة اسمها (شتيرن)، الوضع داخل الكيبوتس بات أكثر تعقيداً وربما لا يتسع المقام لشرحه، ولكنه لا ينبئ بخير.

ساد الصمت بينهما لعدة دقائق، لم يكن لدي أي منهما حديث يتكلم به، حتى كسر حاجز الصمت ياسين متحدثاً:

- هل تحبينني حقاً يا إيلان؟

- أحببتك منذ أول قطعة حلوى أعطيتني إياها، سلبت عقلي وقلبي بها.

- ألن ألقاك مرة أخرى؟

- بلى يا ياسين، ستكون الرابطة بيننا أقوى من أي خلاف بين العرب واليهود.

صمتت مرة أخرى قبل أن تكمل وكأنها سارحة في بحر من الخيال:

- أقوى حتى من بن تيسون وشوشانه ووداد؛ أقوى من العرب واليهود أجمع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثامن

(1)

لا تعلم إيلان لماذا فعلت هذا، كانت على يقين أن قصة حبها لياسين لن تتم، لن يتقبل كلا المجتمعين المترصدين لبعضيهما ذلك الحب، ولكنها حاولت أن تحافظ عليه، حتى وإن فعلت تلك الفعلة المجنونة! تركت نفسها لجنوحها، فجاءها ما كانت تتمنى. رغم أ استمرار لقاءاتها مع ياسين إلا أنها كانت تُخفي عليه الأمر، حتى كاد جسدها أن يفضحها فوجدت أنه ليس هناك مفر من الاعتراف؛ الاعتراف للجميع وأولهم ياسين.

قابلته هذا اليوم، لا تعلم ما يجيش برأسه من أفكار نحوها، ولا كيف سينتقى الخبر، ربما هو الآخر ليس إلا شابًا يجد في اليهوديات بنات كافرات يستحل أجسادهن دون أن تربطهم أي رابطة. بنات يهوديات ساقطات بالفطرة ليس لهن حقوق.

ارتمت في حضنه تحت شجرة الزيتون، لا تعلم من أين تبدأ، ولكن وجدت دمعة تجرح خدها وهي ترفع عينيها في عينيها تخاطبه:

- تعلم يا ياسين، منذ أن عادت أمي وأنا أخشى مصيرها؛ أخشى أن تكون حياتي مثلها، وينتهي مصيري إلى ما انتهت إليه.

كان ياسين يشعر بما تشعر به من حزن لا يدري سببه، أراد أن يداعبها قائلاً:

- هل تريد أن تحترفي البغاء يا إيلان؛ أقطع رقبتك.

دعابة لم تكن لترفع نظرة الحزن تلك في عينيها، ولا حتى مجاملة له، بينما أجابته:

- ليس هذا ما أخشاه، أخشى على مصيرنا، أعلم أنه سيكون مصير أمي، ستقرّ مني يا ياسين هربًا بعد أن تعرف ما أحمله.

كان ياسين بدت عليه علامات الاهتمام، لم يعد الأمر مجرد مضايقات في الكمبيوتر اعتادت إيلان أن تقصها عليه، ولكن اليوم يوجد ما هو جديد، يوجد ما تخفيه في صدرها، وما تلك المقدمات التي تسوقها إلا تمهيداً له فقال لها وقد بدت علامات الجدية ونفاد الصبر على لهجته:

- ما الأمر يا إيلان؟ بدأ صبري ينفد ولا أحب تلك المقدمات.

أخذت إيلان نفساً عميقاً وهي تقول له على مرة واحدة وليحدث ما يحدث:

- أنا حامل يا ياسين.

طعنة شعر بها ياسين في قلبه، لم يدرك حينها ماذا عليه أن يفعل، لم يكن ينتوى التخلي عنها، ولم يكن ما بينهما مجرد علاقة عابرة يتسلى بها الشباب، أحبها بصدق، حاول أن يقنع أمه بأمرها مراراً دون جدوى. ولكن الآن ماذا عليه أن يفعل؟ ساد الصمت بينهما، وضع رأسه في الأرض لا يقوى على التفكير، بينما أكملت إيلان:

- أعلم أن الوضع لم تكن تتمناه، ولكني أقول لك الحقيقة، لقد سعيت إليه، وأنا من خطط لذلك، كنت أريد ثمرة لحبنا، أريد صلة لا تقوى عليها الأيام، رابطة أقوى من

بن تيسون ووداد، والحقد الذي يزداد يوماً بعد يوم بين العرب واليهود. سيكون ابننا هو ثمرة هذا الحب يا ياسين، سيكون رمزاً للتعايش السلمي على هذه الأرض.
بدت علامات الانفعال في صوت ياسين بعد أن اتضحت الصورة أمامه وأفاق من صدمة المفاجأة وهو يقول لها:

- لقد اتخذتِ أغبى قرار في حياتك، لا يمكنك أن تفعلي هذا بدون إذني، لن يكون هناك ثمرة للتعايش على هذه الأرض بين اليهود والعرب طالما الصهاينة يريدون أن يسلبوا أرضنا منا، هذا الواقع الذي تعمي قلوبكم عن إدراكه، سيكون هذا الجنين هو رمز للحقد بين العرب واليهود، لا أعلم أي مصير أسود ينتظره، أي مستقبل حالك ينتظر ولذاً ليس له من أمر الدنيا شيء إلا أنه جاء من أم يهودية يسعى أهلها إلى سرقة أرض أبيهم، سيكون ثمرة حقد ودمار على الجميع يا إيلان. لن يقبله الطرفان، لن تقبله أمي، لن يقبله الكيبوتس، لا أعلم كيف جرؤت على مثل هذه الخطوة دون الرجوع إليّ!؟

- كنت أتوقع منك رد الفعل هذا، ولكن لا تخف، لقد فكرت في الأمر ملياً، لن يكون مصيري كمصير أمي، لن تحتاج أن تفر بالولد هارباً في ظلام الليل، كي تحرمه من أمه اليهودية التي جاء أهلها لسرقة أرضكم. أو لعله يحمل لنا البشارة في الغد.

صمتت برهة بينما ياسين لا يقوى حتى على التفكير في كلامها، حاولت أن تسوق إليه أي بشرى تفرج عما يشعر به الآن من صدمة، كانت تعلم جيداً أثرها عليه:

- علمت أن اجتماعاً سيحدث قريباً بين رؤساء المستوطنات المظلة على دير ياسين وبين كبارات القرية، سيوقع فيه رؤساء المستوطنات معكم معاهدة صلح على عدم الاعتداء عليكم مقابل عدم المشاركة في العمليات الفدائية ضد اليهود. إنني أرى بشارة أمل في تلك المعاهدة وفي ذلك الحمل.

اشتعل الغضب هذه المرة أكثر من ذي قبل، كاد صوته أن يسمعه أهل القدس كلهم وهو يقول لها:

- تباً لليهود، وتباً للمستوطنات، وتباً لكبراء دير ياسين هؤلاء القوادون بالفطرة. لن نسلم لليهود يا إيلان، أخبريهم أننا لن نستسلم. سنحاربهم حتى الموت.

أكمل ياسين حديثه بينما يركل شجرة الزيتون بقدمه:

- وتباً لهذه الشجرة أيضاً.

يبدو أن إيلان هي الأخرى قد فقدت أعصابها فقالت له:

- بل تباً لك أنت؛ تباً لقلب لا يعلم معنى الحب، الحقد ملاً لقلبك تماماً مثلهم، ليس فارق بينك وبين بن تيسون ووداد، جميعكم تنتظرون الفرصة التي تجعلكم تظفرون بالآخر.

قالت لها إيلان قبل أن تغادر المكان بينما تترك ياسين يعتصر الخوف قلبه، نظر إليها بعين الغضب وطيفها يغادر المكان مع غروب شمس ذلك اليوم، وهو لا يعلم ما ينتظره من وداد عند علمها بالخبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(2)

شجرة الزيتون

بل تَبًّا لك أنت يا ياسين، وتبًّا للبشر كلهم، لم أحب أحدًا كحبي لك، لتركلني الآن
بقدمك.

هذا حال البشر، شعرت بوخزه في قلبي بينما قدم ياسين تركلني بدون سبب، نعم لي
قلب وإحساس مثل البشر، بل قلب أصدق حبًّا منهم، قلب عاش أبد الدهر على
الفطرة لم تدنسه نيران الحقد التي يزرعها البشر على تلك الأرض منذ أول يوم لهم
عليها.

سبني دون أن أفعل شيئًا، كنت دائمًا أظل على حبهم، وعندما جنت عليهم الأيام من
أفعالهم قال لي (تَبًّا).

يقطع ابن آدم غصنًا من غصوني ويتخذه درعًا للسلام بينما عيناه دائمًا على الشر،
فتبًّا لكل بني آدم، بعد اليوم ليس لي رفيق منهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(3)

منذ أن عمل ياسين في كسارة الحجارة مع إبراهيم الصباغ وكل وقته في العمل، يشعر بأنه قد وجد ضالته هناك، ظهرت شخصيته القيادية في السيطرة على العمال التي كان يعجز أحياناً إبراهيم الصباغ عنها، وجد ضالته هناك فأعطاها كل وقته، ربما بدافع العمل وربما بدافع الهروب من نظرات وداد التي كانت تقتله كلما التقت عينه بعينها تسأله على علاقته بإيلان.

تلك المهام التي أوكلها إليه إبراهيم وجعلته ينسى حياته الشخصية وهمومها، حتى أخته عايدة التي لم يذهب لزيارتها منذ زواجها منذ ما يقرب من عام، يشعر في تلك الليلة أنه يحتاج إلى التحدث إليها. الصبية الصغيرة كبرت وأصبحت زوجة ولديها بيت، بالتأكيد سيستوعب عقلها ما يقصه عليه حينها، ربما تكون واسطة بينه وبين أمه في قبول الوضع الجديد، الهروب من إيلان لم يكن حلاً متاح أمامه بعد أن وضعت كما وضعت الجميع أمام أمر واقع لا مفر منه. لقد أحسنت إيلان اختيار الرابطة التي ليس منها مناص.

قادته قدماه إلى منزل سليم أبو زيد، لم يكن يتوقع الحال على ما كان عليه، منذ أن وطأت قدماه عتبة الدار وقد شعرت نفسه بالانقباض من الوضع بمجرد أن شاهد عايدة أخته.

كانت تبدو أكبر من عمرها بعشرات السنين، لم تكن تلك الصبية التي تلعب بدميتها في بيتها منذ أشهر قليلة، وجدها تجلس أمام فرن في وسط الدار والحزن يملأ وجهها، ترتدي جلباباً أسود يغطي الدقيق كامل هيئتها، يديها العالق بها آثار العجين تهم بين فترة والأخرى أن تمسح بها جبينها فينلطح ببواقي العالق به. شعر بالألم في عينيها.

ما إن رأت ياسين حتى انفرجت أساريرها، كغريقٍ تعلقُ بقشة يأمل في النجاة. اشتاقت إلى أخيها كاشتياقها إلى حياتها القديمة، جرت عليه وارتمت في حضنه، لم تعبأ هي ولا هو بما تعلق على ملابسه من فضلات يدها، ولكنها كانت تشعر معه بالراحة والأمان اللذين تفتقدهما منذ أن تزوجت حيدر.

نظرة عينيها كانت تخبر ما تقاسيه، لا يعلم هل جنى عليها، أم الأيام هي التي كانت تجني عليهم جميعاً؟!!

جلست بجواره على أريكة خشبية قديمة مقابلة للفرن، تبادل معها الحديث، حاول أن يكذب نفسه ويطمئن على حالها؛ فلم يحدث.

كانت تكتم الدموع في عينيها. لا يستطيع أن يقدم لها شيئاً، حاول أن يحمل إليها كلمات التخفيف عما هي فيه، تلك الكلمات التي ملت من سماعها من وداد حتى انقطعت عن زيارتها.

- لقد كبرت الآن يا عايدة، وأصبحت زوجة وغداً تصيرين أمًا، أصبحت سيدة البيت، وجيد أن السيدة إحسان توكل إليك بعض أعمال البيت، تلك ثقة يجب أن

تسعدني بها.

كانت كلماته لا تحمل في طياتها إلا الألم لها، بادلته الحديث:

- لست سيدة في هذا البيت يا ياسين، بل خادمة. إحسان تتعامل معي كما يتعامل السيد مع خادمه، لا توكل إليّ إلا أعمال البيت الشاقة. منذ اللحظة الأولى لقدمي إلى البيت وأنا أشعر أنها أنت بي لخدمتها هي وابنتها وابنها.
- كل ذلك سيتغير بعد أن تتجبي أول ولد، ستفرح به وسيفرح به سليم ويدلك الجميع.

أشاحت برأسها بعيداً عنه، لا تدري بماذا تخبره، لا تعلم كيف تقول له إن ذلك الولد الذي ينتظره البيت كله لن يأتي. ذلك الولد الذي باتت إحسان تؤنبها كل صباح ومساء على تأخرها في الحمل لن يأتي أبداً، ولن تستطيع أن تتنطق بكلمة واحدة.

كانت كل لحظة صمت تمر على عايدة يقرأ ياسين في عينيها من الكلام ما عجز لسانها عن البوح به، وما عجز هو أيضاً عن مواساتها فيه. جاء إليها كي تشاركه همه؛ فشاركها هو همها. لم يستطع بالطبع حينها أن يخبرها بأمر إيلان، ليست في حالة تسمح لها بمساعدته، ولا تقديم المشورة له. ولكن في النهاية شعر ببعض الراحة بالجلوس معها.

كان يتمنى أن تطول جلستهما، حتى شعر بأنه أصبح ضيقاً ثقيل الظل، ما بين لحظة والأخرى تلتفت عايدة إلى أم حيدر التي كانت تحجدها بنظرات الغضب، كانت تستحثها بتلك النظرات إلى استكمال الخبز. ضاقت عايدة من نظراتها، أخوها يأتي لزيارتها لأول مرة، لا يمكن أن تتركه، لا يمكن أن تطرده. تجاهلتها، تحولت النظرات إلى همهمات يسمعها الجميع، نظرات الغضب بادية على وجهها من تجاهل عايدة لها التي أعطتها ظهرها بينما تكمل حوارها مع ياسين، حتى استشاط الغضب من إحسان فنادت على عايدة تقول لها:

- ليس هذا وقت الثرثرة مع أخيك يا عايدة، أجلي تلك الثرثرات إلى وقت آخر، الرجال قادمون من العمل ويجب أن يجدوا الغداء جاهزاً.

سمع ياسين طرده من البيت بأم أذنيه، لا يعلم ماذا يفعل، لم يشعر بالإهانة بقدر ما كان يحاول أن يرفع الحرج عن أخته التي كان يعتصر قلبها الألم من تبجح إحسان ومخاطبتها بذلك الأسلوب أمامه.

قبل أن تتنطق عايدة بكلمة تدخل ياسين، كان يعلم أنها زيارة عابرة، زيارة ربما لن يسعى إلى تكرارها مرة أخرى ولا يريد أن يسبب مشاكل إلى أخته بسببها، همّ واقفاً وهو يغادر البيت بينما يده تصافح عايدة وحديثه موجه إلى إحسان:

- لا تقلقي يا عمتي سأغادر البيت حالاً.

ثم التفت إلى عايدة يقبلها في جبينها، كان يتمنى أن يطيل السلام معها، ولكن بيد أن القدر حتى يمنعهم من لحظات الوداع فهم يغادر البيت وهو يقول لها:

- في حفظ الله يا أختي.

طُفح الكيل بها بعد تلك الزيارة، فبعد أن غادر أخوها البيت كانت قد وصلت لدرجة من الغضب لم تصل إليها من قبل، قامت والحنق يملأ نفسها من إحسان تستكمل خبز العيش أمام الفرن، تركت نفسها لمأساتها في البيت وما تتكبدته من مشاق.

تحملت عايذة فوق طاقتها من اللحظة الأولى لها في بيت سليم أبو زيد، حياتها مع حيدر جحيم مستعر، ولا تستطيع أن تتنطق بكلمة، إن تحدثت ستكون (المرأة الفاجرة) التي تقضح سر زوجها، سينظر إليها الجميع على أنها (عاهرة) ترغب في الجنس، ألمحت لأُمها من الأمر ما عفتها عليه. تعلم وداد جيداً، لن تقف معها إذا طلبت الطلاق، تربت أن على المرأة أن تتحمل زوجها، طوع يده دائماً وليس لها أي حقوق!

حتى حيدر لم يحمل لها أي فضل فيما تحملته فيه، بات سريع الغضب، شجاراتها تزداد يوماً بعد يوماً، تلك المشاكل التي كانت تصل إلى أمه فور خروجه من غرفتيهما، والتي لم تقف أن تتحاز إلى ابنها خصوصاً بعد أن تأخر الحمل وبدأت تحمّل عايذة مسؤولية ذلك، فلم يمض يوماً أو يومان حتى يسمع كل من في البيت تعنيف ومشاجرات بين عايذة وإحسان، الأمر الذي ازداد سوءاً بعد أن أصبحت عايذة تبادلها كلمة بكلمة مما كان يشغل نيران الغضب في كل من في البيت.

لم تقف عايذة من خيالاتها إلا على صوت إحسان يملأ الدنيا صراخاً بينما هي تلاحظ أخيراً رائحة حريق الخبيز داخل الفرن، اشتعلت إحسان غضباً منها، همت تلعنها لأول مرة بأبيها وهي تدفعها بعيداً عن الفرن.

لم تتحمل عايذة إهانتها، دفعت يدها بعيد عنها، بادلتها كلمة بكلمة، لم تتوقع إحسان أن يصل حد الجرأة بعايذة إلى تلك المواجهة، لم تتمالك نفسها إلا وهي تلطمها على خدها.

كانت تلك اللطمة هي الشرارة التي انطلقت في البيت تشعل النيران فيه، سارت وجالت عايذة في أرجاء البيت تسب وتلعن في الجميع، لم يستطع أحد كبح جماحها، استعلت عدم وجود سليم أبو زيد الذي كان الجميع يرهبه وهي أولهم، لم تدر بنفسها إلا وهي تقسم بالله إنها لن تمكث في هذا البيت بعد ذلك اليوم، ففوجئ الجميع بها تغادر البيت دون أن يقدر أحد أن يقف في وجهها بينما تسمع سبابها من إحسان وهي تغادر:

- عودي إلى الشوارع التي أتينا بك منها.

غادرت عايذة البيت، كانت الدموع تملأ عينيها، لا تعلم أي قبلة تذهب، شعرت لأول مرة باليتم، ليس لها ظهر في الدنيا، تعلم أن وداد ستعيديها مرة أخرى إلى البيت، لا تدري ماذا عليها أن تفعل ولكن في النهاية تركت ساقها تقودانها إلى حيث بيتها، وفي الطريق كانت المفاجأة، وكأن القدر يمد لها يد المساعدة، كانت رؤيته بمثابة طوق نجاه لها، تمننت أن تلقاه، تمننت لو كان بإمكانها الذهاب إليه، وقفت أمامه والدموع تنهال من عينيها.

بينما إسماعيل وقف يتأمل ذلك الوجه الذي أضنته الأيام. لم يشاهدها منذ تلك الليلة، حافظ على عهده مع ياسين، امتدت يده تعانق الشوق في يدها، كانت عيناها ممتلئتين بالكثير من الكلام، لا تقوى أن تقوله ولكن سمع كل حرف منه، شعر بما كان يضني قلبها.

سارا متجاورين بين دروب القرية الهادئة في لحظة العصاري، الجميع في حالة سكون، لديها المزيد من الوقت لتروي عطشها من رؤية إسماعيل، لن يذهب أحد للسؤال عليها، ربما استراحوا منها، كذلك وداد لم تعلم خبر خروجها.

جلست معه تحت شجرة الزيتون العتيقة، تركت نفسها للشوق يعانق عين إسماعيل الذي كان يحاول أن يقاومه هو الآخر، تأخر الوقت وبدأت حركة المارة حولهما تكثر، لا يمكنها البقاء معه أكثر من ذلك، خصوصاً بعد أن شاهدت أضواء سيارة جانبية تأتي من بعيد، لا تعلم إن كانت رأتهما أم لا ولكن إسماعيل طلب منها مغادرة المكان الآن! لا يصح أن يراها أحد معاً، نصحتها بالعودة إلى بيت أمها، وعدم العودة إلى بيت زوجها. شجعها على طلب الطلاق، إن حدث ذلك لن يقف هذه المرة مخلوق في وجه زواجهما، سينتظر أيام العدة بالساعات حتى تحل له.

بدأت ابتسامة الحياة تعود إلى وجهها مرة أخرى، خرجت من ذلك اللقاء وقد بدت أقوى، لن تقوى عليها حتى وداد تلك المرة أن تعيدها إلى بيت سليم أبو زيد مرة أخرى، ما هي إلا بضعة أشهر حتى تتخلص من ذلك الكابوس للأبد لتبدأ حياتها من جديد مع إسماعيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(4)

شجرة الزيتون

أحب تلك اللقاءات كثيراً، أنتظر ساعة الفجرية وقطرات الندى تبلل أوراقى بينما صياح العصافير يغرد بين غصوني، كانا عصفورين صغيرين، التقى الشوق في أعينهما، كنت أسعد بحديثهما، تكررت لقاءتهما فوق غصوني، حتى أتى ذلك الغراب الأسود، الذي كان دائماً يرصد حركاتهما فوق غصوني، اقترب بجناحيه الأسودين يضرب الهواء مخترقاً أوراقى مما أثار الهلع في قلب العصافير فانطلقت من على أغصان الشجرة؛ لا أحب الغربان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(5)

خرج ياسين من عند عابدة وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، لا يعلم كيف ستسير الأمور، يحاول بقدر المستطاع تأجيل تلك المواجهة التي لا مفر منها مع أمه.

اشتاق إلى إيلان، ربما أخذها الشوق هي الأخرى وتنتظره تحت شجرة الزيتون العتيقة. سار نحوها، مر على أهل القرية يتأمل وجوههم، كان يشعر بأن شيئاً ما يعكر صفوهم، حالة خوف وترقب على وجوه الجميع. الكل ينتظر ما ستسفر عنه الأيام، أنباء تلك المواجهات بين الهاجاناه والفدائين تملأ سماء المكان، يشعر بأن النصر قريب، أخبار عبد القادر الحسيني تدوي في سماء فلسطين كلها، حقق كثيراً من الانتصارات في الفترة الأخيرة، لا يحتاج إلا بعض الدعم من القرى المجاورة لهم حتى يقوى شوكتهم على كسر الصهاينة. اشتاق إلى تحليل إسماعيل، بالتأكيد عنده الآن المزيد يخبره به.

لم يستطع أن يكبح الشوق الذي يقود قدماه نحو ورشة عم يونس، اشتاق إلى إسماعيل، اشتاق إلى عم يونس ومزاجه العصبي، اشتاق إلى فنجان قهوة تحت تعريشة العنب، وقف يتأمل المكان من بعيد، كانت الورشة مفتوحة كعادتها دائماً سواء يوجد سيارات أمامها أم لا، عم يونس يجلس وحيداً على كرسيه المتحرك يستمع إلى الراديو في مثل ساعة العصري تلك، إسماعيل ليس له أثر؟! ليست عادته أن يترك والده إلا للقاء فتاة. عاودته تلك الابتسامة مرة أخرى وهو يتذكر مغامرات إسماعيل مع النساء وما كان يقصه عليه من أمرهم. حتى الكلب ماكس سعد لرؤيته، كان أول من شعر به فعلاً نباحه يلفت نظر عم يونس إليه.

لم يطل به الانتظار، سعد لرؤيته عم يونس كذلك، نادى عليه بعلو صوته، أخذت الرجفة قلب ياسين، لم يستطع إلا أن يجيب النداء، اقترب من عم يونس بينما عيناه تبحثان عن إسماعيل، تأكد من عدم وجوده، شعر حينها ببعض الراحة، تجنب مرارة اللقاء، أصعب ما يواجهه المرء هو عتاب الأصدقاء بعد الجفاء.

- أهلاً يا عم يونس، كيف حالك؟

- بخير يا ياسين، أما أن تعود مرة أخرى إلى صديقك.

- بالطبع يا عم يونس إسماعيل ليس مجرد صديق، إسماعيل أخ ويعلم الله كم أحبه.

- وأنا لولا أعلم معزتك في قلبه ما ناديت عليك اليوم أطلب منك هذا.

شعر بالراحة في معيته، مرت السويغات عليه سريعاً، هربَ خلالها ياسين مما كان يعصر قلبه من مرارة حتى شاهد إسماعيل قادماً من بعيد، كانت علامات الحزن بادية على وجهه، علامات لم تُزلها حتى دهشة اللقاء معه؛ بل ربما زادته.

تقدّم منه إسماعيل، بيد أنه ما زال يحمل في قلبه شيئاً رغم تلك الفترة ولكن لم يستطع أن يمنع نفسه من احتضانه. تعانقا بقوة، ظهرت آهة ألم تعاتب لوعة الفراق،

ضغط عليه إسماعيل بكلتا يديه يضمه إليه، وكأنه يعتذر له عما بدر منه لتوه الآن، قال له وهو يشعر بالخزي:

- ليتك أتيت قبلها بدقائق يا صديقي.

- لا يهم متى أعود، المهم أنني عدت.

لم يكن إسماعيل بحاجة إلى الحديث أكثر من ذلك، اشتاق هو الآخر إلى جلسة ياسين، تبادلًا حديثًا عابرًا حتى تطرق إلى شأن المقاومة.

كان إسماعيل يعول كثيرًا على تلك العمليات الفدائية التي يقوم بها الفدائيون بقيادة عبد القادر الحسيني في القدس، كان يشعر معها ببارقة أمل في تكبيل المخطط الصهيوني في فلسطين، عم يونس لم يعول عليها كثيرًا، كان يشعر بالألم وهو يقول:

- عاصرت الكثير من حركات المقاومة في بلدان عدة، إن لم تكن منظمة وتأخذ شكلاً رسمياً فلن تحقق شيئاً، المقاومة بدون غطاء سياسي هي انتحار يا ولدي، خصوصاً إذا امتك الطرف الآخر الدعم الدولي، وهذا فعلاً ما يمتلكه الصهاينة، منذ عشرات السنين والمخطط الصهيوني يوطد علاقته بالأرض ويتوغل بها كالنار في الهشيم، حتى أصبح الآن أمراً واقعاً. قرارات أممية رسمية، وعود على مستوى الحكومات الغربية، التي تريد التخلص من الوجود اليهودي على أرضها وتصدير المشكلة كلها إلى الشرق. وتكوين دويلة لها في الشرق تستخدمها كذراع إذا احتاجت إلى ردع أي من أعدائها في المنطقة دون أن تتدخل هي بنفسها.

قاطعة إسماعيل وهو يقول له:

- ولكن على أي حال يجب أن تستمر المقاومة، هي السبيل الوحيد أماننا الآن كي نثبت للعالم أننا ما زلنا أحياء. هناك دعم من دول عربية كثيرة وترسل بين الحين والآخر الفدائيين من كل البلاد، علمت بقدم شحنة أسلحة من مصر، وكذلك أظن أن الدول العربية ستتحرك من أجل إنقاذ فلسطين، إذا ما أعلنت إسرائيل قيامها، لن يترك العرب فلسطين، أنا على يقين من ذلك، ستتحرك الجيوش العربية لنصرة القدس، لا أظن أن تلك العصابات تقدر على الدول العربية مجتمعة.

قاطعه عم يونس هازئاً:

- هذا إذا اجتمعوا يا ولدي، الدول العربية كلها ضعفت قواها وأرهقها الاستعمار واستنزف خيراتها من مال ورجال، حتى مراكز صناعة القرار في معظمها لا يصل إليها إلا فاسد أو خائن، فيرضخ للمخطط الاستعماري من أجل الحفاظ على منصبه. ومن يفكر فقط أن يخرج عن ذلك المخطط المرسوم، يكون مصيره القتل والإعدام أو الثورة عليه من شعبه يحركها من خلف الستار المستعمر الأجنبي مستغل جهل الشعوب.

- أنا لا أحب لهجتك الانهزامية يا والدي، دائماً ما تسلم بالأمر الواقع ولا تحاول حتى تغييره.

- هذا ليس استسلامًا يا ولدي، هذه الحقيقة؛ الحقيقة التي يعميك حماس الشباب عن رؤيتها، قضي الأمر.

- إذاً ليس هناك مفر؟ لقد ضاعت القدس من أيدينا، ضاعت أرضنا وأصبحت مرتعًا للصهاينة، وعلينا أن نقبل بالوضع دون حتى أن نقاوم.

- لن تسقط القدس، لست قلقًا عليها. فحينما هجم أبرهة الأشرم على بيت الله الحرام قال شرفاء قريش (للبيت رب يحميه). ما يقلقني الآن هو نحن، الا يستعملنا الله فيستبدلنا بقوم آخرين أشد منا بأسًا وإيمانًا، فنتيه في الأرض. ليس التيه على اليهود وحدهم يا ولدي، التيه على كل من ينسى الله. تلك سننه في خلقه، فلا تقلق على القدس ستعود يومًا ما. ولكن أشفق على جيل ضاعت منه القدس ولم يحافظ عليها.

عادت الحياة إلى ياسين الذي كان يجلس يستمع إلى ذلك الحوار، بات كل يوم يشعر بالضعينة من الصهاينة، يتمنى أن يفتك بهم جميعًا. حتى تذكر إيلان، خجل من نفسه وهو يرتمي كل ليلة في حضنها، وغدًا ستجب له ولدًا، ولدًا سيكون (إسرائيلي)، لن يستطيع أن يحافظ عليه، سيتربى في كنف اليهود، حتى يلعن أباه عندما يكبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(6)

عندما عاد ياسين إلى البيت، أهاله وجود عايدة فيه، كانت ملقياً جسدها على السرير معصبة رأسها بمنديل أسود يغطي حاجبيها، وقد سلبتها دموع الحزن نضرة عينيها، لم يكن الأمر يحتاج أن يسأل عنه ياسين، توقع كل ما حدث بعد أن غادر البيت وتركها مع إحسان، ولكن على كل حال هي الآن في بيتهم، ليس لديه من الطاقة ولا صفاء الذهن أن يسأل عما حدث، ولا لديه القدرة على الدخول في صراعات أخرى الآن. أيًا ما كان حدث فهي وسطهم الآن.

يميناً كانت تجلس وداد متجهمة الوجه بعد ما سمعته من تجاوزات إحسان في حق ابنتها، وصلت إلى لطمها على خدها، وسبها بأبيها، كانت تعلم أنها لن تستطيع أن تعيدها تلك المرة إلى البيت، ولكنها في النهاية لن تتخلى عنها.

ياسين لا يعلم ماذا عليه أن يفعل، كل الأجواء من حوله لا تساعد أن يتحدث مع وداد في شأن إيلان، ليس هناك مفر من تأجيل الموضوع بضعة أيام أخرى، لاذ الجميع فيها بالصمت.

كان ياسين صباح كل يوم يذهب إلى العمل في الجبل لا يعود إلا مع غروب شمس اليوم، يتابع على استحياء في تلك المرات القليلة التي يقابل بها إيلان متجهم الوجه، أحوال حملها؛ علم الجميع أمره، لم تستطع أن تخفي الأمر عنهم أكثر من ذلك.

دهش من رد فعل بن تيسون، توقع أن يقتلها أو على أقل تقدير يطالبها بالتخلص من الجنين، ولكنها قصت عليه أنه لم يعبأ بالأمر، قالت له ما يحمل له الاطمئنان فقط، فلم تخبره بما ينوي عليه بن تيسون! ولا تلك المنظمة الصهيونية! لم تكن تعلم أن تداعيات ذلك الحمل يمكن أن تصل إلى هذا الحد! ما لم يكن يتخيله هو رد فعل شوشانة جدتها، الذي رآه بأم عينه في عينيها المتورمتين صباح ذلك اليوم الذي لاقاها فيه.

مرت الأيام سريعة، أحول القرية من سيئ إلى أسوأ، الجميع ينتظر ما ستسفر عنه الأيام، يجتمع الرفاق يومياً تحت تعريشة العنب يستمعون إلى الأخبار التي لا تحمل إلا كل ما هو مقلق من جهاز الراديو لدى عم يونس. إسماعيل بات أكثر حدة في التعامل مع الموقف، الغريب في الأمر أن عم يونس لم يعد يعنفه كعادته، كان حتى يتحمل مهاجمته المستمرة له!

رغم ذلك حملت لهم الأيام في طياتها من الفرحة ما يخفف عنهم مرارتها. زف الخبر إلى وداد بعد أن باتت تشك في الأمر لعدة الأيام، الأمر الذي هربت منه عايدة مراراً، تحاول أن تكذب نفسها حتى انطلقت تلك الزغرودة تدوي في فضاء الغرفة مع خروج الداية إلى وداد تخبرها أن عايدة حامل.

كانت وداد تكاد تطير من الفرحة، اقتربت من نجلتها تحتضنها وهي تقبل رأسها، حملت لها كلمات يملأها الأمل في الغد، عندما تصير أمًا، رسمت لها فرحة سليم أبو زيد عندما يعلم خبر حملها، تغير معاملة إحسان لها بعد الآن، مهما كان لديها من

أحفاد، فأحفاد الابن الوحيد لهم معزة خاصة. تعلم ذلك جيدًا، حلمت كثيرًا بأن تحمل ابن ياسين.

عايدة لم تكن تريد هذا الحمل، كانت لا تريد أي رابطة يمكن أن تربطها مع حيدر وأهله، كانت تعلم أنها مجرد أيام قبل أن تطلب الطلاق على أمل أن تعود إلى إسماعيل، لا تعلم رد فعله سيكون كيف عندما يخبره ياسين بالخبر، تلك الأحلام التي تطايرت كلها مع تلك الزغرودة اللعينة التي قضت على كل آمالها. بغضت حملها، تمننت ألا يكتمل، كانت تعلم أنه رابطة لن تستطيع بعدها أن تتخلص من ذلك الكابوس التي تحيا فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توجهت وداد دون أن تعلم عايدة إلى منزل إبراهيم الصباغ بعد أن وجدت الجديد الذي يقوي موقفها ويرفع عنها الخجل في حديثها معه. استقبلها أبو محمود بحفاوة كبيرة، كان انقطع عن زيارتهم منذ فترة بعد أن أدى دوره الذي رسمه له إبراهيم الصباغ ولم يعد يحتاج إليه. سلمت عليه قبل أن يستأذن لها بالدخول إلى إبراهيم.

كان يجلس كعادته برفقة جانيت، اقتربت منهم تلقي عليهم السلام بينما السعادة البادية على وجهها أدخلت البشارة على قلب إبراهيم.

- جنّت أرف لك البشارة يا سيد إبراهيم، عايدة حامل.

- أخيرًا خبر جيد في تلك الأيام السوداء. ألف مبروك يا أم ياسين.

- أنت أول من يعرف بالخبر قبل حتى ياسين أخيها، جنّت أبشرك به فأنت في مقام والدها.

تهللت أسارير إبراهيم بعد تلك الجملة. نذر الله ثلاث ذبائح عندما تلد عايدة وتقوم بالسلامة. ابتسامة السخرية على وجه جانيت التي لم تغفلها وداد لم تضايقها، كانت تعلم ما يضمه قلبها لها من حقد منذ اليوم الأول لها في دير ياسين، بينما استكملت حديثها مع السيد إبراهيم:

- ولكن لا يصح أن تحمل عايدة وتلد بعيدًا عن دار زوجها، رغم تجاوزات إحسان في حقها، وكنت عازمة ألا أعيدها إليها مرة أخرى، إلا أن ذلك الحمل جعل كل الأمور تتغير. لهم الآن في عايدة أكثر مما لنا، ابنهم أمانة الآن في رحم ابنتي، يجب أن يعلموا بالخبر.

- بالتأكيد يا وداد، بنت أصول طوال عمرك، يجب أن تعود عايدة إلى بيت زوجها، كنت أنتظر فقط أن تمر تلك الأيام الصعاب علينا جميعًا وكنت سأذهب بها بنفسني إلى هناك.

- ولكن عايدة ابنتي لن تعود إلا معززة مكرمة يا سيد إبراهيم، يجب أن يأتي زوجها والسيد سليم إلى داري يطلبان عودتها كما جاء إلى داري أول مرة يطلبانها.

تعالت ضحكات إبراهيم الصباغ وهو يداعب وداد يقول لها:

- أكملها يا وداد، قولي وأنت أولهم يا إبراهيم.

- لا أجروا يا سيد إبراهيم، إنها ابنتك. ولكن يجب أن تكون عودتها رغم ذلك تحت رعايتك، وبتعهد من السيد سليم أبو زيد لك أنت شخصياً بالحفاظ عليها من تجاوزات زوجته. وإلا بيت أمها أولى بها.

- وهو ما تريدين يا وداد، سأحدث غداً مع سليم، فرحة الحمل ستجعله يفعل كل ما نريد منه.

- يفعل من أجل ابنتي وكرامتها وليست كرامة للمولود يا سيد إبراهيم.

مرة أخرى حاول إبراهيم أن يخفف من وطأة الحديث ويرفع الحرج عن وداد:

- من أجل كرامة عايدة يا وداد التي هي من كرامتي، ألت والدتها كما قلت.

- لي رجاء آخر.

- تفضلي.

- لا يعلم أحدُ بتلك الزيارة.

- بالتأكيد دون أن تقولي. الف مبروك يا أم ياسين، أصبحت جدة الآن.

غادرت وداد المجلس، بينما تجدها بنظرة الغضب جانيت التي لم تنطق بأي كلمة طول فترة بقاء وداد، حتى كلمة (مبروك) لم يطاوعها لسانها على النطق بها حتى من باب المجاملة بينما انحلت عقدة لسانها بمجرد خروجها وهي تخاطب إبراهيم في عتاب:

- أنت تعطي تلك المرأة أكثر من قدرها يا إبراهيم، وجعلتها تتبجح حتى في الحديث معك.

- يا جانيت، وداد جاءت منكسرة تطلب مساعدة، ولكن عزة نفسها تمنعها أن تنطق بها، وكرامتها كانت تؤنبها، لقد كنت أرفع عن كاهلها مرارة الرجاء فقط، وأحفظ لها كرامتها.

- وكأنني أسمع عيسى الصباغ هو من يتحدث.

- حسناً أن أحداً منّا تعلم منه شيئاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سليم أبو زيد الذي منعه كبرياؤه أن يذهب معهم، فعوض غيابهم حضور السيد إبراهيم، أمر ابنه أن يذهب مع السيد إبراهيم لمصالحة عايدة رغم رفض حيدر ذلك إلا أنه لم يجد مفراً أمام نظرة الغضب التي رآها من عين سليم فأرعدت فرائسه، فعلى مضض وافق على الذهاب إليها كذلك طلب منه يفعل كل ما تريده وداد وعايدة، في النهاية الولد ولدهم ولا يصح أن يرى الشمس بعيداً عن دار أبيه وجده. كلمات كانت تمزق قلب حيدر ولكنه لم يقدر على البوح بما يدمر قلبه!

اصطحب إبراهيم وحيدر عايدة إلى بيت سليم مرة أخرى، أذعنا لكل طلباتها، اشترطت وداد، التي كانت متجهمة الوجه في حضور حيدر وإبراهيم، أن لا تساعد ابنتها في أي عمل من أعمال البيت، الفتاة صغيرة وحامل، ولا تتحمل مشقة أعمال

البيت التي كانت تكلفها بيها إحسان، كانت وداد تحسن الحديث، تعلم كيف تراوغ جيداً، اشترطت ذلك الشرط قبل أن تعرض خدماتها عليهم:

- وإن كانت السيدة إحسان تحتاج مساعدة أذهب إليها بنفسى والله، هي أخت وأخدمها بعينى.

سيطرت حالة السعادة على الجميع، إلا إسماعيل الذي حاول أن يكبت شعوره بينما نظرة ياسين تتأمل ملامحه وهو ينقل إليه الخبر، رسم ابتسامة ود مصطنعة وهو يبارك لياسين على حمل عايدة، ذلك الحمل الذي أجهض كل فرصة لعودتهما مرة أخرى.

حتى إحسان استقبلت عايدة بالأحضان، خبر حملها أنساها كل شيء وكأنها لم تغادر البيت غاضبة، بل استقبلتها كأنها عائدة لتوها من سفر طويل، توددت إليها غير ذي قبل، كذلك أمر سليم أبو زيد الذي اكتفى بالابتسامة عند عودته ورؤيتها في البيت وهو يقول لها:

«حمدًا لله على سلامتك يا ابنتى، ربنا يطمئننا عليك وعلى ابنك».

أما وداد فقد تنفست أخيراً الصعداء، شعرت بالراحة لأول مرة منذ تلك الليلة، بالتأكد الوضع سيتبدل بعد خبر الحمل. حاول ياسين أن يستغل ذلك الموقف، وتلك الحالة التي كانت عليها أمه والتي كان ينتظرها بفارغ الصبر على مزاجها يرضيها عنه.

كانت هي من شجعتة على الحديث، قالت له بعد أن غادرت عايدة الدار:

- عقبال ما أفرح بأولادك يا ياسين.

جاءته الرياح بما تشتهي السفن، فتحت أمه الموضوع دون أي عبء منه، التقط طرف الحديث:

- أمى، أريد أن أتحدث معك في أمر مهم.

- خيرًا، وأن كنت أشك أن يأتي من وراءك خير.

- أمى عديني أولاً أن تتعاملى مع الأمر بالعقل، جميعنا الآن في موقف لا نحسد عليه، في أمر واقع ليس منه مفر.

- ما الأمر يا ياسين بدأ قلبي يقلق.

قالها مرة واحدة، كما تلقى الخبر من إيلا ن نقله إلى وداد، بضع كلمات قليلة قبل أن تحدث العاصفة:

- إيلا ن حامل.

لا تعلم وداد ماذا حدث لها، نزل عليها الخبر كالصاعقة، ظنَّ ياسين أن أصابها الخرس من هول ما سمعت، كبتت الدموع في عينيها للحظات قبل أن تنفجر في حديثها إليه وهي تلطمه على وجهه:

- زنيت باليهودية يا نجس.

- أمي...-

- لا تتطققها مرة أخرى، لست ابني، أنا بريئة منك إلى يوم القيامة، اخرج من بيتي ولن تدخله مرة أخرى ما دمت حية، ولن يدخل ابن حرام عتبة هذه الدار.

كان حديثها أقوى من أن يرد عليه ياسين، حاول أن يتجنب الصدام أكثر من ذلك، يكفي ما حدث اليوم، تركها وغادر البيت، يعلم أنه لن يستطيع أن يحصل منها على شيء وهي غاضبة، سيزيد نقاشه الأمر سوءاً، ولكنه في النهاية رفع عن كاهله سرّاً كان يمزق قلبه خلال تلك الفترة، بعدها يحدث ما يحدث، ليس لديه ما يخاف عليه بعد الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(7)

مشهد خلفي

غابت إيلان عن كل المحافل التي يمكن أن تجمعها مع بن تيسون، مر الأمر بسلام حتى الآن، لم تتوقع رد فعل الحاخام الذي شككت له جدتها الأمر عندما علمت بخبر حملها، كانت تخشى من رد فعل المنظمة الصهيونية في القدس، وخصوصاً بن تيسون، الذي كان يطارد إيلان بعلم من الجميع.

أرادت أن ترفع عن نفسها ذلك الحرج، وإن أدى الأمر إلى قتل إيلان، التي تجاوزت كل المقدسات اليهودية وأخطأت مع واحد من (الأغيار النجسين).

كان ذلك في حضور الحاخام الذي صاحبهم في رحلة العودة من اليمن إلى القدس، على معرفة جيدة بوالدها منذ أن كان في اليمن، وعاشا تحت ظله في القدس، فنظر إليها وقد أدهشها هدوؤه عندما علم الخبر.

- الولد ولدنا في النهاية يا شوشانة أيتها الأم الكريمة، فاليهودي هو من يُولد لأم يهودية.

- ولكن ابن زنا من أب نجس من الأغيار، لقد قال الرب في سفر التثنية (لَا يَدْخُلُ □ بِنُ زَنَى فِي جَمَاعَةِ □ لِرَبِّ. □ حَتَّى □ لَجِيلٍ □ لِعَاشِرِ □ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ □ لِرَبِّ)

- أعلم كلام الرب جيداً يا أيتها المرأة الصالحة، ونحن لا نشجعه، ولكن لا بأس به على أمل أن يتهود الزوج، ما يدرينا علّه ينفعنا بعد ذلك في صراعنا مع العرب.

- والمنظمة الصهيونية وبين تيسون كيف سيكون موقفهم؟

- لا تقلقي أنا كفيل بهم إكراماً لأبيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(8)

كانت أصوات أجراس الدير تُدخِل السلام على نفسها، ذلك السلام التي لم تشعر به منذ أن خرجت من دير ياسين ليلاً هاربة بصحبة إدوارد، ذلك السلام التي كانت تشعر به في وجوه كل من حولها من رهبان وقساوسة، افترقت جلسة الدير والكنيسة، لا تتذكر آخر مرة وطأت قدمها فيها ذلك المكان، كانت ما زالت صبية بالتأكيد بصحبة أبو محمود الذي كان يصطحب كارولين صباح الأحاد إلى القديس في بيت لحم.

تقدمت وقد خجلت من ملابسها وسط لبس الراهبات بينما تسأل خادم الدير عن كارولين، تعجب الخادم من الاسم الذي كان يعلم أنه بالتأكيد تغير منذ قدوم صاحبه إلى الدير فقال لها:

- يا بُنتي يخلع الإنسان اسمه على باب الدير كما يخلع حياته القديمة، بالتأكيد الأخت التي تسألين عنها غيرت اسمها الدنيوي إلى اسم كنسي آخر الآن، لا تعلمين ما هو لعلني أرشدك؟

- لا أعلم يا سيدي، إنها أختي كارولين فقط، أنت إلى هنا كما علمت منذ عام من قريتنا في دير ياسين.

- ربما تقصدين الأخت تريزا، هي من ترهنت في تلك الفترة تقريباً من تلك المنطقة التي تقصدينها.

- لعلها هي، فقد اشتقت إليها.

- الأخت تريزا في المبنى المقابل تقوم بالتدريس إلى بعض الأطفال.

لم يكن الأمر يستحق عناء التفكير، كانت مارلين تعلم أنها ستجد ضالتها في الأخت تريزا هذه، وجدت أختها السلام الذي كانت تصبو إليه، وعملت بما تحب، تربية وتدریس إلى الأطفال.

وقفت على باب إحدى الغرف الحجرية تتأمل من الخارج منظر الأطفال وكارولين تقف بابتسامتها الهادئة تشرح لهم، أعاد لها ذلك المشهد الحنين إلى حياتهما معاً. تمت لحظة تعود فيها إلى دير ياسين طفلتين تتشاكسان حول دمية، التقفت كارولين إليها، ظهرت ابتسامة ود عليها قبل أن تستاذن من التلاميذ وغادرت المكان إليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بجوار بئر راكدة مياهه جلست مارلين بجوارها، كانت عيناها تهربان من عيني كارولين، لأول مرة لا تستطيع أن تجارها نظرات التحدي وهي تقول لها:

- افقدتك كثيراً يا كارولين.

- أفضل اسمي تريزا، فقد نسيت كارولين وحياتها، نسيت تلك الدمية التي كانت محل عبتكم ولعبك أنت وإدوارد.

- لم يربح أحدٌ منا سواك يا كارولين.

- مازال الحقد والغيرة يملآن قلبك يا مارلين، تحسدين الناس على ما ليس لك، رغم ما حققت؟!!

- حققت الكثير نعم ولكن خسرت نفسي وبيتي، وقبل ذلك كله خسرت أختي، ويشهد الله أنني ما سعت إلى ذلك.

ساد الصمت بينهما بضع لحظات قبل أن تسألها كارولين عن حياتها:

- وكيف حالك في مصر؟ هل أنت سعيدة مع إدوارد؟

- لم أعد أشاهد إدوارد إلا قليلاً، انفصلنا بعد أيام من ذهابنا إلى القاهرة كل في طريق، وإن كان يجمعنا بعض الأوقات أماكن تصوير تلتقي بها عيوننا قبل أن تفر هاربة.

- ولم هذا؟

- أمر يطول شرحه، وليس القلب قادر أن يحكي دناسة ما يحدث وسط هذا المكان الطاهر.

- إن كنت لا تشعر بالسعادة يا مارلين يمكنك العودة، وكفى ما حدث، ستجدين الكل في انتظارك.

- ليس بعد يا أختي العزيزة؛ تعلمين كل يوم يمر عليّ في القاهرة أتذكر عم يونس وإسماعيل، أتذكر خوفه من ذهابه إليها، كان محققاً ذلك الرجل العجوز، القاهرة بحر واسع عميق، تجذب من يقترب منه، يلقيه الموج في غيابه فلا يقدر على العودة، فإما أن يستكمل حياته عواماً أو يرحمه القدر ويغرق.

- لا يغرق إلا من استسلم يا أختي، قاومي نفسك وحاولي.

- لا يمكن، كل يوم يزداد الأمر سوءاً، لم أكن أتخيل أن الأمور تدار بهذا الشكل، لم أكن أتخيل أن خلف تلك الوسوش الضاحكة التي تظهر على إعلانات الأفلام كمية البؤس والكذب والخداع هذه. في القاهرة لا تأخذين شيئاً إلا قبل أن تدفعي مقابلاً له، كل نجمة كبيرة ترين صورها على أغلفة المجالات والجراند مبتسمة تلك الابتسامة العريضة في سعادة، قد قدمت من التنازلات ما لا يتخيله عقلك الطاهر حتى تصل إلى تلك المكانة. ومن يقدم التنازلات أكثر يكون ألمع، تنازلات في الأخلاق والمبادئ والحياء، حتى في الشرف يا أختي.

لم تدرِ كارولين بماذا تجيبها، لاذت بالصمت بينما تسألها ببعض المرارة:

- وإدوارد؟

- حتى إدوارد بعد أن تخليت عنه، بعدما كان يأمل أن يتخذني سلماً يصعد عليه إلى ما يريد. لم يبأس، تزوج من راقصة في أحد الملاهي الليلية الشعبية، راقصة يطلق عليها درجة ثالثة، ولكنه مصرٌّ على حلمه، ما زال يواظب على حضور تصوير الأفلام، سواء عنده عمل أم لا، لعله يحظى بعطف مخرج يعطي له دور كومبارس في أي فيلم، ولكن رغم ذلك أظن أنه سيصل إلى ما يريد.

- هل مررتِ على دير ياسين قبل أن تأتي؟

- لا؛ ولا أريد أن أشاهد أحدًا منهم، التقاني إسماعيل فقط أثناء ذهابي إلى البيت فعلمت منه خبر وجودك بالدير فأدرت قبلي إليك، لا أريد أن أرى أحدًا، جئت إليك، لا أعلم لماذا، ولكن في الحقيقة اشتقت إليك، أو ربما اشتقت إلى نظرة في عينيك، اشتقت أن أرى نظرة السعادة في قلبك الطاهر الناجي الوحيد مما دنسنا نحن.

كان الصمت يجيب عن كثير من الأسئلة التي تشقي القلوب، حتى انتهى اللقاء بعد أن غلب الصمت عليه تمامًا، استأذنت مارلين منها، وعدتها بالعودة مرة أخرى بينما وقفت الأخت تريزا تتأمل أختها وهي تغادر المكان، كل يوم تشعر أنها اتخذت القرار الصائب، القدر يرسل لها الرسائل كلما شعرت بالملل بما تقوم به داخل الدير وحياته الرتيبة، عادت إليها الحياة مرة أخرى، توجهت إلى حيث التلاميذ ينتظرونها، ولكنها بنشاط جديد، وهمة جديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



1948

الفصل التاسع

(1)

دير ياسين (דִּיר יַאסִין)

5 أبريل - نيسان 1948

عاد ديفيد ألكسندر مرة أخرى إلى فلسطين، ولكن هذه المرة بثياب مدنية بعد أن خلع بدلته العسكرية عقب وضع الحرب العالمية الثانية أوزارها، تولى منصباً بارزاً في حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين.

استقبلته جانيت بالترحاب، عادت إليها الحياة بمجيئه، أقسمت أن تنتقم من كل من أساء إليها في غيابه، كان بالنسبة لها الهواء الذي يعطي رنتيها الحياة، فبدأت أنفاسها تعلق في راحة وهدوء، بينما تجهم وجه إبراهيم الصباغ لرؤيته، يعلم ما سيجني من متاعب من عودته بعد أن يعود التسلط مرة أخرى لجانيت، ذلك طبعها.

كانت الدعوة التي تلقاها سليم أبو زيد في ظاهرها عشاء ترحيب بعودة ديفيد الكسندر، وإن كان يعلم أن جانيت وإبراهيم لا يدعوانه إلى مثل هذه الولائم إلا لسبب، ظن في البداية أنه سيتعلق بأمر الشركة خصوصاً بعد عودة ديفيد ألكسندر، ولكن الغريب في الأمر أن الحديث لم يتطرق إلى أمور الشركة إطلاقاً، كان الحديث كله عن تزايد الخطر الصهيوني في فلسطين، بدأ ديفيد متحفظاً في كثير من آرائه، لا ينطق إلا بالقليل بينما ترك العنان لجانيت التي كانت من الواضح أنها على تنسيق مسبق معه:

- يجب أن يعلم العرب أن القدس ليست حكرًا لهم، القدس ملك لجميع الأديان، ومن حق الجميع أن يمارس طقوسه فيها، ولا يمنع أحدٌ منها.

حينها تحدث ديفيد ألكسندر لأول مرة في الأمر بصورة مباشرة مؤكداً كلام جانيت:
- معك كل الحق يا عزيزتي، كما على العرب أن يعلموا أن هناك قراراً أمميّاً صادرًا بشأن فلسطين، وعلى الجميع احترامه، لا يمكن منع اليهود من العودة إلى وطنهم.

على الرغم مما سببته كلمة (وطنهم) من غضب في نفوس إبراهيم الصباغ وسليم أبو زيد إلا أنهما أثرا السلامة وعدم التعرض لكلام ديفيد الذي أكمل كلامه بعد أن ارتشف رشفةً من كأس الويسكي الذي كان أمامه:

- علينا أن نتعلم التعايش السلمي على هذه الأرض، وعلى الجميع أن يقبل بالأمر الواقع، ويجب أن تكون دير ياسين هي بداية لذلك الواقع الجديد.

لم يستطع سليم أبو زيد أن يمنع نفسه تلك المرة، تحدّث وقد بدا غاضباً:

- أي واقع تتحدث عنه يا سيد ديفيد مع تلك العصابات المسلحة التي أتت من كل صوبٍ وحَدَبٍ، تغتصب أرضنا. لقد عشنا على هذه الأرض طيلة قرون مسلمين ومسيحيون ويهود، لم نفرّق بين أحدٍ، إلى أن أتت تلك العصابات الصهيونية تنزع

السلام منها، وتزرع الحقد في نفوس الناس وتفرق بينهم، هل تريد منا أن نقبل تقسيم فلسطين وإعطاء أرضنا لليهود؟

- رضيعنا أم لم نرض، هو أمرٌ واقعٌ، وقرار صادر من الأمم المتحدة، علينا الآن فقط هو تدارك الموقف والتعامل معه والخروج بأقل خسائر.

- كيف لا أفهم؟

- دير ياسين تُعتبر في بؤرة الأحداث، يحوطها الكثير من المستوطنات اليهودية في القدس، إذا اشتعل القتال بين اليهود والفدائيين العرب، فستحرق ناره الأخضر واليابس. علينا أن نتصرف بحكمة، وبعقل حتى نستطيع أن نوقف هذه الحرب، على الأقل هنا في دير ياسين، أنا يمكنني التوسط بينكم وبين رؤساء المستوطنات المجاورة من أجل توقيع هدنة بينكم وبينهم، وبذلك نأمن مكرهم ونقطع الطريق على الفدائيين العرب من اتخاذ دير ياسين معسكراً لهم ينطلقون منه لهجماتهم ضد اليهود، وحينها لن نستطيع أحدٌ أن يلوم على اليهود أو الهاجاناه إذا هاجمت القرية. هنا تحدثت جانيت، بدا صوتها أرق، رسمت علامات الحكمة وهي تخاطب سليم أبو زيد تقول له:

- يا سيد سليم إن تلك المعاهدة هي الضمان الوحيد لأمولنا، إن تركنا هؤلاء الإرهابيين العرب يقاتلون اليهود لن تسلم دير ياسين من من نيران الاتنين، سينقلب الأمر في النهاية علينا، ما إن يفرغ الفدائيون من اليهود حتى ينقلبوا علينا، الغل والحقد في قلوبهم من الأغنياء سيعمي قلوبهم ويبطشون بكل كبير وصغير، يجب أن نقف أمام هؤلاء الهمج وصد هجماتهم ورعونتهم التي تقود المنطقة كلها إلى الدمار. وإذا انتصر اليهود لن يلوم عليهم أحدٌ إذا انتقموا من القرية وأهلها. هذا دورنا أن ننقذ القرية وأهلها من ذلك الجحيم.

كان إبراهيم الصباغ يلوذ بالصمت، يعلم في النهاية أن ما يريده ديفيد وتدعمه جانيت فيه بدون تفكير منها هو ما سيصير، لذلك أجاب على سؤال رآه في عين سليم أبو زيد:

- ليس أمامنا حلٌ آخر يا سيد سليم، كما قال صديقنا السيد ديفيد علينا أن نقبل بالأمر الواقع، الوجود الصهيوني في فلسطين أصبح أمراً واقعاً علينا فقط الآن محاولة تدبّر أفضل الحلول للتقليل من خسائره، وتقادي تداعياته.

رغم حالة الجفاء التي كانت بينهما منذ عودة ديفيد إلى القدس إلا أن جانيت هذه المرة أثنت بكثير من المدح على حكمة إبراهيم الصباغ، بعد ذلك الرأي، موجهة حديثها إلى سليم أبو زيد:

- ونعم الرأي هو رأي السيد إبراهيم، نحن كبراء البلد، ولا يمكن أن نجعل مصائرنا في يد حفنة من الشباب التي تقودهم أطماعهم وحقدهم في تحديد مصيرنا.

ثم التفتت تنثني على ديفيد حتى لا يوغر قلبه من إشارات بابراهيم أمامه وهي توجه إليه ابتسامة:

- صديقنا العزيز السيد ديفيد دائماً يحمل لنا الخير ، ولم يتوسط إلا بما فيه المنفعة لنا جميعاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(2)

زاد تعب الحمل على إيلان، جاءها المخاض في غرفة شوشانة بالمعبد اليهودي، التي أنت لها بـ (داية) جلست بجوارها حتى ولدت، كان صراخها الذي يسمعه الجميع يمزق قلب شوشانة وهي تشاهد ابنها يخرج من رحمها يحمل دماء أبيه المسلمة.

تعالت صرخات الصبي الصغير بينما شوشانه ترمقه بنظرات الغضب، تلك النظرات التي خشيت منها إيلان على صبيها أن تفعل به جدتها ما يؤذيه، ضمته إليها وهي تنظر إليها برجاء أن ترحمهما من تلك النظرات.

كانت تفكر في ياسين في ذلك الوقت، تمنت أن يكون بجوارها في تلك اللحظة، أن يكون أول من يلتقط منها نجلهما، بدل نظرات شوشانة تلك التي كانت تدخل الرعب إلى قلبها.

هدأ صراخ الطفل بينما غفلت هنية تحاول أن ترتاح من آلام الوضع حتى شاهدته يخترق عليها غرفتها، قامت له شوشانة ترحب به، بينما لم يلتفت إليها، توجه نحو إيلان مباشرة وعينه على الصغير بجوارها وهو يقول:
- صبي جميل يشبه أمه، جيد أنه لن يأخذ من أبيه شيئاً.

لا تدري إيلان ماذا تجيب عليه، تأملت ملامح وجهه الخالية من أي تعابير هي تقول له:

- بن تيسون، إنه ولدي ولن أسمح لك بأذيته.

ضحك بن تيسون بينما يدها تلتقطان الصغير يرفعه إليه وهو يقول لها:

- إن كنت أنوي أذيته ما كنت تركته يرى نور الدنيا من البداية يا إيلان، رغم ما فعلته، إلا أنني صفحت عنك، لا تظني أن قيادات الكيبوتس التي توسط لديهم الحاخام لتحريك مني هي التي منعني عنك، تركتك تفعلين كل ما تريدين حتى يأتي ذلك الولد، هو ولدنا في النهاية، أمه يهودية، ونحتاج كل يهودي في دولتنا الجديدة.

- لا شأن لابني بتلك الأمور، ولن أتركه لكم يا بن تيسون، لن ينشأ ابني على الكره الذي تزرعونه في قلوب الناس.

- ليس الأمر يخصك، إنني سمحت لذلك الحمل أن يكتمل حتى أحصل على ما أريد. سيأتي ياسين إلى هنا راکعاً من أجل أن يشاهد ابنه، عليك أن تساعدنا في ذلك، نحتاج إلى أمثال ياسين، من تقودهم شهواتهم إلى مراتع اليهوديات كي يقضوا وترهم منهن، حتى نستغل ذلك ليتعاونوا معنا، يمكن أن أقبل أن يعيش ياسين معنا في دولتنا الجديدة بجوارك أنت وابنك، مقابل أن يسلمنا ياسين قيادات المقاومة في القدس قبل أن يظفر حتى بروية ابنه. هناك الكثير من رجال المقاومة المتخفيين بين الأهالي لا نعلم عنهم شيئاً، نحتاج إلى من يرشدنا إليهم.

صمت بن تيسون برهة قبل أن يعيد الولد إلى إيلان وهو يقول لها:

- إن أفنعت ياسين بالتعاون معنا مقابل احتضان الطفل سأجعله يعيش بيننا في سلام،
أما إن ادعى الوطنية ورفض التعامل معنا فقسماً بإسرائيل لن يشاهد ابنه مرة
أخرى، ولا أنت يا إيلان.

أنهى بن تيسون حديثه وهم يغادر المكان، احتضنت إيلان نجلها وهي لا تعلم ماذا
عليها أن تفعل، تحاملت على نفسها رغم آلامها، حملت صغيرها على كتفها وهي
تغادر الغرفة بينما تنادي عليها شوشانة التي لم تعبأ بندائها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(3)

ساد في القرية بعد ذلك الصلح الموقع مع زعماء المستوطنات المجاورة لدير ياسين حالة من الغضب، خصوصًا بين شبابها الذين أعلن أكثرهم رفضهم هذا الصلح خصوصًا بعد العمليات العسكرية التي كان يشنها الفدائيون بقيادة (عبد القادر الحسيني) في ضواحي القدس، والتي أرهقت الكثير من العصابات الصهيونية وصلت إلى قطع طريق (القدس - تل أبيب) وهي العمليات التي بدأت تؤتي ثمارها، كان كثير من الشباب في القرية يريدون استثمار تلك العمليات بالضغط على العصابات اليهودية أكثر، فجاءت تلك المعاهدة بمثابة تأمين لظهر اليهود من جهتهم.

أكثر الغاضبين من تلك المعاهدة هو إسماعيل، الذي كان يرى الصلح بمثابة خيانة لقضيتهم، على الرغم من أن إسماعيل لم يشارك في أي من العمليات الفدائية ضد اليهود - وذلك بعد مرض والده والذي ألزمه البقاء معه - إلا أن الجميع كان يعلم مدى تأثير إسماعيل في نفوس كثير من شباب القرية خصوصًا ياسين الذي بدأ يكوّن معه جلسات عمل تجمع حولهم الكثير من شباب القرية التي أصبح بها تيار قوي من الشباب الراغب في الدفاع المسلح ضد العصابات الصهيونية.

وصلت أخبار حصار عبد القادر الحسيني قرية (القسطيل) القريبة من القدس إلى القرية، رغم تخلي جامعة الدول العربية عنه إلا أن الجميع كان يتابع موقفه بشغف على أن ينهي عبد القادر الحسيني ذلك الكابوس ويقضي على الصهاينة.

كان إسماعيل يجلس بجوار ياسين وعم يونس بصحبة الدرويش الذي لازم تعريشة العنب في الفترة الأخيرة يستمع إلى الأخبار باهتمام من جهاز الراديو الذي ما عاد يبيت إلا أخبار الحرب بين العرب واليهود، قبل أن يشاهدوا باسل ابن سليم أبو زيد يتوجه إليهم وقد بدت عليه علامات الاستعجال، وهو يلقي عليهم السلام، قبل أن يستوقفه عم يونس يسأله:

- ما الأخبار يا باسل؟

- ليست على ما يرام يا عم يونس، تخلت جامعة الدول العربية عن القائد عبد القادر الحسيني ورفضت تزويده بالسلاح ورفضت اشتراك القوات العربية في المعركة معه، بدعوى عدم رغبتها في الاحتكاك مع قوات الانتداب البريطاني في المنطقة، لقد تخلى عنا العرب يا عم يونس. ولكن القائد عبد القادر الحسيني قرر استكمال القتال، توجه إلى القسطيل وحاصرها بعد احتلال الصهاينة لها، تدور هنا معارك طاحنة، كثير من الفدائيين ذاهبين الآن للانضمام له.

- الله يبارك فيكم يا أولاد، ربنا ينصركم.

التقط إسماعيل طرف الحديث:

- الحرب دارت رحاها في كل مكان في فلسطين ويجب أن نستعد لها جيدًا، لا نأمن مكر اليهود حتى بعد توقيع ذلك الصلح المخزي مع كبارات البلد، إذا وجد اليهود

الفرصة لن يوقفهم ذلك الصلح الوهمي عن الفك بالقرية وأهلها.
أيده باسل وهو يقول له:

- معك كل الحق يا إسماعيل، تلك العصابات لن يوقفها إلا القتال، لو علمت أن
القرية مسالمة سوف تنتهك حرمتها، علينا أن نستعد بالسلاح.

شاركهم ياسين الحوار وهو يقول:

- نستطيع أن نجمع التبرعات من أهل القرية وشراء سلاح للدفاع عنها، يجب أن
نمتلك سلاحًا ندافع به عن أنفسنا.

جذب باسل كرسي يجلس بجوارهم بعد أن راق له الحديث وطابت له الفكرة وهو
يقول:

- إن استطعنا توفير المال أستطيع أن أدبر السلاح، يمكن شراؤه من مصر وتهريبه
إلى هنا. أعرف الطريقة جيدًا، شاركت كثيرًا في عمليات تهريب أسلحة إلى القائد
عبد القادر الحسيني وكلها نجحت، سيتم نقل السلاح بالسفن من ميناء بورسعيد إلى
حيفا ومن هناك إلى هنا عن طريق البر.

كان عم يونس يتابع الحوار باهتمام، يعجبه حماس شباب القرية المتجمعين حوله
والراغبين في الدفاع عن القرية ولكن ليس السلاح وحده يكفي فقال لهم:

- ولكن حتى إن وفرنا السلاح، من يوفر من يدرينا عليه؟ القرية مسالمة ولم تحمل
السلاح يومًا حتى في خلافاتها البينية، نحتاج إلى من يدرينا عليه.

ساد الصمت بين الجميع. باسل الوحيد الذي كان يشترك في المقاومة من أبناء القرية
رغم ذلك لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية تدريب شباب القرية على استخدام السلاح،
ثم إنه لا يعلم نوعية السلاح الذي سيأتي من مصر، تلك عمليات غير مضمونة،
كلها أسلحة مسروقة من معسكرات الاحتلال البريطاني لا يعلم كيفية استخدامها
كلها، وكل أصحاب الخبرات العسكرية السابقة والمنضمين للمقاومة مشغولين الآن
مع عبد القادر الحسيني في معاركه؛ فمن يقوم بعملية التدريب، تسأل إسماعيل:

- ألا يوجد من يدرينا على السلاح يا باسل؟

- يوجد الكثير من الضباط المصريين الذين يعملون مع المقاومة ويتولون تدريبهم،
ولكن أمر استقدام أحد منهم إلى هنا أمرٌ صعب خصوصًا وأن القرية ليست في بؤرة
المواقع الحيوية التي تشهد صدام مع اليهود، ولا يمكن خروج شبابها إلى الخارج
للتدريب هذا يلفت إلينا أنظارهم ويضعنا تحت مرمى نيرانهم.

ساد الصمت بين الجميع، ظلت المعضلة تشغل بالهم، كل يبحث عن حل حتى تقدّم
منهم الدرويش والذي كان يتابع الحوار وقد اتخذ القرار بعد تفكير، كان يعلم أنه
ليس هناك حل آخر، فبينما الصمت مطبق على الجميع تحدث الدرويش بصوت
خافت:

- أنا من سيتولى عملية تدريب شباب القرية، أتوا فقط بالسلاح وأنا أدربهم عليه أيًا
كان نوعه.

ظهرت علامات التعجب على وجه الجميع تبعثها ابتسامات سخرية بينهم من كلام الدرويش، ذلك المجدوب الذي شردَ ذهنه وظنَّ أنه يستطيع أن يستخدم (أسلحة آلية حديثة) كما يستخدم سيفة الخشب المكسور هذا، وقفَ يتأمل تلك الابتسامات الساخرة منه بينما قال له إسماعيل هازناً:

- أنت يا رجل يا بركة؟! لا تشغل بالك بنا فقط عندما تبدأ المعركة اختباء خلف الحائط وادعُ لنا الله أن ينصرنا، دعواتك مستجابة أيُّها الدرويش الطيب، أما حمل السلاح فاتركه لنا.

أدار ظهره إليهم جميعاً، لم يغضبه كلام إسماعيل، عاشَ حياته بينهم دوريشاً مجذوباً يهذي، بينما يخفي حقيقته، ولكن الآن ليس مفر من أظاهاها، تلك الرسالة التي كرس حياته كلها في القيام بها، الدفاع عن القدس، فبينما نظرات الجميع متوجه إليه بعد ذلك الحديث خاطب إسماعيل بكل هدوء قائلاً:

- لا تسخر مني يا ولدي، أنت لا تعلم مع من تتحدث.

صمت برهة ثم أكمل بعد أن استحوذ على اهتمام الجميع:

- أنا العريف حسن الإغدرلي، رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة، الكتيبة الثامنة الطابور السادس والثلاثين من الفرقة العشرين في الجيش العثماني.

أعاد تعريف نفسه مرة أخرى بصوت أقوى من ذي قبل، وكأنه يريد إثبات وجوده، تقدّم منه إسماعيل يضع يده على كتفه وهو يقول له:

- ماذا؟ أنت عثماني!

- نعم.

- وماذا تفعل هنا؟

- لقد هاجم الإنجليز كتيبتنا في الحرب العالمية الأولى من جهة القناة حيث كان الجيش العثماني العظيم يحارب في عدة جبهات، رغم قلة المعدات الحربية وإمكاناته الضيقة، فغلب جيشنا في القناة واضطر إلى الانسحاب، فقد كانت بلاد أجدادنا الأمجاد تسقط واحدة تلو الأخرى، وعندما احتل الإنجليز القدس في عام 1917، بقيت وحدتنا في القدس كقوة «حرس مؤخرة الانسحاب»، التي تركها العثمانيون لحماية هذه البلدة المباركة من السلب والنهب.

ساد الصمت على وجوه الجميع بينما استكمل العريف حسن كلامه قائلاً:

- بقينا في القدس وكنا 53 شخصاً كحرس مؤخرة، وفي أثناء ذلك وصلنا خبرٌ تسريح جيش الدولة العثمانية باتفاقية موندروس. فبقيت وحدتنا كلها في القدس، لأننا لم نرضَ أن يقال إن الدولة العثمانية تخلت عن القدس، أردنا ألا يبكي المسجد الأقصى بعد أربعة قرون، وألا يتألم نبينا الكريم.

كانت المفاجآت أكبر من أن يتصورها عقلٌ، ذلك الدرويش المجدوب الذي كان يهيم في القرية على وجهه بينما الجميع ينصت إليه باهتمام أكمل كلامه:

- ثم تعاقبت السنوات الطويلة ومضت كلمح البصر، ورفاقي كلهم انتقلوا إلى رحمة الله تعالى واحدًا واحدًا، لم يستطع الأعداء أن يقضوا علينا، وإنما القدر والموت، وها أنا ذا العريف حسن لا زلت على وظيفتي حارسًا على القدس الشريف، حارسًا على المسجد الأقصى، ما زال جندي من جنود الدولة العثمانية يقوم بحراسة القدس منتصبًا هناك بوقار ومهابة الدولة العثمانية، في المكان الذي كُفِّ به منذ ذلك اليوم ولن يترك نوبته أبدًا حتى يأتيه الأجل.

تغيرت لهجة حديث إسماعيل معه، بات أكثر أدبًا وتقديرًا لمكانته، قال له بودّ:

- ولكن هل تستطيع التعامل مع تلك الأسلحة الحديثة، والتي لا نعرف نوعها وبالتأكيد أنواع مختلفة؟!!

- مهما كانت يا ولدي لن تحتاج مني الكثير من الجهد، تعاملت مع معظم الأسلحة في الجيش العثماني، وأجيد صيانتها، لن يحتاج الأمر مني كثيرًا كي أتعرف على ما تقنن فيه الإنسان لقتل أخيه الإنسان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(4)

تولى ياسين مع إسماعيل عملية جمع التبرعات من أهالي القرية، معظم التبرعات كانت عبارة عن حُلي ومصوغات تبرعت بها نساء القرية، حتى وداد تبرعت بألة الخياطة تلك التي كانت تمتلكها. تم تجميع الأموال اللازمة وأصبحت القرية في انتظار قدوم السلاح في أي لحظة.

حالة الغضب الشعبي المتزايد مع هجمات الهاجاناه في كل مكان في فلسطين دعت بعض قيادات المقاومة بالثأر ممن وقع تلك الاتفاقية التي حرمت شباب القرية من الالتحاق بالمقاومة في القدس، ففي فجر ذلك اليوم قام مجموعة من الفدائيين بقطع رؤوس الماشية الخاصة بسليم أبو زيد عقاباً له على توقيع تلك الاتفاقية.

بعد أن علم بالخبر، توجه سليم أبو زيد إلى دار إبراهيم الصباغ مباشرة، اقتحم عليه المضيفة والغضب باد على وجهه، كان برفقة جانبيت التي هالها هي الأخرى منظر سليم وهو يقول لهم:

- أنا من دفعت الثمن يا إبراهيم بمفردي، تلك كانت مشورتك أنت وزوجتك وأنا من تحمل المسؤولية وحدي.

- ماذا حدث يا سليم؟ اهدأ حتى نفهم ماذا حدث يا رجل.

- لقد قطع الفدائيون العرب رؤوس الماشية عند مدخل القرية اعتراضاً على تلك المعاهدة وعدم اشتراك رجال القرية في المقاومة ضد اليهود.

لم يستطع إبراهيم أن يرد على سليم، مهما ساق إليه من كلمات مواساة لن تشفي غليله، يعلم مدى أهمية الماشية وتربيتها لدى سليم، هي تجارته الرئيسية التي يجني منها ثروته، بينما جانبيت لا تعلم كيف يهديها القدر كل تلك الهدايا، فانتظرت حتى فرغ سليم أبو زيد من حديثه حتى طلبت إبراهيم أن يذهب مع سليم إلى مقر قيادة قوات الانتداب البريطاني:

- يجب أن يعلم صديقنا ديفيد بما حدث الآن، يجب أن يوفر حماية بريطانية للقرية من هجمات تلك العصابات التي تدعي المقاومة والتي ظهرت أهدافها الحقيقة الآن.

لم يكن هذا هدفها، كانت تصبو فقط أن تختلي بسليم أبو زيد، تريد أن تتحدث معه دون أن يحضر إبراهيم الحوار، تلك الفرصة التي وانتهت لتنتقم من كل من اقترب منها في غياب ديفيد، حتى إبراهيم نفسه سيأتي دوره، ولكنها عليها الآن النيْل من حالة الود تلك التي بين ياسين وإسماعيل اللذين يقودان شباب القرية إلى العصيان على أمر كبارها:

- كان عليك أن لا تأمن إلى هؤلاء الشباب من القرية، يظنون أنفسهم مناضلين وما هم إلا حفنة من اللصوص، يجب أن نفتص منهم جميعهم خصوصاً ياسين وإسماعيل، هم من يقودون الشباب لعصيان كبار البلد.

- والله لو ثبت لي تورط أيّ منهم في الأمر لن أرحمه.

- أنا على يقين من أن إسماعيل متورط في الأمر لا تأمنه يا سليم، يحاول منذ زمن التودد إلى ياسين من أجل عايدة.

- عايدة زوجة ابني؟

- وهل يوجد غيرها؟!!

اقترب جانيت من سليم أكثر وبدأت تتحدث معه بصوتٍ منخفضٍ بينما تتألفت بين الحين والآخر نحو باب المضيفة خشية عودة إبراهيم:

- لم أشأ أن أتحدث في الأمر من قَبَل بسبب دفاع إبراهيم المُستَميت عن وِداد وأولادها، حتى فاض الكيل، لا تأمنه يا سليم لقد شاهدتهم بنفسي عائدين في ظلام الليل من خارج القرية، إسماعيل سيئ السمعة وكثير من شاهده مع فتيات من خارج القرية، حتى تجرأ واستحل بناتنا. يجب أن يلقي جزاء ما فعل.

كانت تلك الفترة التي غاب فيها إبراهيم كافية لنفث جانيت سمومها في أذن سليم وإدخال الشك في قلبه، لا تريد أكثر من ذلك، حتى إبراهيم الذي اصطحب سليم إلى ديفيد في القدس قد لاحظ تغير لهجة سليم معه وظنها أنها ما زالت بسبب فقدان رؤوس ماشيته.

لم يسفر لقاء ديفيد عن شيء، ظهرت عليه علامات أسي مصطنع مشاركاً فيها سليم في مأساته مستغلاً ذلك الموقف في النيل من الفدائين العرب مؤكداً أنهم باتوا خطراً عليهم أكثر من العصابات الصهيونية نفسها، خطر يجب القضاء عليه في أقرب فرصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(5)

تابعت إحسان تغير حالة ولدها منذ أن علم بخبر حمل عايدة، لم تبدوا عليه علامات الفرح لذلك الحمل الذي تأخر لمدة سنة، لم يهدأ فيها بال لإحسان حتى علمت بخبر حمل زوجة ابنها، تلك الفرحة التي لم يشارك فيها حيدر أمه. جلس في ذلك اليوم بجوارها يحاول أن يوضح لها الأمر، ارتمى في حضنها كعادته بها دائماً بينما يشعر بالخوف مما يقول وهي تحتضنه لا تفهم سبب تلك الحيرة التي في عينيه:

- ما بك يا ولدي لم تقرح بخبر حمل زوجتك، ذلك الخبر الذي انتظرت به بفارغ الصبر منذ زواجك كي يملأ البيت أولادك.

رفع حيدر عينه في عين أمه وهو لا يجد مفرّاً من الاعتراف، كان يشعر كل تلك الفترة بالخزي ولا يستطيع التكلم خوفاً من رد فعل أبيه وأخواته، ومن ذلك العار الذي سيطرده طيلة حياته، حتى عندما أرغمه والده على الذهاب لعائدة بعد خبر حملها لم يستطع أن ينطق ببنت شفة رغم نيران الغضب التي كانت مشتعلة في قلبه حتى ضاق صدره بما يخفيه وفاض به الكيل وهو يتحدث مع أمه:

- أمي.. هذا الولد ليس ولدي؟

ضربت إحسان صدرها بكفها وهو تصرخ فيه:

- ماذا تقول؟! ليس ولدك كيف؟!!

- هذه الحقيقة، أنا لم.....

ساد الصمت للحظات وقفت تتأمل ملامح وجه ابنها وهي تتمنى أن لا ينطق بما تخشاه، دفعته بقوة وهي تقول له بعد أن جذعت من صمته:

- لم ماذا؟! لم تعاشرها معاشررة الأزواج؟

- نعم يا أمي، حاولت كثيراً دون فائدة، كنت أخفي الأمر عن الجميع ولا أعلم كيف أقوله لأحد، أعاني من مشكلة بمجرد الاقتراب منها.

- إذاً أين من هذا؟

- لا أعلم ولا أستطيع أن أبوح بسرّي لأحد، سينفضح أمرّي وأصبح أضحوكة أخواتي.

علا نواح إحسان، لا تعلم ماذا عليها أن تفعل الآن، كان هذا في قدوم سليم أبو زيد إلى البيت لتوه من عند ديفيد، لم يدرك حيدر إلا بنفسه يتوقع داخل أمه، يخشى نظرات والده إليه، ظهرت علامات الغضب على وجهه بمجرد أن سمع نواح إحسان، لا يعلم ما في الأمر، ذلك النواح الذي أيقظ كل من في البيت.

اقترب منها وهو على يقين من أن حيدر فعل مصيبة تحاول أن تداريها:

- ماذا فعل ابنك مرة أخرى يا إحسان؟

لم تدرِ إحسان بماذا تجيب، علا نواحها وفقدت القدرة على كبح جماح نفسها وهي تلمظ خديها بكلتا يديها لطمات كادت أن تدميه بينما تملك الغضب من سليم أبو زيد الذي لم يكن يعلم حتى الآن سبب ذلك النواح.

همَّ يلطمها على وجهها حتى تهدأ ويعلم منها ما حدث، اجتمع كلُّ مَنْ في البيت لا يعلمون ما الأمر قبل أن تجيب عليه، كانت كلماتها كافية وقليلة، قصت عليه ما حكى لها ابنها منذ قليل.

ترك سليم أبو زيد جسده للارتطام بالكرسي المجاور له، لم تلاحظ إحسان أن أسامة كان يقف خلفها، أفاقت على ذلك هو يقول:

- الفاجرة والله لأقتلنها بيدي.

ارتفع نواحها بينما تضاعل حيدر بداخلها أكثر، وقف سليم أبو زيد يمسك بيد ولده أسامة الذي كان يهم يصعد درجات السلم حيث غرفة عايده وهو يقطع عليه الطريق قائلاً:

- أصبر يا ولدي لا تفضحنا، لم نتأكد من الأمر؟

ثم التفت إلى حيدر يقول له:

- هل أنت متأكد مما تقول يا ولد؟

كان صوته يكاد لا يسمع، ولكنه علم منه سليم، كما علم كل من في البيت أنها الحقيقة، وتأكيداً لكلام إحسان منذ قليل، سرح سليم أبو زيد بعض الشيء هو يخاطب نفسه.

- إذا كلام جانيت كان حقيقياً؟ لقد كانت سيرتنا على كل لسان في القرية ونحن لا نعلم.

قاطعته أسامة:

- وماذا قالت جانيت؟

- حذرتني من إسماعيل، شاهدت عايده معه أكثر من مرة في أماكن متفرقة خارج القرية حذرتني بابتسامة خبيثة تخفي ما يخبئ قلبها؛ تلك الابتسامة الذي غلبت خوفي منها حينها، تلك الابتسامة التي تخبرني أن إسماعيل على علاقة مع عايده.

جذب أسامة معصمة من يد والده الذي كان ما زال مطبقاً عليها وهو يقول له:

- ليس هذا وقت الكلام يا والدي، إنه شرفنا وعارنا، نغسله أولاً ثم ننظر أمر جانيت والقرية؟

تحرك هذه المرة أسامة نحو المطبخ، أتى بسكين يشهره في وجه حيدر الذي كانت أنفاسه متسارعة وهو يقول له:

- كن رجلاً ولو مرة واحدة في حياتك واغسل عارك بيدك.

وقفت إحسان بينهم، جذبت حيدر من قميصه تمنعه أن يمسك بالسكين، بينما اليد الأخرى تضرب أسامة في صدره تبعده عنه وهي تقول له:

- تريده أن يقتلها حتى يُعَدَم، ويضيع ولدي.
- يضيع ولدك خيرٌ من أن يضيع شرفنا كلنا بسبب هذا (التيس) الذي أنجبته لنا.
- اخرس يا ولد.

وقبل أن تهم تلطمه على وجهه كانت يده تعارض يدها، دفعها بقوة ارتطمت بجسدها على الأريكة بينما يتأمل سليم أبو زيد المشهد كله ولا يقوى لا فعل أي شيء حينما توجه أسامة نحو غرفة عابدة ممسكاً بتلك السكين حالفاً أن يغسل عار العائلة كلها بيده، بينما يحاول الجميع إلحاقه لمنعه من ارتكاب تلك الجريمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(6)

تحاملت إيلان على نفسها، يجب أن تجد ياسين الآن، يجب أن يفرا بالولد من البلد كلها، كانت تعلم جيداً ما يمكن أن يفعله بن تيسون بها وبياسين، وماذا يمكن أن يفعل حتى بذلك الصغير الذي تحمله على ذراعها، لا يعي من مكر الدنيا شيئاً.

تجنبت الذهاب إلى و داد، تمنى أن يكون بالجبل حيث الكسارات، قادتها قدماها إلى هناك حتى وجدت ضالتها.

ما إن شاهدها ياسين قادمة إليه، وعلامات التعب والمرض تضني وجهها الجميل الذي كان يشرق نوره في قلبه منذ أن يراها حتى تهللت أساريره. حتى شاهد ذلك الذي تحمله على يديها، هو ابنه بلا شك، وضعت إيلان، كان ينتظر أمر إنجابها في أي لحظة، اقترب منها، احتضنها بينما تمد إليه الصغير، نزلت دمعة من عينيه لم يستطع أن يكبتها، ضم الصغير إليه وقبّل جبينه، رفع عينيه إلى إيلان يقول لها:
- ابني، قاسم.

ابتسمت إيلان على مضمض، ابتسامة تحمل آلام الولادة وشقاء ما ينتظرها بعدها وهي تقول له:

- ابنا يا ياسين، ثمرة الحب التي وعدتك بها.

رفع ياسين الصغير إليه، كانت ملامحه الهادئة تدخل الراحة إلى قلبه، يعلم أن قلب و داد سيحنّ إليه منذ أن تراه، لن تتركه يبتعد عنها يوماً ما، كل ما قيل هو غضب في لحظة وستمرّ، سيعيش مع ابنه في كنفها، ربما تحمل له الأيام أكثر من ذلك، ربما تصاحبهما إيلان في بيتهم.

لم تترك إيلان له الفرصة كي يهنأ بخيالاته:

- حافظ على الولد يا ياسين، اهرب به بعيداً ولا تُعد إلى هنا، لن يقبله المجتمع كما قلت، ربّه على الحب، اجعله أفضل منّا جميعاً، ولكن عاهدني أن لا تتطرق بكلمة سوء عني أمامه، لا تقل عني إلا كل خير، أخبره أن أمه كانت تحب أباه جداً، تحملت الكثير حتى تحافظ على الحب ذلك، حتى تربطه برباط مقدس لا تقوى الأيام على النيل منه.

كان عقل ياسين لا يستوعب ما يدور حوله، تقدم منها بينما نظره يتفقد وجه الصغير.

- وأنت يا إيلان؟

- لا يهم، أنا سأواجه مصيري معهم. أعلم كيف أحمي نفسي منهم، أما أنت وقاسم فلن يرحموكما إن ظفروا بكما.. اهرب به يا ياسين.

- ولم لا تأتي معنا؟ نترك القرية وكل من فيها ونبدأ من جديد.

- هذا سيعقد الأمور أكثر، لن يرحمنا بن تيسون، ولن نستطيع أن نفر منهم طول العمر، سيبحث عنا في كل مكان في العالم حتى يجدنا، حينها لن يرحمنا، لا أخشى

على مصيري ما أخاف عليه هو هذا الصغير. حافظ عليه يا ياسين.
قالتها إيلاّن وهي تعطي ظهرها لياسين، وقف من جديد وحيدًا يحمل ابنه، لا يعلم
ماذا عليه الآن أن يفعل، ولكن ليس أمامه حل آخر، سيتوجه إلى وداّد، علّ قلبها
يرق لرؤيته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(7)

بحث أسامة عن عايدة في الدار كلها لم يكن لها أثر، منذ أن سمعت حديثهم وقررت الفرار بنفسها من باب خلفي دون أن يراها أحد، كانت تعلم أي مصير حالك في انتظارها، هروبها زاد يقين أهل حيدر في جرورها، وإلا لماذا هربت؟! زاد الغضب في قلب الجميع، تحرك أسامة بمصاحبة أخيه إلى دار وداد، لم يعبا بنحيب أم حيدر ولعنها لعائدة، كان كل همهم الآن هو أن يجدها ويقتلها بيده، بعد ذلك يفعل الله أمراً كان مكتوباً.

كانت وداد تجلس أمام باب غرفتها عندما أدهشها قدوم أسامة بصحبة فراس يبحثان عن عايدة، علامات الغضب البادية على ملامحهما ونبرة صوتهما لا تنبئ بخير وإن كانت لا تعلم بسبب مجيئهما:

- أين عايدة يا عمتي؟

ظهرت علامات الدهشة على وجه وداد وبعد أن بات سؤال أسامة عنها يعني تركها المنزل، لم يكن لديها شك أن إحسان قد تجاوزت في حقها مرة أخرى ما زادها حنقاً وهي تخاطب أسامة بلهجة لا تخلو من القسوة:

- ماذا فعلت أمك مرة أخرى ليجعلها تترك لها المنزل وتأتي الآن لكي تسأل عنها يا أسامة؟

- لقد لطخت عايدة شرفنا جميعاً في الوحل يا عمتي، ذلك الجنين الذي تحمل فيه ليس ابن حيدر، لقد اعترف حيدر بكل شيء، لم يفضّ حيدر بكاره عايدة وتركها وما زالت بكرّاً، فمن أين جاءها الحمل؟

كانت الصدمات أكبر من أن يدركها عقلها، لا تستطيع أن تتنطق ببنت شفة، وقفت وقد أصابها الهلع بينما يتقدّم فراس نحو الغرفة قبل أن يعود مرة أخرى إلى أسامة يقول له:

- ليست في الدار يا أسامة.

- بالتأكيد عند عشيقها، هيّا إلى دار إسماعيل.

لم تدر وداد وهي تسمع اسم (إسماعيل) إلا والنواح يملأ فضاء المكان الذي عمّ المكان منذ أن غادره أسامة وفراس، لا يمكن أن يكون ما سمعته حقيقة، ابنتها عايدة التي تربت على يدها، لطخت شرفهم في الوحل؟! وهربت مع إسماعيل! هل يمكن أن ما تحياه الآن حقيقة أم أنه حلم بغيض ستفيق منه، عايدة صغيرتها جاء أهل زوجها بحثاً عنها كي يقتلوا! بعد أن علموا بخيانتها لزوجها وهروبها مع عشيقها؛ إسماعيل؟

لا تعلم ماذا عليها أن تفعل، أرسلت إلى ياسين، يأتي يغسل عاره بيده من صديقه وأخته، زاد نحيبها وهي لا تعلم ماذا تفعل، تبعتهم بسرعة، إن كان الأمر حقيقياً فلن

تتركها لأهل زوجها يزفرون بها، سئقتلها هي بيدها، لن تنتظر أباها، ستغسل
عراها بيدها، من ابنتها فلذة كبدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(8)

حينما شاهد إسماعيل عابدة قادمة من بعيد تهول نحو سارع إليها، كان يشعر بما داخلها دون حتى أن تتطرق به، تقتربت منه ولاذت بذراعه بينما عم يونس ينادي عليه بكل غضب، كانت أنفاسها المتقطعة لا تسمح لهم باستبيان الأمر، اقترب منهم عم يونس على كرسية المتحرك وهو يحاول أن يفهم منها ما حدث، قالت وقد هدأت أنفاسها بعض الشيء:

- يريدون أن يقتلوني يا إسماعيل، لم يفهم ما تحمّلته خلال تلك الفترات من إهانات وعذاب، ليصل بهم الأمر ويتهمني في شرفي، يتهمني أن الولد الذي في رحمي ليس ابن حيدر، وأني كنت على علاقة معك.

كانت الكلمات أكبر من أن يدركها عقل، لم يستطع حينها إسماعيل أن يفكر ولا عم يونس الذي كاد أن يغشى عليه من هول ما سمع، بينما عابدة تكمل حديثها:

- الحية جانبيت، تلك العقربة التي أدخلت في رأسهم أن الولد ابنك؛ بالتأكيد شاهدتنا في تلك الليلة تحت شجرة الزيتون، نفثت سمها في أذن سليم أبو زيد وأولاده من أجل الانتقام منك. سيقتلوننا يا إسماعيل، بالتأكيد هم الآن يبحثون عني في كل مكان، لم أستطع الذهاب إلى البيت، لو علمت أمي الخبر لن ترحمني، ستقتلني بيدها، أنا أعرفها. سيطغى خوفها من تدنيس شرفها على عقلها وعاطفتها.

كانت الكلمات أكبر من استيعابهما، لا يدري ماذا يفعل إسماعيل، ولا عم يونس الذي شلت المفاجأة تفكيره، اقترب منه إسماعيل، لا يمكن أن يتخلى عنها تلك المرة، أمال نحو رأسه على كرسية المتحرك وهو يقول له:

- لن أتخلى عن عابدة هذه المرة يا والدي، لقد خذلتها من قبل عندما كانت طفلة جاءت أمها إلينا تحتمي من غدر الحياة، وخذلتها عندما وقفت أشاهدها وهي تتزوج غضبًا عنها وأنا لا أقوى على فعل شيء، لن أخذلها مرة أخرى يا والدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ساد الصمت بين كليهما. وقف إسماعيل يتأمل نظرات والده، لا يعلم ماذا قراره، لا يعول عليه أن يسانده هذه المرة، كما لم يعول عليه دائمًا، حدق في عينه مرة أخرى وهو يقول له:

- لن أتخلى عن عابدة يا والدي، حتى وإن قتلت في سبيل الدفاع عنها.

حاول إسماعيل أن يستشف من تلك النظرات الغامضة في عينيه ما يدور في خلد، ظن أنه سيقوم من مقعده يصفعه على وجهه.

لم يطل به الانتظار حتى وجده يقف أمامه، منتصب القامة بكامل جسده، شعر إسماعيل بوخزة في قلبه، لم يستوعب ما يجري أمام عينيه، توقف عقله عن التفكير بينما عم يونس يتوجه نحو قارعة الطريق هو يقول:

- لن نتخلى عنها يا ولدي لا تقلق، أنا سأتدبر الأمر، لن يستطيع أحد أن يمسسكما بسوء طالما بقيت على قيد الحياة.

ولكن قبل أن يغادر المكان عاد إليه مرة أخرى، وبينما علامات الدهشة ما زالت متملكة من إسماعيل الذي يشاهد أباه يتحرك بكل نشاط بعد أن كان قعيداً كرسي متحرك من لحظات، اقترب منه عم يونس يهمس في أذنيه بكلمات أبدى إسماعيل انتباهه لها جيداً، قبل أن يكمل حديثه بصوت مرتفع تسمعه عابدة:

- اذهب أنت وافعل ما قلته لك، أما إبراهيم وجانيت فهذا شأننا أنا بهما.

غادر البيت، لا يعلم إسماعيل ماذا حدث، والده الذي كان يجلس منذ لحظات على كرسيه المتحرك فاقداً القدرة على الحركة، يسير أمامه الآن بكل خفة كأن ما كان فيه كان حلم ليل بغيض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت أعين القرية كلها تتأمله في عجب، بعض من لم تخرس المفاجأة لسانه واستوعب الموقف هم يتقدم نحو عم يونس يبارك له شفاؤه ويدعو له بدوام الصحة. لم تكن حالة عم يونس تسمح له برد تلك المجاملات، استمر في سيره نحو بيت إبراهيم الصباغ، كانت لحظة العصاري في دير ياسين يملأها الهدوء بينما صوت عم يونس يصدح في فضاء المكان هو يخترق الفناء الداخلي للبيت صائحاً:

- إبراهيم يا صباغ، أين أنت؟ انزل الآن وتحدث إليّ.

كان صوته يدخل الرعب في قلب الجميع، حتى إبراهيم الصباغ الذي كان يجلس في المضيفة أهاله من ينادي عليه بتلك الجراءة، غادرها متوجهاً إلى ردهة البيت، وجد عم يونس يقف منتصب القامة أمامه، نظرة عينه التي يملأها الغضب ونداؤه عليه قبل قليل بما لم يألّفه منه، لم تجعله يتعجب من امتثاله للشفاء، استجمع شتات أمره وهو يستجمع تلك الكلمات التي نادي بها عم يونس عليه منذ قليل بينما يقول له:

- هل جننت يا رجل، تتحدث معي أنا بها الأسلوب؟

- أعلم جيداً كيف أتحدث، لو لم أعلم ما أتيت لك الآن.

كانت نظراته له كلها تحدّ، نظرات لم يتوقع أن يشاهدها إبراهيم في عين أي شخص في الدنيا خصوصاً من عم يونس ذلك الشخص المسالم دائماً، لم يترك له عم يونس فرصة للدهشة فأكمل حديثه:

- ابتعد أنت وجانيت عن إسماعيل ولدي أسلم لك يا إبراهيم، لن أسمح لأحد أن يقترب منه أو يمسه بسوء ما دمت على قيد الحياة.

- وما لنا ومال ابنك يا يونس! تحدث بأدب يا رجل.

- لا وقت لكلام ليس منه طائل، ولكنني أريدك أن تعلم، إذا خطت كي يقتل ياسين صديقه إسماعيل سأجعله يقتلك قبله.

- أقسم بالله لولا أنني أكنّ لك بعض المودة يا يونس لكنت دفنتك الآن في موضع قدمك هذا.

- لا تقسم بما لا تستطيع أن تبرّ به يا إبراهيم، سأقولها مرة أخرى، لن أترك عابدة وإسماعيل فريسة لتلك الحية جانبيت.

كانت جانبيت تقف على درجات السلم أعلى الردهة، وقد هالها موقف وصوت عم يونس، ولكنها لم تتصور أن تكون أبدًا موضع حديثه هذا، بينما أكمل عم يونس قائلاً:

- إذا علم ياسين من قتل أبوه لن يتركك يا إبراهيم، لقد حافظتُ على سرك طُول تلك السنوات، لم أنطق بكلمة مما أعرف، كما قبلت أن أظل طوال تلك الفترة أمثل دور القعيد على كرسي متحرك حتى لا أفقد ابني، فلن أتركه الآن فريسة لكم.

ظهرت علامات الجذع على وجه إبراهيم، عم يونس ينطق بكلام غير مفهوم ولكن بالتأكيد يحوي الكثير من الألغاز؛ تلك الألغاز التي إن حلت لن ترحم أحدًا، حاول أن يحافظ على اتزانهِ وهو يقترب منه يقول له:

- لا أقبل نبرة التهديد تلك، كما أنني لا أفهم عما تتحدث.

- تلك الليلة التي لاقى قاسم فيها مصرعه على قارعة الطريق، هي تلك الليلة التي قُتلَ فيها عيسى أخوك.

- مصادفة ما بها، ثم إن الجميع كان يعلم أن قاسم كان لدينا في هذه الليلة، قبل أن يخرج بصحبة عيسى، وحدث لهما ما حدث.

- ذلك ما يعرفه الجميع، بعد أن ظنوا أنهما حادثتان منفصلتان، ولكن ما لم يعرفه أحد أنها حادثة مدبرة، من قتل عيسى هو من أراد التخلص من قاسم حتى لا يُفصح أمره. هو أيضًا من أتى لي تلك الليلة بالسيارة أصلحها بدعوة أنها اصطدمت بشجرة في الطريق.

- تبًا لك، تقصدني أنا؟! فأننا من أتيت لك فعلاً بالسيارة تصلحها، أتذكر تلك الليلة جيدًا وما حدث بها؟ حادثة عادية إلا إذا كان قاسم هو الشجرة؟

قالها هازئًا بينما عم يونس يستكمل حديثه:

- صدقت القول، كان قاسم هو تلك الشجرة.

أقترب أكثر منه عم يونس يخاطبه بصوت أهدأ، لم يكن مسموع لجانبيت التي ما زالت تتابع الموقف من أعلى درجات السلم والخوف يملأ قلبها:

- ولكن لست بذلك الساذج الذي لا يعلم أثر ارتطام الشجرة عن أثر حادثة أصابت جسمًا بشريًا. يا إبراهيم السيارة التي أتيت بها لإصلاحها في تلك الليلة لم ترتطم بشجر، بل دهست إنسانًا، خبطة (الكابوت) لم تكن خبطة جسم صلب، ناهيك أن حالة التوتر التي كنتم عليها لم تسمح لكم بغسل السيارة جيدًا، كانت علامات المياه التي غسلت بها السيارة لتوها ما زالت عالقة بداخلها، ولكنها لسوء حظك لم تُزل كافة آثار دماء قاسم عليها. كانت دماء آدمية متناثرة في مناطق مخفية داخل محرك

السيارة، إن السيارة يا إبراهيم لم ترتطم بشجرة ولكنها دهست قاسم، منذ اليوم الأول لوداد في القرية وبعد ما علمت ما حدث لزوجها وقد ربطت الأحداث كلها معاً حتى تيقن قلبي.

كانت المفاجآت أكبر من أن يدركها عقله. ارتدى جسده الثقيل على الأريكة لا يعلم ماذا يحدث له منذ الصباح، تأمل نظرة عم يونس التي ظهرت عليها علامات التشفي، ارتفع نظره إلى أعلى يتابع نظرات جانيت التي كان يملأها الخوف بينما يكمل حديثه مع عم يونس بنبرة استسلام:

- ولكن لم أكن أنا من يقود السيارة في تلك الليلة، لقد أتت لي السيارة مع قائدها يخبرني أنه ارتطم بشجرة، لذلك ذهبت بها إليك، أقسم بالله لم أفعلها ولا أعلم ما الأمر.

- إن لم تفعلها فأنت تعلم من فعلها يا إبراهيم، ولا يهمني الآن من هو، ولكن بالتأكيد سيهم هذا ياسين، هو يتصرف حينها معكم لمعرفة من منكم الصادق.

أخذ إبراهيم نفساً عميقاً، لا يدري ماذا يفعل، كلام عم يونس بدأ يتجمع في رأسه ويربط خيوطه، اقترب منه وهو يقول له:

- عم يونس، أنت أخ وصديق، تربيته معنا، وكنت دائماً صديق للأسرة، تعلم جيد من هو إبراهيم الصباح، وتعلم جيداً أنه ليس أنا الذي تمتد يده ليقول أخاه أو صديقه. ولكني سأعلم من فعلها وسأنتقم منه.

قالها، ثم نظر إلى الأعلى حيث كانت جانيت تغادر مكانها أعلى درجات السلم عائداً إلى غرفتها، بينما اقترب أكثر من عم يونس يستكمل كلامه:

- لقد حافظت على ذلك السر طيلة سبعة عشر عاماً، كتمته في نفسك، ولو كنت أفصحت عنه لكان أفضل لنا جميعاً، وربما كان تغير الكثير في حينها، ولكن ليس هذا مسار حديثنا الآن. أعاهدك أن لا يمس أحد إسماعيل وعائدة، أعاهدك أن يظلا في رعايتي ما حبيت ولكن أعطني الفرصة حتى أتيقن مما تقول، وأقسم لك إن من فعلها لن يفلت بفعلته، هذا عهدي إلى يوم القيامة.

لم يكن عم يونس يعبأ بمن فعلها، حافظ على ذلك السر طوال تلك السنوات، كحايٍ يدخر في جعبته الثعبان الذي يدهش به مشاهديه في آخر لحظة، كان يمتلك الكثير ولا يبوح به، أوراق رابحة تعلم كيف يجمعها طول حياته وهو على يقين من أنه سيستخدمها يوماً ما.

غادر المكان بعد ما حصل على ما يريد، يعلم أن المعركة لم تنته، ربما بدأت لتوها، ولكن أيضاً على يقين أنه لن يخسرها، إذا فضح الأمر سيكشف الكثير من المصائب التي لا يتحمل أحد وقوعها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يستطع إبراهيم أن يمكث في مكانه بعد مغادرة عم يونس البيت أكثر من دقائق، استجمع فيها شتات تلك الليلة قبل أن يتوجه مباشرة إلى غرفة جانيت، كانت تجلس

على الكرسي الصغير أمام المرأة، شاردة الذهن هي الأخرى. اقترب يجلس على السرير المقابل لها وهو يتحدث معها دون أن يرفع نظره إليها، كان يشعر بمجرد النظر إليها بالاشمئزاز:

- سمعت لم أتى عم يونس؟

بيد أنها ما زالت تمتلك مساحة للمرأوة فقالت له:

- رجل عجوز أصابه الجنون بالتأكيد، هل تعول على مثل تلك الخرافات يا إبراهيم؟
- جانبيت، أنا أتذكرت تلك الليلة جيداً، أتذكر حتى أدق تفاصيلها، أتذكرت إصرارك أن تخرجي بالسيارة بينما عيسى أخي يريد أن يصطحب بها قاسم، أتذكر نظرة الانكسار في عينه أمام إصرارك على المغادرة بها. حتى نظرة الرعب التي كانت بادية في عينيك بعد عودتك وأنت تخبريني أنك فعلت حادثاً بالسيارة وأنت اصطدمت بشجرة في طريق العودة؛ أتذكرها. ذلك كله قبل أن نعلم بخبر قتل عيسى على يد من كنا نظنهم لصوفاً حينها، وبالطبع قبل أن نعلم خبر وفاة قاسم في حادث سيارة، بعد أن أتت و داد إلى هنا ببضعة أسابيع، لم يدرك عقلها حينها الربط بينهما.
كانت جانبيت تستمع له بكل هدوء وكأنها لم تتأثر بتلك التهم. نظر إليها تلك المرة وهو يكمل:

- الآن فقط علمت سر الكابوس الذي لا يفارقك، حينما تستيقظين من نومك تصرخين بأعلى صوتك باسم (وداد).

التفتت جانبيت إلى إبراهيم، كانت نظراتها أكثر هدوءاً وكان الأمر لا يعينها، اقتربت منه بينما تخاطبه بنبرة لم يتبين ملامحها، هل هي نبرة حزن أم ألم، أم نبرة تحد:

- إبراهيم، لم يكن الأمر بيدي، القرار اتخذه ديفيد ألكسندر، وكان سينفذه، سواء علمنا أو لم نعلم، لا تُخطئ نفس خطأ عيسى عندما قرّر الوقوف في وجه حكومة الانتداب؛ فكان مصيره القتل، إن تلك الشركة التي نجني منها الأموال الطائلة الآن ما كانت تقوم لها قائمة لولا مباركة ورضا، بل دعم كامل من حكومة الانتداب البريطاني، هي من كانت تتحكم في الأمر بأكمله.

- حسناً، عليّ الآن أن أرضى بالأمر الواقع، وأن أغض الطرف عن دم أخي الذي أريق بيد وبمباركة زوجته، حتى لا ألقى نفس المصير؛ وصلت رسالتك يا جانبيت.

- لا أطلب منك ذلك، ولكن صدقني، لم يكن الأمر بيدي، لقد اتُخذ القرار في مقر قيادة الانتداب، وليس لي ولا لك منه شيء.

لم يكن أمامه كثير من الوقت في التفكير في تهديد جانبيت له الآن، لن تفر بعملتها، أقسم على ذلك، ولكن عليه الآن تدارك الموقف قدر المستطاع، عليه أن يوقف نزيف الدم الذي أصبح على وشك الانفجار في القرية.

تركها بينما يهيم يغادر البيت إلى بيت سليم أبو زيد، يعلم أن المواجهة معه ليست سهلة، ولكن ليس هناك مفر منها. إن انفجرت الدماء في القرية فليس لها راد.



(9)

مشهد خلفي

دير ياسين ד'יר יאסין

15 مارس - آذار 1931

كانت ليلة مقمرة، ظهر فيها القمر في السماء الصافية التي تملأ الصحراء كسراج منير يضيء الدرب، عندما كانت تقود جانيت السيارة بصحبة ديفيد ألكسندر الذي كان يجلس في الكرسي المجاور لها بينما جنديان إنجليزيان ملثمان في الخلف ينتظران صدور الأوامر لهما.

كانت جانيت على يقين أن سبب اصطحاب ديفيد لها في تلك الليلة بعدما أخبرها بنيته ما هو إلا لإشركها في الحادث حتى تتلوث يدها بدم زوجها، فإن هربت من قبضة القضاء، لن تهرب من قبضة أهله. ولكنها لم يكن أمامها حل آخر.

القرار اتخذته ديفيد ولم يكن منه مفر، أخطاء عيسى عندما قرر الوقوف في وجه حكومة الانتداب البريطانية وعادى رغبتها في احتكار تكسير الحجر الكلسي في دير ياسين، كان ليس ثم من مفر للتخلص منه على أن يبدو الأمر مجرد حادثة سرقة.

بمجرد أن غادر عيسى البيت بصحبة قاسم الذي كان في زيارة له في تلك الليلة وتلك العيون تراقبه لحين الانفراد به والظفر به، تابعت تحركاته بكل دقة حتى وصلا عند شجرة الزيتون في مدخل القرية، ظهرت علامات الوداع بين الرفيقين، ظنت تلك العيون المترقبة أنها اللحظة المناسبة، فبمجرد أن فرغ الرفيقان من الوداع وترك قاسم، عيسى الذي هم عائداً إلى البيت، حتى نزل الملتحمان من السيارة وعيونهما مصوبة نحو عيسى إلى أن التقت عيناه بعيونهما علم أنها نهايته، أمسك به أحدهما بينما الآخر يخرج السكين من تحت ملبسة يقطع بها أحشاءه. خرجت آهة ألم من عيسى وهو يسارع الموت، فر الملتحمان عائدين إلى السيارة التي كانت جانيت ما زالت بها برفقة ديفيد ألكسندر يراقبان الموقف من بعيد.

لا تعلم حينها ماذا حدث، ولماذا عاد قاسم إلى عيسى مرة أخرى، هل فقد شيئاً أم أنه سمع صرخة موته المكتومة، وقفت من بعيد تتأمل نظرات الرعب في عين قاسم قبل أن يترك صديقه غارقاً في دمانه يصارع الموت هو يصرخ يستجد بأي من المارة في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

ظهرت علامات الخوف على كليهما، يمكن أن يفسد قاسم الأمر برمته، وقبل أن ينتبها وجدا قاسم يقف أمامهما، كانت السيارة واقفة بجوار شجرة عتيقة بعيداً عن مسرح الحادث، ولكن من بها يتابعون بوضوح كل ما يجري خلف تلك المساحات الواسعة في مدخل القرية.

التقت عين قاسم بعين جانيت، كانت علامات الرعب بادية عليه، لم يكن عقله يحتاج إلى تدفق الكثير من الأدرينالين إليه ليعلم أن الأمر كله مدبر من زوجته، كانت نظرة الرعب بادية على كليهما استمرت حدقتاهما في التأمل للحظات قبل أن يعمي قوة إضاءة مصباح السيارة الأمامي نظر قاسم، حينما سمع صوت محرك السيارة يعاد تشغيله.

ضغطت جانيت على دواسة محرك السيارة بكل قوتها قبل أن يتوقف قلب قاسم الذي ملأه الرعب ونظرة فزع، لم يتسنَّ لجانيت أن تشاهدها من قوة إضاءة مصباح السيارة الأمامي، حاول قاسم الفرار بنفسه قبل أن تدهسه جانيت تحت عجل السيارة، التي كانت سرعتها أكبر من سرعة قدميه اللتين لم تسعفاه بالهرب.

مرَّ الأمر في لحظات قليلة، كضوء برق خاطف أضاء السماء في ليلة ممطرة وانتهى، ترجلت جانيت بصحبة ديفيد من السيارة حيث يرتمي قاسم على الأرض غارقاً في دمانه، كان قد فارق الحياة تماماً، نظرة الثقة في عين ديفيد لم تنزل حالة الرعب التي كانت بادية على جانيت التي تملكتهار عشة شديدة، حينما قال لها:

- حسناً فعلت، لم يكن أماناً حل آخر.

لم ينتظر ديفيد ردّاً منها بينما يدها تشيران إلى هذين الرجلين في السيارة ليأتيا إليه، قدما منه بينما يخاطبهما بلهجة امرأة:

- خذاه نحو الطريق السريع، بعيداً عن تلك القرية، وفي منتصفه اتركاه يلتقطه بعض المارة فيظنون أنه لقي مصرعه في حادث سيارة مسرعة، صدمته قبل أن تفر هاربة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل العاشر

(1)

كان إسماعيل مستعدًا لذلك اللقاء الذي يعلم أنه ليس منه مفر، لن يهرب بناءً على نصح أبيه، تعهد له بإصلاح الأمر كله، يثق به؛ والده بحر ليس له نهاية ولا أحد يعلم في ماذا يفكر، ولكنه في النهاية عليه أن يواجه مصيره مع ياسين ومن قبله أبناء سليم أبو زيد.

جلس بجوار ماكس الذي أطلق سراحه استعدادًا لأي اشتباك مع من يحاول اقتحام البيت، لن يفني ماكس بالعرض ربما، ولكن على الأقل سيعرقل تقدّمهم. وضع بجواره سكينًا كبيرًا مستعدًا للدفاع عن نفسه.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى شاهد من بعيد أسامة وفراس قادمين نحوه، قام من مكانه متحضرًا لهما، متجهم الوجه، بينما نظرتهما نحو داخل الدار:

- أين عايدة يا إسماعيل؟

- لا أعلم، وما شأنني أنا بعايدة؟!!

نظر فراس إلى السكين التي كانت بجواره وهو يصوب فوهة بندقيته نحو صدره ويقول له:

- شأن تلك السكين التي تحتمي خلفها الآن.

- عايدة ليست في الدار، ولن يدخل أحدٌ إلى الدار إلا على جثتي.

- إن كانت كذلك فاسمح لنا بدخول الدار وتفتيشها.

- قلت لكم ليست في الدار ولم أشاهدها.

قطع حديثهم صوت نواح وداد القادم من بعيد، اقترب منها إسماعيل غير عابئ بتلك البندقية المصوبة نحوه، كانت نظرات وداد تقتله وهي تقول له:

- أنت يا إسماعيل تدنس شرفنا في الوحل بعد أن اعتبرتك ابنًا وأخًا لياسين؟

- أقسم بالله يا عمتي لم يحدث شيء، لم أكن يومًا عهدًا كان بيني وبينكم، فتحتم لي داركم وكنتم حقًا أخًا لياسين، لا يمكن أن أخون صحنًا تقاسمنا فيه غداءنا معًا.

- فأين عايدة الآن؟

- لا أعلم. ولم أكن لأسمح لغيرك أن يفعلها، ولكن إن كان يرضيك فالدار أمامك يمكنك أن تبحثي عنها بنفسك.

لم تتردد وداد للحظة، ولم يخاطر عقلها تفكير، اقتحمت الدار تبحث عن عايدة. إن وجدتتها في دار إسماعيل فلن تخرجها منه. ستدفعها بيدها في تلك الدار جزاء خيانتها، ستغسل عارها بيدها. جالت في الغرفات يسبق الخوف قلبها قبل أن تفتح كل غرفة، وهي تتخيل ابنتها مسلّية على سرير في انتظار عشيقها.

لم تجدها، همت تبحث عنها في كل مكان، فوق السطوح، تحت الأسيرة، في غرف الخزين، ليس لها أثر. تنفست الصعداء أخيرًا، على الأقل تلك الخيالات التي كانت

تقتلها كانت مجرد أو هام. خرجت إليهم، لا تدري بماذا تشعر، ربما بسعادة تحمل
طيات أمل في براءة ابنتها.

- ليست في البيت.

- أين هي إذاً؟

- لعلها عادت إلى البيت أو في أي مكان آخر، دعونا نبحث عنها في كل بيت في
القرية.

التفت فراس يخاطب أسامة وعيناه على إسماعيل الذي كان يتأهب بالسكين في يده
وهو يقول:

- وهذا؟

- دعنا نجد عايذة أولاً.

غادر ثلاثتهم المكان بينما جلس إسماعيل بجوار الكلب ماكس يداعب فروته وهو
يشاهدهم يغادرون المكان، زاد ثقة في كلام عم يونس، هذا الرجل كل يوم يثبت له
أنه لا يمكن لأحد أن يغلبه، رغم ما يظهر غير ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(2)

مشهد خلفي

كانت علامات الغضب بادية على وجه بن تيسون وهو يقتحم غرفة إيلان في الكيبوتس، أزاح كل من وقف أمامه نحو الغرفة. اقترب منها بينما يدفع بكل قوته شوشانة من جوارها التي ارتمت على الأرض لا تتطق بكلمة بينما يتوجه بكل غضب إلى إيلان قائلاً لها:

- تظنين أن اختباءك في الكيبوتس سيحميك مني يا إيلان، أستطيع أن أصل لك حتى لو عدت إلى بطن أمك.

- ماذا تريد مني يا بن تيسون؟ لا شأن لك بي بعد الآن.

اقترب منها بن تيسون يجذبها من شعرها إليه بكل قوة، التفت خصلات شعرها حول قبضة يده، فارتفعت رأسها لتقابل وجهه وهو ينظر إليها بكل غضب بينما آهات مكبوتة تصدر منها من شد قبضة بن تيسون على شعرها وهو يقول لها:

- أعطيته الولد يا إيلان؟ تنصلي من جذورك اليهودية أيتها الزانية الحقيرة، أخطأت عندما كنت أتصور أنك يمكن أن تساعدنا على قيام دولتنا. أمثالك لا ينبغي لهم العيش بكرامة في وطن، أمثالك لا يصح إلا أن يعيشوا لاجئين في معسكرات إيواء داخل بلدان الشتات، يحترقون البغاء والدعارة كما احترفته أمك أيتها الغانية الحقيرة، أنا من أخطأت عندما وثقت في عاهرة مثلك.

- لا أريده أن يكون صهيونياً مثلك، لا أريده أن يتربى على الحقد يملأ قلبه كما ملأتم به قلوبنا.

- وبماذا ملأ ياسين قلبك أيتها العاهرة، بكلمات الحب والغرام التي بعت بها وطنك. لا تظني أنك ستقرين بعملتك هذه، سأدمر الجميع، سأقتل طفلك بيدي، سأقتل ياسين، سأقتل كل كائن حي يسير في دير ياسين. سأبيد دير ياسين كلها من الوجود، لن تطلع شمس يوم جديد على تلك القرية يا إيلان. اذهبي غداً ابحتي عن ابنك وسط جثث الموتى.

غادر بن تيسون الغرفة وهو عازم على ما هدد به، كانت إيلان تعلم أن تهديد بن تيسون لها ليس كلام قاله الرجل في لحظة غضب، فأمثال بن تيسون لا يهددون حتى يصلوا إلى ما يريدون، إن القتل والدم والبطش عندهم هم أسهل الطرق لتحقيق هدفهم.



(3)

بمجرد أن غادر إبراهيم غرفة جانيت وقد تغير حالها، حالة الاتزان التي كانت عليها تبدلت، تعلم أن الأمر لن يمر بسلام، لن تعود المياه إلى مجاريها، وعلمت أن نهايتها في قرية دير ياسين قد حانت، لم يصبح لها الآن مكانٌ فيها، ولا من تجلس من أجلهم، لن يتقبلها إبراهيم بعد ما علم بأمر اشتراكها في قتل أخيه، خسرت كلنا ابنتيها ولن تعودا لها مرة أخرى، لم يصبح باقي لها إلا نفسها لتحافظ عليها.

لم يكن أمامها غيره، هو من دبّر الأمر من بدايته، وعليه الآن أن يتصرف في إنقاذها، رفعت سماعة الهاتف تتصل به، كانت تعلم أنه سيجيب، لم يتأخر يوماً عن إجابة طلبها:

- ديفيد، إبراهيم علم بكل شيء، لا أطمئن إلى متى أستطيع السيطرة عليه، أخشى أن يسبب لنا الكثير من المشاكل.

- جانيت سينتهي الأمر كله في الصباح.

- ماذا تقصد؟

- لا أقصد شيئاً؛ لا تقلقي، سأرسل لك سيارة فجر الغد تأخذك بعيداً عن القرية، المهم أن لا يعرف أحدٌ لحين مغادرتك بأي شيء.

- دمت صديقي يا ديفيد.

أنهى ديفيد ألكسندر تلك المكالمة مع جانيت، شعر بإرهاق بعدها، أخرج قرصاً من المُهدئ الذي أصبح يتناوله بكثرة خصوصاً بعد العودة من الحرب وهو يقول في نفسه:

«لقد أصبحت تسبب لي الكثير من الصداع يا جانيت؛ وأنا أكره الصداع»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(4)

كانت نيران الغضب مشتعلة في البيت، لم يكن إبراهيم يعلم كيف إخمادها، تقدّم نحو سليم أبو زيد الذي كان يجلس مطأطأ الرأس بينما تجلس بجواره إحسان تضم إليها حيدر الذي جده إبراهيم بنظرة غضب، على الناحية الأخرى أمسك أسامة بندقيته بمجرد أن شاهد إبراهيم يخترق عليهم ردهة دارهم في إشارة لم يكن غافلاً عنها إبراهيم، لم يعبأ بها فتوجه مباشرة إلى سليم أبو زيد الذي لم ينتظر أن يعلم سبب قدومه فقال له:

- هل قتلتها أم تنتظر أباها يقتلها؟ إن كان في قلبكم شفقة نحوها اترك لنا الأمر نحن أولى به.

بينما أكمل أسامة حديث والده متهمًا:

- هذا إن كانوا يعرفون مكانها أين يا والدي. لقد فرت الفاجرة، والله سأجدها وأقتلها هي وعشيقها وأغسل شرفنا الذي مرغته في التراب.

لم يهتم إبراهيم بحديثهما، جلس بجوار سليم هو يقول له:

- عايدة ابنتنا يا سليم، أشرف من الشرف، لا يمكن أن تكون اقترفت مثل تلك الفعلة الشنعاء، أويها في دارنا منذ أن كانت صبية صغيرة وما شاهدنا منها إلا كل خير.

- إن جنّت لتغسل عارك بيدك فأهلاً بك في الدار، أما إن جنّت لتدافع عنها فليس لي طاقة إلى سماع كلامك، لقد اعترف حيدر بكل شيء، لم يعاشر زوجته وتركها عذراء حتى علمنا بأمر الحمل.

- سليم حاول أن تعقل ما تقول، الأمر ليس بتلك السهولة، بل إنه يمس كرامتك وكرامة ابنك، زوجها منذ أكثر من عام، إن أشيع بين أهل القرية أن زوجته عذراء بعد مضي عام على زواجها فكيف ترفع رأسك فيها مرة أخرى.

- وكيف أرفعها الآن بعد أن لطخت شرفنا في الوحل.

- عايدة لم تفعل شيئاً، والمياه تكذب الغطاس.

نظر إلى حيدر بكل ازدراء وهو يكمل حديثه إلى سليم:

- إن كان (هذا) يقول إن زوجته ما زالت عذراء وحملت، فسنعكش الأمر غدًا عند الطبيب، سأصطحب عايدة إلى طبيب في القدس للكشف عليها، أعلم حالات إنجاب كثيرة قبل أن ينفض عنها غشاء البكارة. إن أثبت الطبيب أن عايدة ما زالت عذراء فصدقتم وأنتم تجنيتم عليها، ولن أغفر لكم الخوض في شرفها وسيدفع من أشاع عنها تلك الفاحشة الثمن غالباً. وإن كانت الأخرى فسأدفنها حية بيدي، وقبل أن أعود حتى إلى دير ياسين.

كان سليم يحاول أن يلوذ بأي بارقة أمل تحفظ له سمعته، بدا حل إبراهيم منطقيًا وواقعيًا، قبله ولكن دون أن يصرح بذلك قائلاً:

- ولم لا نكشف نحن عليها، فلتأت إلى هنا ويكشف أمرها النساء.

- لن تدخل عابدة هذا البيت مرة أخرى، فإما أن تدفن قبل أن تطأ قدمها دبر ياسين، إما أن تعود إليها مرفوعة الرأس، وفي كلتا الحالتين لن تطأ قدمها عتبة دارك مرة أخرى، ولن يلمسها أحدٌ إلا طبيب.

- ولكنك لن تذهب بمفردك، سترافكما سحر وإحسان.

- موافق ولكن لحين الغد ستمكث عابدة في داري معززة مكرمة إلى أن يظهر الحق ويصدر الله أمراً كان مكتوباً.

- ولكن أين هي الآن يا إبراهيم؟

- ومن أين علمت أنا بالأمر كله يا سليم، لقد فرّت عابدة إلى داري، هي الآن في داري معززة مكرمة لن يجرؤ أحد على الاقتراب منها.

بدا هذا أفضل حل أمام الجميع، الصمت يعني موافقتهم عليه، أما إبراهيم فلم يتوقع أن يمر الأمر بتلك السلامة، ذهب إليهم ولا يعلم بماذا يتحدث، فأجرى الله الكلام على لسانه ما حفظ به دماء كثيرة كانت على وشك الانفجار، حتى تلك الجملة الأخيرة كانت المنقذ لهم جميعاً، لا يعلم من أجراها على لسانه وكيف نطق بأن عابدة عنده!

فإذا علم سليم وأبناؤه أنها لاذت بإسماعيل ستثبت التهمة عليها تلك البلهاء، أراد الله أن يحفظ الدماء حتى الآن، وتمنى أن يستمر ستره عليهم.

ولكن عليه الآن أن يغلق الباب نهائياً تلك الليلة ويجد عابدة، إن فرت تلك البلهاء من القرية فلن يستطيع أن يتدارك الموقف. لم يكن أمامه إلا حلاً واحداً، هو عم يونس، عله أوها، فتوجه إليه عله يجد ضالته عنده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن إسماعيل يتصور أن يحدث ذلك كله في تلك الساعات القليلة. كان الأمر كله أصعب من إداركه، والده الذي جلس تحت قدميه يخدمه طول تلك الفترة وهو يؤنب نفسه على ما اقترفه ضده من ذنب، حمل نفسه فيها مسؤولية ما حدث له. كان كل هذه الفترة يدعي المرض، يدعي أنه إنسان قعيد من أجل عدم مغادرة إسماعيل له، ارتضى بالسجن على كرسي متحرك حتى لا يفقد إسماعيل، لا يعلم بماذا يشعر تجاهه الآن، ولكن بالتأكيد ليس ببغض، لقد فعل كل ما في وسعه لولده من أجل الحفاظ عليه.

كانت نظرة السعادة بادية على وجه إسماعيل وهو يجلس على باب الورشة على مقربة من عم يونس الذي أغلق ورشته لأول مرة منذ عشرات السنوات في نهار ذلك اليوم، تشاركاً نفس الهم.

إسماعيل كان يمسك في يديه سكيناً، يستعد لأي هجوم آخر، بينما عم يونس أخذ بندقية قديمة كان يستخدمها في ترهيب اللصوص في تلك المنطقة النائبة لا يعلم إن كانت تعمل حتى الآن أم لا، ولكنهما اتخذوا القرار، لن يسلموا عابدة إليهم إلا بالدم،

حتى ماكس كان يقف مترقبًا قدوم أي شخص هو الآخر بعينيه الذائغتين دائمًا بعد أن تحررت وثائقه.

كانت المشهد يزداد سوءًا بالنسبة لإبراهيم، كل فريق يتوعد للآخر، ويستعد له، اقترب من عم يونس الذي اتكأ على بندقيته وهو يقول له:

- لن نسلم عابدة إلا بالدم يا إبراهيم.

- عابدة ابنتنا يا يونس، ولن أسمح لأحد أن يقترب منها، عابدة ستخرج معي الآن معززة مكرمة إلى داري حتى نستبين الحق.

هنا تقدم منه إسماعيل يخاطب والده ناهيًا:

- إنها خدعة يا والدي كي يأخذوها، لو تركناها لن تمر بضع خطوات قبل أن يقتلوا.

حجده إبراهيم بنظرة غضب وهو يقول له:

- إن كانت عابدة كما تقول، ولم تفعل شيئًا فلا تخف عليها، عابدة ستكون في داري ولن يمسه أحدٌ بسوء حتى نتبين الأمر، غدًا سنذهب إلى طبيب في القدس للكشف عليها، إن كانت عذراء وحدث الحمل دون أن تفرض بكارتها ستعود إلى القرية في موكب عروس. وقسمًا بربي لن أترك من أساء إليها.

صمت برهة وهو يقترب من إسماعيل يجذبه من ياقة قميصه دون أن يعبا بذلك السلاح الأبيض الذي كان إسماعيل يشهره في وجهه وهو يقول له:

- أما إن كانت الأخرى فلن أرحمك يا إسماعيل، ولن يرحمك مني حتى والدك.

التفت إلى عم يونس يخاطبه بلهجة أمر، لهجة أعادت له بعض كبريائه الذي كان مضغعة في الألسن صباح اليوم وهو يقول له:

- اذهب وائت بها يا عم يونس، أعلم أنها لديك.

اقترب منه إسماعيل وهو يقول له:

- ولكن عابدة ليست في البيت.

- إن كانت كذلك فأنت تعلم أين هي، إن لم نجد عابدة فستثبت التهمة على نفسها وعليك يا إسماعيل، ولن أقوى على فعل شيء لكما بعد ذلك.

نظر عم يونس إلى إبراهيم وهو يخاطب إسماعيل:

- ذلك أسلم حلٍ يا ولدي، لا يمكننا أن نخفيها عنهم أكثر من ذلك، ما اقترحه إبراهيم أفضل الحلول، عل الله يرحم أهل القرية جميعًا من دم لا يعلم أحد مده.

قالها يونس وهو ينظر إلى إبراهيم متوعدًا له بما كان بينهم منذ قليل وكأنه يريد أن يذكره بما لديه من أسرار، بينما كان ما يشغل بال إسماعيل هو عابدة التي نطق باسمها متسائلًا:

- وعابدة؟!!

- لا تخف عليها، السيد إبراهيم لن يجروا على أذيتها، أنا أعلم ذلك.
وقف إسماعيل لا يقوى على الرد بينما تنفس إبراهيم الصعداء وهو يسأل:
- أين عايدة الآن؟
- في الدير منذ الصباح بصحبة ابنة أخيك كارولين، لم آمن عليها إلا في هناك.
- حسناً فعلت يا يونس.
اقترب منه يخطب وده مستكماً كلامه:
- لم أشك يوماً في حكمتك يا أخي.
قالها إبراهيم وقد غادر المكان حيث دير السلطان علّه ينتهي تلك الليلة من ذلك الكابوس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(5)

مشهد خلفي

القدس المحتلة - (ירושלים הכבושה)

8 أبريل - نيسان 1948

20:00 بتوقيت القدس

مقر جماعة شتيرن

(לח"י - לוחמי חרות ישראל)

كان بن تيسون يقدّر خطورة الموقف خصوصًا بعد قطع العرب بقيادة عبد القادر الحسيني طريق (القدس - تل أبيب) وما حقته تلك العمليات الفدائية من ارتفاع الروح المعنوية عند العرب، لذلك كان لا بدّ من ذلك الاجتماع الذي دعا إليه جميع قادة منظمتي (شتيرن) و(الاجون)، رغم معارضة الكثير لتلك الخطوة إلا أن بن تيسون بدأ اليوم مصممًا عليها أكثر من ذي قبل.

- إن هجمات العرب أصبحت خطيرة، وقد حقق عبد القادر الحسيني انتصاراتٍ لا يمكن إغفالها خلال تلك الفترة، لذلك اجتمعنا الآن لنرى كيفية الرد على العرب بما لا يدع لهم المجال لعودة الروح مرة أخرى.

تأمل مناخم بيجين حديث بن تيسون. كان يتمنى أن يقوم بعملية مثل تلك كل يوم حتى يقضي على العرب جميعًا، ولكن قتل العرب ليس بالتمني فقط، فمنذ أن انشقت جماعتا الأراجون وشتيرن عن الهجاناه وهم يواجهون بعض التعنت من قيادتها فخاطبه قائلاً:

- لقد عرضنا الأمر على الهجاناه من قبل ورفضت، الأمر صعب الآن وجماعة الهجاناه ترفض أي عمل عسكري بعيد عنها.

- لذلك اجتمعنا الآن لنقوم بالعملية بدونهم لنضعهم أمام أمر واقع، إن قيام دولة إسرائيل لن يتم إلا بمزيد من إراقة الدماء، لم نأت طالبين سلامًا، بل جننا نبني (وطن) على أشلاء العرب، هذا سبيلنا.

- وما ترى تيسون؟

- غدًا ندخل (دير ياسين) قرية صغيرة متطرفة، يسهل السيطرة عليها، يتم إبادتها عن بكرّة أبيها والتمثيل بأهلها في بضع ساعات، عملية صغيرة ولكنها تُعيد الثقة لدى اليهود، وتضعف عزيمة العرب وتقضي على ما تبقى من رغبة المقاومة في نفوس أيّ منهم، سيفرُّ بعدها أهل القرى المجاورة من ديارهم بمجرد وصول خبر ما قمنا به في أهل دير ياسين.

- ولكن تلك القرية وقّع كبارؤها صلح مع الهجاناه، على عدم المقاومة مقابل السلام.

- تَبًّا لِلهَاجَانَاهِ وَالقَرِيَّةِ، وَكِبْرَائِهَا، تَبًّا لِلدَّمَاءِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ، وَتَحِيَا فِقْطَ إِسْرَائِيلِ، تَحِيَا
عَلَى الدَّمَاءِ، وَلَيْسَ غَيْرَهَا يَا صَدِيقِي، غَدًّا سَتَزُولُ دِيرَ يَاسِينَ مِنْ عَلَى وَجْهِ
الأَرْضِ، تَمْهِيدًا لِقِيَامِ دَوْلَةِ إِسْرَائِيلِ الْكَبِيرَى، دَوْلَةٍ مِنَ النِّيلِ إِلَى الْفِرَاتِ، دَوْلَةٍ تَسْوَدُ
العَالَمَ أَجْمَعًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(6)

لا يعلم ياسين كيف يواجه أمه بذلك الطفل الذي يحمله على كتفه، فكر أول الأمر أن يذهب إلى عابدة عليها تساعد تلك المرة، ولكن تجنب أن يسبب لها مشاكل مرة أخرى مع إحسان، خطرت في رأسه تلك الفكرة؛ أن يتوجه إلى بيت إبراهيم الصباغ يطلب منه أن يساعده في إقناع أمه بقبول الولد. في الفترة الأخيرة لا يستطيع أحد أن يفرض أمرًا على وداد إلا هو، خصوصًا أنه يعلم الأمر برمته ووعده ذات مرة أن يحاول أن يصلح بينه وبينها.

لم يتخيل أن يشاهد وداد هناك، لم يكن يعرف ما دار منذ صباح اليوم، حينما تقدّم منهما كانت علامات الخوف بادية على وجهه، ما إن رآته وداد حتى أخذت في النواح.

- يا ربي ماذا فعلت في حياتي كي أجنبي كل هذا العار، بنت مهدّد شرفها بالعار وابن أتى بابن زنا من يهودية يطلب مني تربيته.

كان ياسين يجهل معنى حديثها، حاول أن يجمع شتات كلماتها حول عابدة، تمنى أن ما يدور في رأسه ليست حقيقة، تدخّل السيد إبراهيم قاطعًا حديث وداد وهو يقول لها:

- ليس هذا وقت ذلك الكلام يا أم ياسين، غدًا ستظهر براءة ابنتك أمام الجميع، وسنعود إلى القرية مرفوعي الرأس.

كان الكلام لا يحتاج إلى إيضاح أكثر من ذلك، تجهّم وجه ياسين وهو يقول لها:

- ماذا حدث يا أمي، ماذا فعلت عابدة لمثل ذلك الحديث؟

تقدّم منه إبراهيم الصباغ قبل أن تتطرق وداد بأي كلمة وهو يقول له:

- اهدأ يا ياسين، لم يحدث شيء، إفك أطلقه بعض المغرضين على أختك وسنقطع الألسنة غدًا إن شاء الله.

- لا أفهم.

التفت إليه وداد تقول له:

- لقد اتهم سليم أبو زيد وأولاده عابدة في شرفها، يقولون إن الولد ليس ابنهم، وأنها على علاقة مع إسماعيل.

كانت الكلمات واضحة لا تقبل أي التباس، وضع ياسين ابنه على أقرب أريكة بينما يتوجه بالحديث إلى وداد قائلاً لها:

- وأين هي الآن؟ والله لأقتلنها بيدي هي وهو.

قاطعه إبراهيم الصباغ ناهيًا:

- اهدأ يا ياسين، أقسم لك إن أختك أشرف من الشرف ولم تقترف ذنبًا، إنها أبنتكم يا ولدي، كيف تظنون بها هذا، غدًا سنذهب إلى الطبيب في القدس وستظهر الحقيقة.

- أين هي إذا؟

- عابدة في غرفة كارولين بالأعلى، ولن يقترب أحدٌ منها، ستذهب معي غدًا إلى الطبيب وتعود مرفوعة الرأس؛ وحتى الغد لن يلمسها أحدٌ.

وقف ياسين لا يستطيع أن يدرك ما يدور حوله، التفت إلى وداد بينما صوت الجلبة في الخارج يسمعه الجميع، تملك الرعب من إبراهيم الصباغ.. كل الحوادث في تلك القرية تهطل على رأسه وباتت تهديدًا مباشرًا لحياته، بات يشعر أنه مُدان من الجميع وعليه أن يقضي ذلك الدين.

كانت أصوات صريخ تنطير من كل مكان في القرية، لم يمضِ الكثير حتى دخل أبو محمود وقد بدا عليه علامات الخوف وهو يقول للسيد إبراهيم الصباغ:

- لقد سقطت (القسطيل) في قبضة اليهود، واستشهد القائد عبد القادر الحسيني، الخبر وصل حاليًا مع باسل الذي أتى بالسلاح وشباب القرية تجتمع عند عم يونس يتسلمون الأسلحة، الجميع بات في حالة تأهب، بالتأكيد دير ياسين هدفهم القادم.

كان الخبر صادمًا للجميع، لم يستطع أحد أن ينطق ببنت شفة، وداد ما زالت تلطم خديها بعد تلك الأخبار التي تهطل على رؤوسهم، بينما يتقدم منها ياسين قائلاً:

- هذا ليس مكاني يا أمي، مكاني مع شباب القرية يجب أن ندافع عنها، سيهجم علينا الصهاينة في أي وقت، لا تجعليني مشغولاً على ابني، دعيني أدافع عن أرضي.

كان إبراهيم الصباغ يشعر بأن في رقبتة نحو قاسم، ديناً لم يكن عليه ولكن شاعت له الأقدار أن يسدده هو، أراد أن يكمل جميله، وأن يعيد شمل هذه الأسرة مرةً أخرى مستغلاً تلك الحالة التي جعلت من الجميع يغض الطرف عن خلافاتهم الشخصية في مواجهة الخطر الصهيوني على أرضهم:

- أما أن أن تعود المياه إلى مجاريها يا أم ياسين وأن تحتضني ابنك في دارك مرة أخرى؟

كانت نظرات الغضب بادية على وجه وداد بمجرد أن بدأ الحديث عنه، التفتت إلى ياسين وهي ترد على إبراهيم:

- ابن اليهودية لن يدخل بيتي.

- ولكنه حفيدك يا أم ياسين، استهدي بالله ولمي شتات أسرتك التي حافظت عليها، لتكمل فرحتنا غدًا ببراءة عابدة.

التقط ياسين طرف الحديث، أراد أن يسترق قلب أمه له:

- ولكنه ابني يا أمي، نحن من سنربيه، أسميته (قاسم)، وسيعمر البيت إن شاء الله علينا بالذرية الصالحة.

استكمل إبراهيم الحديث، يريد أن يطرق على الحديد وهو ساخن، تلك اللحظة التي لا يستطيع فيها أي عقل أن يستوعب ما يدور حوله:

- هيّا يا أم ياسين احتضني ابنك وحفيده، ما لنا وأمه، الولد ولدنا ولن نتركه لليهود يربونه.

- ولكنه يحمل دماء يهودية.

- ولكن سيحمل اسم قاسم، لا تتخلي عن دمك ولحمك يا وداد، ليس هذا عهدي بك، ولا تجعلي نيران الحقد تعمي قلبك عن الحق، الولد ولدنا.

التفتت وداد إلى ياسين تخاطبه في لهجة أمر تحمل في طياتها الموافقة:

- ولكن تلك اليهودية لن تدخل بيتي.

- موافق يا أمي، سأصطحب قاسم فقط إلى الدار.

- وهل توافق هي؟

- هي من طلبت ذلك، انظري إلى طيبة قلبها.

أخذت وداد الصبي الصغير وهي تتأمل نظرة البراءة في عينيه، نظرة لم تدنسها أقداد البشر وشرورهم. أحبته منذ أول نظرة لا شك، حفيدها الذي باتت تتمناه، لم تستطع أن تبغضه لكرهها لأمه. نظر ياسين بسعادة إليها وهو يقبل يدها ويقول لهم:

- يجب أن أذهب الآن إلى شباب القرية، يجب أن نوحّد صفوفنا ضد الصهاينة.

غادر ياسين البيت بينما توجه إبراهيم إلى وداد قائلاً لها:

- يجب أن تستريحي بعض الشيء يا أم ياسين، اليوم غداً سيكون شاقاً.

- لا مكان للراحة يا سيد إبراهيم، سأذهب مع الصغير للدار وفي الصباح نذهب مع عايدة للطبيب. أما الراحة فتأتي مع الموت.

قالتها وهي تغادر المكان قبل أن تلتفت إليه مرة أخرى تقول له:

- سيد إبراهيم، أشكرك لكل ما تفعله من أجلنا، كنت نعم الأخ.

تبادل معها ابتسامة ود وهو يقول في رأسه:

«ليت نظرتك تظل هكذا عندما تتكشف الأمور غداً»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(7)

كان خبر استشهاد عبد القادر الحسيني كالصاعقة التي نزلت على رؤس كل أهل القرية، كأن كل بيت فيها فقد حينها عزيزاً، ساد الصمت والترقب بين الجميع، بات الخوف يسيطر على العيون، حتى تلك الساعة التي كانت تزدحم فيها طرقات القرية بالماره الذاهب والآتي من عمله، كانت شبه خاوية تماماً من المارة، أصبح خبر الهجوم على القدس أمراً واقعاً بعد استشهاد الحسيني وسقوط (القسطيل)، الجميع يعلم أنها بضع ساعات وستهاجم عصابات الصهاينة القدس من كل صوبٍ و حَدَبٍ، ومنها مدخلها الغربي دير ياسين، تلك القرية المجاورة للقدس والتي باتت جميع ضحاها مهددة من خطر العصابات الصهيونية التي أصبحت كوحش كاسح لا كاحب لجماحه ولا رادع له.

كان عليه أن يذهب إلى منزل عم يونس حيث شباب القرية مجتمعون كما أخبرهم منذ قليل أبو محمود، لا يدري كيف سينظر في وجه إسماعيل مرة أخرى، لو شاهده حتى في المعركة سيقتله بيده، ولكن إذا كان حقاً رجال القرية جميعهم عند عم يونس الآن هل يعقل أن يكون أولاد سليم أبو زيد أيضاً هناك؟! ليس أمامه مفر من المواجهة.

كان المشهد كما توقع تماماً، ازدحام أمام باب الدار وتحت التعريشة، يلتف الشباب والرجال في جلسات خماسية وسداسية يتبادلون الحديث، بينما يقف في المنتصف باسل - والذي يبدو أنه لم يعرف بما حدث صباح اليوم أو ربما عرف وغض الطرف عن تلك الخلافات أمام هذا الخطر الأكبر - أمامه مجموعة من البنادق الآلية والذخيرة بينما يقف على جانب آخر الدرويش الذي استقامت قامته وبدأ يشرح كيفية استخدام الأسلحة لبعض الشباب الملتقين حوله وهو يشد أجزاء بندقية آلية بيده. كان على حق، لم يتطلب منه الأمر كثيراً حتى استطاع التعامل مع نوعيات المختلفة من الأسلحة التي جاء بها باسل، وبدأ يعرف شباب القرية كيفية استخدامها.

بات ياسين يبحث عنه وسط الجموع، تجنّب لقاءه، اكتفى فقط بأخذ السلاح من باسل بمجرد وصوله، بينما كان باسل يوزع مهام الرقابة الليلية على أبناء القرية تحسباً لأي هجوم من الصهاينة في تلك الليلة، يخبرهم أنه سيأخذ موقعاً عند مدخل القرية تحت شجرة الزيتون للمراقبة هناك.

همّ يغادر المكان بسرعة قبل أن تلتقي عيناه بإسماعيل حتى استوقفه عم يونس منادياً عليه، كان ياسين قد أعطى ظهره إلى الورشة مغادراً المكان، فاستوقفه النداء، لم يستطع أن يتحرك كذلك لم يستطع أن يلتفت إلى عم يونس يجيب النداء، فاقترب منه عم يونس يربت على كتفه هو يقول له:

- إسماعيل صديقك بالناحية الأخرى من البيت يا ياسين، ألن تذهب لتتساور معه؟

- ليس لدي أصدقاء يا عم يونس، وأخبر إسماعيل أنني لو التقيت به سأقتله.

قالها ياسين وقد همّ يغادر المكان بينما استوقفته كلمة عم يونس:

- إذا فقد نجحت جانبيت والصهاينة فيما يريدون، فرّقوا بين شباب القرية حتى تكون مضغة صائغة لهم.

صمت عم يونس برهه قبل أن يكمل:

- كلاكما يحتاج إلى الآخر، كلاكما يشدد عضد أخيه يا ولدي، أنت وإسماعيل كهارون من موسى عندما قال لرب العالمين (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) استمع له ياسين جيّدًا، ختم الآية القرآنية بقول «صدق الله العظيم» وهو يكمل حديثه:

- لا يعلم الغيب إلا الله يا عم يونس، فلننظر ماذا في انتظارنا غدًا.

قالها ياسين وقد أعطى ظهرة إلى عم يونس مرة أخرى يغادر المكان متوجها إلى موقع حراسته تحت شجرة الزيتون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس ياسين تحت شجرة الزيتون يتكى على سلاحه شارده الزهن، يتأمل تداعيات ذلك اليوم، كانت الأحداث أكبر من أن يدركها عقله، أخطاء قلبه لا ينكر، بات الآن هو الخاسر الوحيد في هذه المعركة أيًا ما كان نتيجتها، سيخسر أحدًا ممن يحب. إما نفسه وطفله وإما إيلان، أو تمتلك نيران الانتقام من قلبه ويقتل إسماعيل بمجرد أن يراه غدًا.

بينما هو شارده الذهن اقتربت منه إيلان. تمنى أن تستطيع أن تقنعه بالأمر، إنها فرصتها الأخيرة. تقدمت نحوه، وما إن شاهدها ياسين حتى قام من مكانه متوجها إليها، كان يشعر بالغضب أن يراها أحدًا معًا في مثل تلك الأحداث، ولكن ما دعاها إلى المجيء إليه الآن؟

اقتربت منه إيلان، رسمت الانكسار في نظراتها إليه، انتقلت عيناها من عينيه إلى البندقية الموضوعة على كتفه بينما تقول له:

- لقد أصبحت مثلهم يا ياسين، كأني أرى بن تيسون، كلاكما متحفز للآخر، ينتظر تلك اللحظة التي يغفل فيها لكي يجهض عليه، هل هذه الحياة التي حلمنا بها تحت شجرة الزيتون تلك، لم كل الحقد هذا في أرض السلام!؟

- حقًا لا تعلمي يا إيلان لما كل هذا الحقد، أننا ندافع عن أرضنا، عن شرفنا، عن عرضنا، تلك أشياء ربما لا تعلمينها. إن الإنسان الذي تربى في كنف الذل والاستعباد لن يفهم أبدًا شرف الجهاد في سبيل أرضه.

- دعنا نهرب من ذلك الجحيم كله ونعيش بعيدًا عن خلافاتهم التي ليس لنا طائل منها، دعنا نربي ابننا في سلام بعيدًا عن مكرهم. لقد حان الوقت أن نبدأ من جديد.

- ولكنهم أهلي يا إيلان، وأرضي ولن أتركهم.

- وابني تقضي عليه؟! إذا اشتعلت نيران المعركة لن ينجو منها أحد ولا حتى الأطفال. لو كنت أعرف أن هذا مصيره ما كنت سلمته لك، لقد أعطيتك لك كي تربيته على الحب، على السلام، وليست على نظرة الحقد والغضب التي أراها في عينيك الآن، ما الفرق بينك وبين تيسون، كنت تركته له يربيه طالما سينشأ على الحقد والغضب من كليهما؟!!

- لكنه ابني، ولن أتخلى عنه يا ايلان، لن أتركه يتربى في كنف اليهود، ابني ومصيره سيكون مثل مصير أهله. كما هذه الأرض أرضي وسأموت وأنا أدافع عنها.

أخذت إيلان نفساً عميقاً، بيد أن الحوار معه لن يفيد، سيدمر ياسين كل شيء، كانت فرصتهما الأخيرة ولكن كان مصرّاً أن يضيعها، قالت له في لهجة رجاء:

- ياسين، إذا كان الحقد قد ملأ قلبك فأعطني ولدي أهرب به بعيداً عن نيران حقدكما التي ستحرق الجميع، أعطني ولدي وأعاهدك أن لا يربيه اليهود، سأذهب به بعيداً ولن يعرف أحدٌ عنّا شيئاً. لا تعاند يا ياسين، اذهب وأحضر قاسم، تلك آخر فرصة لكلينا. سيموت الجميع غداً، ستباد القرية عن بكرة أبيها في الصباح، لقد اتخذ هؤلاء المجرمون القرار ولا مفر منهم.

- جئت تساوميني بين الولد أو الأرض وأنا اخترت كليهما. انتهى الكلام يا ايلان، لن نسلم الولد، ولن نسلم الأرض، وسنحارب حتى الموت. أخبريهم أن دير ياسين لن تستسلم، أخبريهم أن دير ياسين ستقاتل حتى الموت، ستقاتل حتى نفاذ الذخيرة.

قالها ياسين وقد أعطها ظهره وقد عاد مرة أخرى إلى مكانه تحت شجرة الزيتون يتأمل في سكون الليل بيوت القدس وقبتها الذهبية التي تزين أفقها وهو لا يعلم أي مصير سيكون بانتظاره في الغد. بينما ايلان تنتظر له بكل حقد وقد تضاعل جسده في الأفق البعيد وهي تقول في نفسها:

«أنت من جنيت على نفسك يا ياسين، أما ابني فسيعود لي سالمًا، فلا تلومن إلا نفسك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(8)

مشهد خلفي

القدس المحتلة - (ירושלים הכבושה)

8 إبريل - نيسان 1948م

22:00 بتوقيت القدس

مقر جماعة شتيرن

(לח«י - לוחמי חרות ישראל)

أضاءت شمعدان (المينوراه) السباعي تعكس إضاءة خافتة على الحائط الأمامي تلقي بظلال بن تيسون الذي يغطي صورة تيدور هرتزل بلحيته الشهيرة وقد بدت ابتسامة الثقة بادية على وجهه وهو يتحدث معها:

- لقد أديت دروك باقتدار يا إيلان.

- فعلت كل المطلوب مني كما تريد، الآن دورك أن تقي بما وعدت، أريد ابني، لقد وعدتني أن لا يصيبه مكروه وأن تعيده لي.

- رغم أنك من فررت به، ولكن هذا قدرنا أن نصح كل أخطاء الماضي، اطمئني يا إيلان، الولد ولدنا، يهودي مثلنا، ودماء أبيه لن تتجسه، فاليهودي من ولد لأم يهودية، حتى ولو كان ملحدًا، هذا هو القانون في دولة إسرائيل الجديدة.

- ولكن القرية لن تُسلم، وأهلها مُصرون على القتال.

كأن هذه الكلمة قد زادت من ابتسامة الثقة لديه وهو يتحدث معها:

- وهذا ما نريد، حتى نفعل بهم ما نريد، ستكون دير ياسين غداً عبرة للعرب أجمعين، وسيعلم الجميع مدى قوة الحركة وأن قيام مملكة إسرائيل الثالثة بات واقعا لا مفر منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الحادي عشر

دير ياسين ٦١٦١٥١
09 إبريل - نيسان 1948م

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(1)

03.00 فجرًا

كان السكون يخيم على القرية، الكل في حالة صمت وترقب، أغلقت الدور على أهلها ومنع الأطفال من اللعب أمامها مع حلول المساء، اجتمعت بعض العائلات في منزل واحد على السكينة تسكن جمعهم، بينما اجتمع شباب القرية بأسلحتهم يؤمنون مداخلها؛ ياسين ما زال يمكث تحت شجرة الزيتون في مكانه الذي اختاره متكئاً على فوهة بندقيته بجواره العريف حسن، بينما إسماعيل بجوار عم يونس تحت تعريشة العنب بعد أن أغلق المصباح الكهربائي فغرقت القرية في ظلام دامس، منع الأهالي أبناءهم من الذهاب إلى المدرسة في ذلك اليوم حتى تنزاح تلك الغمة. حتى لحظات الحزن على استشهاد عبد القادر الحسيني تنازعتهم فيها مخاوفهم من الهجوم الوشيك.

رغم ذلك استيقظ في موعده عاصم زوج سحر، التي شعرت بحركته، تقدمت منه وهي تتعجب من سبب استيقاظه في مثل هذه الساعة:

- هل تنوي أن تفتح الفرن في مثل هذه الظروف؟

- ربما يمر اليوم بسلام، الناس تحتاج إلى الخبز ولن نجلس في بيوتنا مثل النساء.

لا تعلم سحر بماذا تجيبه، تركته ولكنها أصرت أن لا يأخذ ابنها سليم معه فوافق، كانت القرية تبات في سبات عميق إلا من نباح الكلاب الشاردة في الشوارع، أو بعض هسيس الرياح التي لا تبشر بخير.

تقدم عاصم نحو الفرن في تلك المنطقة الخالية على أطراف القرية، وبمجرد أن سُمع صوت المفصلات الحديدية من بوابتها حتى لفتت انتباه أحد الشباب الذي اتخذ موقع حراسة بالقرب منها والذي كان يتتبع بحذر تلك المستوطنات القريبة على مرمى البصر؛ لا يعلم لماذا فعلها ولكن انطلقت من فوهة بندقيته طلقة في الهواء، كانت كطلقة مدفع مدوّ في ظل هذا السكون؛ فأيقظت الجميع.

ارتعدت فصائل عاصم وهو يرفع صوته بالحديث:

- أنا عاصم زوج بنت سليم أبو زيد، أنا عاصم جئت أفتح الفرن.

اقترب مجموعة من الشباب من الجهة الأخرى نحو صوت إطلاق النار كان ذلك الشاب قد اقترب من عاصم بعد أن تجمع حوله باقي الشباب هم يتساءلون:

- لماذا أطلقت الرصاص، لعلهم يعتبرونها إشارة هجوم أو يعتبرونها اليهود اعتداء عليهم؟!!

- هناك حركة غريبة لاحظتها منذ قليل بالقرب من مستعمرة (جفعات شاؤول) خرجت من اتجاههم قرابة عشر سيارات باتجاه القرية ولم يتسنّ لي من ظلام الليل تتبع سيرهم بعد ذلك، ومع سماع صوت المفصلات الحديدية خشيت أن يكونوا اقتربوا من هنا فأطلقت النار.

تركهم عاصم بينما استكمل فتح الفرن، وما إن عاد الشباب حتى سُمع صوت إطلاق نيران كثيف هذه المرة من الجهة المقابلة لهم، التقت الجميع إلى صوت إطلاق النار وقد بدأوا في الرد عليها بصورة عشوائية. حينما لاذ عاصم داخل الفرن يحتمي من نيران الرصاص المتطاير من حوله في كل مكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(2)

03.15 صباحًا

كان صوت إطلاق النيران إعلانًا عن بداية الهجوم، اجتمع كل شباب القرية نحو مصدر النيران كل يحتمي خلف ساتر يقيه من الرصاص. لأول مرة تلتقي عين إسماعيل مع ياسين، كان الموقف أكبر من العتاب أو المصارحة، همَّ إسماعيل يتحدث معه فقطعت محاولته طلقة اقتربت من كتفة، تفادها بحركة لا إرادية، فارتد كلاهما يحتميان خلف ساتر من التراب على جانبي الطريق.

كان تبادل النيران كثيف، وقف العريف حسن في المقدمة ينظم الرجال في صد الهجوم القادم بكل استبسال، بينما تسلل باسل واعتلى أسطح أحد المنازل برفقة شابين حينما شاهدوا تسلل بعض أفراد العصابة الصهيونية يتسلل عبر الأزقة الضيقة للقرية. كانت أعين باسل تترصد لهم، فبينما الجميع منشغل بالرد على الإطلاق العشوائي للنار إذ صوّب باسل بندوقيته نحو هؤلاء المتسللين فأردت أدهم قتيلاً بينما هرب الباقي مذعورين.

انطلق العريف حسن يقود المقدمة مستغلين غطاء باسل ورفاقه من أعلى سطوح المنازل يتتبع تلك العصابة التي لاذت بالفرار فسقط منهم اليهود عددًا ما بين قتلى وجرحى.

كان الجميع واثقًا من النصر زادت الروح المعنوية لهم خصوصًا بعد أن انضم إليهم باقي المجموعات تصد ذلك الهجوم القادم من مستعمرة (جفعات شأول).

استمر تبادل إطلاق النار بين الطرفين لما يقرب من ساعة كاملة وقف فيها أبناء دير ياسين بكل طاقتهم في وجه ذلك الهجوم الإرهابي من تلك العصابات، أبلى الجميع بلاءً حسنًا، كان صوت صرخات الصهاينة وهم يتساقطون بين قتيلاً أو جريح ترفع الروح المعنوية أكثر وتشد الهمم، كانت عملية صد الهجوم تسير على أكمل وجه، لم يتخيل أبناء القرية وشبابها قدرتهم على صد ذلك الهجوم لهذه الفترة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الناحية المقابلة كان بن تيسون بدأ يفقد أعصابه، لم يتخيل أن يستطيع أهل القرية صد ذلك الهجوم وتكبيدهم كل هذه الخسائر في الأرواح. قاد الكثير من العمليات التابعة للوكالة اليهودية ولكنها كانت كلها مجموعة من الاغتيالات السياسية والتفجيرات الإرهابية البسيطة لم تصل إلى حدّ مثل ذلك الهجوم الشامل المنظم على قرية، بدا للوهلة الأولى أن أهلها كانوا مستميتين في الدفاع عنها.

ليس هذا كل ما يقلقه؛ اتخذ قرار الهجوم على القرية بمفرده بعيدًا عن الهجاناه ولا يريد الآن أن يصبح تحت نيران كيدهم وتشفيهم فيه، بعد أن يفلت من نيران أهل القرية، أقسم إنه لن ينسحب بينما كانت أعداد الإصابات من حوله في تزايد حتى أصبح أمر اقتحام القرية مع تلك المقاومة أمرًا مستحيلًا، وصل الأمر إلى انسحاب بعض العناصر الصهيونية من المواجهة وفرّت كما تفرّ الشاه من ذابحها، فلم يجد

مفراً إلا إصدار أوامر بالانسحاب على أمل أن يصل إليه الدعم من الهاجاناه!
بالتأكيد لن يتركوه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(3)

03.30 صباحًا

أيقظت أصوات تبادل النيران أهل القرية كلهم، احتضنت كل أم طفلها، بينما سارع بعض الرجال الذين تخلفوا عن الاشتراك في المقاومة بالانضمام إلى شباب القرية. عم يونس بدا أكثر شبابًا، يقف بجوار كلبه بعينين مترصدتين، في يده سلاحه بينما إسماعيل يقف على الجهة المقابلة له يتبادل معه نظرات الود، يريد أن يمتع عيناه بملامح وجهه أكبر قدر ممكن، فربما لا تلتقي العينان بعد يومهم هذا.

توجه ياسين بأوامر من باسل إلى بعض بيوت القرية يجمع نساءهم في المسجد الكبير، يجب أن تؤمن النساء بعيدًا عن نيران تلك العصابات، فبدأت الحركة أسرع في القرية بينما النساء يغادرن بيوتهن إلى المسجد مع شروق شعاع الشمس الأول على القرية.

تقدم ياسين ليصطحب أخته من بيت السيد إبراهيم ثم توجه إلى أمه ليأويهم مع باقي النساء في المسجد، كانت أول مرة ياسين يشاهد فيها عايده منذ ليلة أمس، لا يعلم كيف يقابلها وأي حديث يخبرها، كانت تهرب من نظراته إليها، تطمح أن يطمئننها أنه يثق في براءتها وسيدافع عن شرفها كما يدافع الآن عن شرف القرية، ولكنه لاذ بالصمت، بينما خرجت له وداد تحمل صغيره فلم يتمالك تلك الدمعة من عينيه وهو يقولها:

- لا تتركهم يأخذونه يا أمي، لا تتركه لليهود.

تقدمت منه وداد، لم يتوقع أن توبخه كعادتها، كانت قوية دائمًا، ألفها السند في الشدائد وهي تقول له:

- اذهب بأختك الآن واتركها مع النساء، ودعني أنا في البيت، علمهم يظنون أنه فارغ إن هجموا. لا يجب أن يكون الرضيع مع النساء في مكان واحد. لربما كانوا يبحثون عنه الآن؛ حتى إذا اشتد القتال سأفر به هرباً خارج القرية.

صمتت وداد لحظة وهي تتأمل ملامح حفيدها وتغالب دمعة كانت في عينيها بينما أكملت حديثها مع ياسين:

- اطمئن يا ولدي؛ لن يأخذه اليهود أبدًا حتى لو كنت جثة هامدة.

تأمل ياسين نظرة أخيرة من صغيره الذي لم يترك له الوقت فرصة للاستمتاع بهذا الوجه البريء الذي يغالب النوم على ذراع جدته، تقدّم منه يقبل جبينه قبل أن يلتفت إلى عايده يصطحبها معه.

كانت عايده تسير بجواره بحركتها البطيئة تسند ذراعها عليه وقد ظهرت عليها علامات الحمل في شهرها الأخير يتوجهان نحو المسجد الذي تركها على بابه بينما شاهد إحسان تدخل خلفها مصطحبة امرأة منتقبة الوجهة لم تظهر ملامحها.

كانت عين ياسين تتابعها وقد شعر ببعض الراحة، ربما وجود إحسان بجوارها يعوضها غياب وداد التي تحاول أن تفر بالرضيع الآن من نيران اليهود بينما أغلق باب المسجد على من دخله من النساء حتى عاد إلى مكان حراسته في انتظار ما ستسفر عنه اللحظات القادمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفضت حياة زيدان أن تترك البيت، كانت تخشى على أحفادها، أقسمت أن لا تترك البيت كما رفض أهل القرية ترك ديارهم. وقفت في وجه سليم أبو زيد وهي تطلب منه ألا تغادر البيت فلبى طلبها على عجلٍ بينما كان يرتدي ملابسه للانضمام إلى شباب المقاومة، اجتمعت حياة مع زوجات أبنائها وأحفادها الخمسة في الردهة الرئيسية للدار بينما غادر البيت سليم أبو زيد، حينما تركتهم سحر وأصرت أن تذهب إلى الفرن كي تطمئن على زوجها بينما تركت ابنها سليم في صحبة حياة في البيت التي جلست تراعي الأطفال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقدّم إبراهيم الصباغ - الذي كان على يقين أن تلك الليلة لن تمر بسلام منذ بداية أحداث الأمس - من أبو محمود يطلب منه أن يصطحب جانيت إلى المسجد حيث تختبئ النساء، وإن أراد أن يختبئ معها فلا يخجل، تقدّم منه أبو محمود يقول له:

- سأذهب بالسيدة جانيت إلى هناك وأعود لك، لن نفرقنا إلا الموت يا سيدي.

كلمة خطفت قلب إبراهيم، لم يكن لديه شك في إخلاص أبو محمود وحبه له، بينما ارتمى جسده على الأريكة ينتظر مصيره حتى سمع صوت أبو محمود ينادي عليه من أعلى السلم:

- لقد هربت السيدة جانيت، لا يوجد لها أثر في البيت، وخزانة ملابسها فارغة.

تجهم وجه إبراهيم الصباغ وهو يسمع تلك الكلمات بينما يعلو نفسه وهو يقول:

- هربت الخائنة بعد أن لطخت القرية كلها بعار الصلح مع اليهود، فلا نالت شرف الشهادة، ولا تركتني أنال شرف الجهاد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(4)

04.25 صباحًا

كانت علامات السعادة بادية على وجه (دافيد شالتنيل) قائد الهاجاناه وهو يستمع إلى أخبار صد الهجوم الذي منى به بن تيسون الذي وقف بين يديه ذليلاً وهو يشرح الموقف:

- لا يمكن أن نترك لهؤلاء القرويين العرب تحقيق ذلك النصر علينا، إذا لم نستطع أن ندخل تلك القرية اللعينة اليوم لن تقوم قائمة لإسرائيل في هذه الأرض، سيتجرأ علينا العرب. علينا أن نحرق القرية بأهلها حتى تكون عبرة لهم أجمعين، ونزرع الرعب في قلوبهم، حينها سندخل كل القرى المجاورة بكل سهولة بعد أن يدب الرعب في قلوب العرب.

علامات التشفي ظاهرة على تلك الابتسامة وهو يستمع من بن تيسون مدى استبسال أهل القرية في الدفاع عنها.

- لقد تصرفت بمفردك يا بن تيسون، ظنت جماعتي شتيرن والأرجون أنهم يستطيعون أن يحققوا انتصار بدون الهاجاناه؟

- ليس الوقت تصفية حسابات يا عزيزي، علينا اقتحام القرية في أسرع وقتٍ قبل أن يعاود القرويون تنظيم صفوفهم.

- وحتى لو أعادوا تنظيمها، لن يستطيعوا أن يقفوا في مواجهة الهاجاناه، ستعطي الهاجاناه اليوم درساً للجميع عن مدى قوتها.

التفت شالتنيل إلى الهاتف المجاور له وتحدث بصوت مسموع وهو يطلب دعم غير محدود من (البالماخ)، مدعمة بصوايخ (الهاون) لمساعدته جماعتي شتيرن والأرجون في اقتحام القرية حتى ظهرت علامات الرضا على وجه بن تيسون عندما سمع اسم (البالماخ): جناح العمليات الخاصة في الهاجاناه. هم يغادر المكان بعد إلقاء التحية العسكرية على (شالتنيل) وتبادل معه ابتسامة النصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(5)

02.45 صباحًا

قبل تلك الأحداث كانت جانيت قد استعدت جيدًا وحزمت حقائبها في غفلة من الجميع، فبعد أن غادرت وداد المنزل، وإبراهيم يغلق عليه غرفته ولم تشاهده، كان سكان القرية ساعدها على التسلل دون أن يلاحظها أحدًا سالكة أحد الدروب الضيقة ومنها وجدت نفسها خارج القرية من الجهة المقابلة للمعسكر البريطاني والذي كان الجميع في حالة تحفز واستنفار - على غير العادة - ألفتها جانيت بينما كانت تلاحظ تلك السيارات المحملة باليهود تسير باتجاه القرية وهي لا تبالي، فبعد بضع سويغات ستكون تركت فلسطين كلها.

استقبلها ديفيد بوجه كئيب، بيد أنه لم يكن في أفضل حالاته، حتى ابتسامة الود تلك التي حاولت بها جانيت أن تلطف لقاءه ما كانت تغني في الأمر شيئًا. وقفت لبضع لحظات لا تعلم كيف تتصرف حتى تحدث إليها أخيرًا بلهجة خالية من الشعور، كان شارد الذهن يريد أن ينهي الموقف كله بأقصى سرعة:

- جانيت في انتظارك سيارة تابعة للجيش البريطاني في الخارج جاهزة، استقلها عبر طريق الجبل ومنها إلى لبنان، لن يعترض طريقك أحدًا، وهناك امكثي بضعة أيام حتى أتصل بك.

كانت لهجته تنير الريبة في قلبها ولكنها لم يكن أمامها حلٌّ آخر، حتى سلام الوداع كان يأنف عنه بينما خرجت من عنده تجر جر أذيال الخيبة من ذلك اللقاء الفاتر وهي تستقل السيارة التي فتحت لها بوابة المعسكر الرئيسية بمجرد أن اقتربت منه حتى نست ذلك الاستقبال الفاتر الذي منذ لحظات مع سماعها صوت تبادل إطلاق نار كثيف من داخل قرية دير ياسين بينما انطلقت تقود تلك السيارة بأقصى سرعتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(6)

05.00 صباحًا

وقف باسل وسط شباب القرية المجتمين والفرحين بذلك النصر يتأمل وجوههم وهو يستمع إلى أصواتهم التي كانت تحكي حكايات لا تخلو من مبالغة في أعداد القتلى حينما أعاد الحديث مرة أخرى في الجميع بصورة أكثر حزمًا.

- إن المعركة لم تنته يا رجال، إنها بدأت لتوها، لن تقبل تلك العصابات هذه الهزيمة، سيعاودون الهجوم مرة أخرى، وبصورة أشرس، يجب أن نستعد لهم.

بينما كان يستكمل كلامه ويعيد توزيع الرجال على نقاط الحراسة حتى سمع صوت سيارات قادمة من الجهة الشرقية للقرية استرق السمع حينما لاذ الجميع بالصمت وهو يقول:

- أتوا من هنا لا يجب أن لا نذهب جميعنا إليهم حتى لا يكون كمينًا للفت انتباهنا والهجوم علينا من جهة أخرى.

كانت أصوات السيارات المصفحة يرتفع يعلن اقترابهم من القرية بالتزامن مع صوت طائرة حربية تطوف في سماء القرية بينما تزداد دقات قلب الرجال من موجة الهجوم الثانية والتي كانوا على يقين أنها ستكون أعنف من الأولى، حتى هدأت الأصوات وترقب الجميع.

دوى انفجار قذيفة بالقرب منهم تفرق معها الجمع، تأمل باسل مكانها وهو يقول بفرع:

- احترسوا معهم مدافع هاون.

لم تمر بضع ثوانٍ حتى تتابع تساقط قذائف الهاون من كل اتجاه تبعه إصدار نار كثيف مع ظهور بعض عناصر (البالمخ) يتقدمون الهجوم خلف سيارة مصفحة.

كانت اللسنة اللهب المتصاعدة جراء قذائف الهاون والتي فرقت الجمع تمنع الرؤية عن باسل، انطلقت رصاصات المقاومة في جميع الاتجاهات بدون هدف لبضع دقائق سُمع خلالها أصوات صراخ وتساقط للقتلى في نواح متفرقة.

تقدم باسل من ذلك الدخان حاول اختراق الصفوف، كان يحاول أن يشد من أذر الرجال حتى وجد بجواره والده سليم. كانت نظرة السعادة بادية على وجهه، ربما لأول مرة يتشاركان في أمر واحد، ويجمعهم الهدف ذاته. كانت الرصاصات تتطاير حولهم من كل مكان، وجود سليم بجواره زاده شجاعة وإصرارًا، حاول أن يقوم بعملية فدائية؛ اختراق صفوف العصابات التي بدأت تتقدم مع تراجع أهل القرية الذين بدأوا يفقدون الكثير من الذخيرة والتي بدا أن قدرتهم على المقاومة قد تضاءلت.

أمسك باسل في يده قنبلة يدوية جذب فتيلها وتقدم من تلك السيارة المدرعة التي كان يحتمي خلفها الصهاينة يلقي عليهم القنبلة قبل أن تنفجر بمن فيها ويعود مسرعًا،

انطلقت عدة رصاصات من مدفع رشاش من سيارة مجاورة لها في ظهر باسل المكشوف تماماً دون أيّ حماية فاخرقت الرصاصات ظهره فسقط على الأرض بينما تكافح قدماه أن تحملاه زحفاً وصولاً إلى مخبأ رجال المقاومة.

كان صدرُ سليم أبو زيد هو من التقفه، ضمه إليه بشدة، لا يتخيل أن تلك النظرة يمكن أن يشاهدها في عين والده، تلك النظرة والتي إن كان عطف بها عليه من قبل، لربما كان يقبل الأرض تحت قدميه طول عمره. كانت يد سليم أبو زيد الغليظة تؤلمة كآلم الرصاص في أحشائه ولكنها كانت كذلك تعطيّة الاطمئنان، جاهد نفسه حتى نطق أخيراً.

- كنت أتمنى أن أرى تلك النظرة في عينيك يا والدي من قبل، كنت دوماً أتمنى أن تكون فخوراً بي.

- لطالما كنت فخوراً بك يا باسل، ما فعلته سيظل فخراً لفلسطين بأكلمها. قُم واستكمل كفاحك سننتصر عليهم. لا تمُت يا باسل. هَيَّا قُم وحارب وأنا في ظهرك يا بطل.

تبادل ابتسامة هادئة مع والده، ارتعش الجسد ارتعاشته الأخيرة قبل أن يشعر سليم أبو زيد بميل رأس ولده على ذراعه مفارقاً الحياة.

انطلقت صرخة ألم مكتومة في صدر سليم أبو زيد، ضم جثة ابنه إلى صدره وهو ما زال يردد كلماته «لطالما كنت فخوراً بك يا باسل». حمله على ذراعه كشاب يحمل رضيعه، لا يعبأ بتلك النيران المتطايرة من حوله صار وسط تهديدات الموتى وصرخات الفزع من أهل القرية قاصداً داره.

(7)

06.15 صباحًا

أطلقت جانبيت العنان لمحرك السيارة يقودها بين طرق الجبال الملتوية، كان منظرًا خلابًا تطرب له الأنفس، نسيت من جمالها نفسها والسيارة تنطلق بأقصى سرعتها قبل أن تعود لرشدها تحاول تخفيف من سرعة السيارة، ضغطت ببطء على مكباح السيارة، لا يوجد أي تأثير لتلك الومضات البطيئة من قدمها، مع زيادة دقات قلبها تزداد شدة ضغطتها على مكباح السيارة حتى وصلت لقوتها ومعها تيقنت أنها لا تعمل، فقدت جانبيت تحكمها أعصابها وهي تحاول أن تضغط بكل قوتها أن توقف السيارة ولا سبيل، حينما فقدت سيطرتها على عجلة القيادة قبل أن تتقلب بها السيارة من على قمة الجبل مرات متتابعة حتى استقرت أسفل الجبل وقد اشتعلت بيها النيران تمامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقدم سليم أبو زيد يحمل جثة باسل مخترقًا بكل ثبات باب الدار التي كانت في استقباله على بابها حياة، تبادلت النظرات بين عين سليم المغرورقة بالدموع وبين جثة ابنها على ذراعيه، لم يتخل عن اترانه حتى تلك اللحظة، نظر إليها بينما تكافح الدموع في عينيها وهو يقول:

- لا أريد عويل، ابنك بطل، استشهد وهو حامل سلاحه.

اقتربت منه حياة تقبل جبين باسل بينما انطلقت من فمها زغرودة أضنت قلبيهما قبل أن تبدأ بالعويل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الهجوم الذي خطط له بن تيسون أن يتم اقتحام القرية من ثلاث جهات بخمس عشرة عربية مدرعة تحميمهم طائرة حربية وفرقة مشاة، قاد الهجوم من الجهة الأخرى بن تيسون بنفسه من المدخل الغربي للقرية بالقرب من ورشة عم يونس التي اتخذها إسماعيل الذي كان يقود المقاومة في تلك الجهة مخبأ لهم. استمر تبادل إطلاق النيران من الطرفين لم يستطع فيها بن تيسون أن يخترق تلك الجبهة والتي انضم إليها ياسين وترك موقعه تحت أسفل شجرة الزيتون. ما زال يتحاشى نظرات إسماعيل، كل يقف على طرفي الطريق يقود مجموعة من الرجال أمام بعض السواتر الترابية التي تمنع تقدم بن تيسون للأمام، حتى انطلقت قذيفة من تلك الطائرة الحربية التي كانت تطلق فوق القرية ومن بعدها تساقطت قذائف الهاون التي أصابت إحداها الواجهة الأمامية لورشة عم يونس فتساقط حطامها عليه بينما ظهرت ملامحه يكسوها التراب من أسفل الغبار وجسده ملقى تمامًا تحت أنقاض المنزل ينازع الموت.

تقدم منه ياسين يحاول أن يرفعه من تحت أكوام الأتربة والحجارة التي كانت تعيق حركته والتي اختلطت بدمائه، بينما كانت يد عم يونس تدفعه بعيدًا عنه ليقية من

نيران المدافع الرشاشة التي انطلقت بعد تلك القذائف المتتابعة.

- اطمئن يا عم يونس لن أتركك.

- عُد للقتال يا ياسين واطركني، لا تترك ظهر أخيك مكشوفاً.

- لن أتركك يا عم يونس، لن أتركك.

بينما كان ياسين يحاول أن يرفع أكوام الحجارة من فوق جسده الذي بدأ ينازعه الموت حتى شاهده إسماعيل فلم يعبأ بتلك النيران التي كانت تعيق الطريق تماماً متوجهاً إليه.

ما إن شاهد العسكري الصهيوني إسماعيل يعبر الطريق الفاصل بين الجانبين حتى انطلقت من فوهة بندقيته الآلية رصاصة تخترق صدره، ما كانت نيرانها المشتعلة في صدره تمنعه من استكمال طريقه زحفاً والدماء تسيل منه نحو والده، إن كان ليس هناك من الموت بُد فليمت في حضنه، لن يتركه حتى في الموت.

اقترب ياسين منه يجذبه من ذراعه بعيداً من صدى النيران. التقت عينه بعين ياسين، امتدت يده تداعب وجه ياسين وهو يقول له:

- أقسم بالله لم أمسّ عابدة يا ياسين، أختك أشرف من الشرف.

- لا تجهد نفسك بالحديث يا إسماعيل. ليس هذا وقت عتاب.

- لا يهمني أن أموت ولكن كل ما يهمني أن تعلم أنني ما خنت عهداً بيني وبينك.

- أعلم يا صديقي أعلم.. وسنعود أفضل من ذي قبل.

التقت إسماعيل إلى عم يونس، كان ما زال نصفه الأسفل تحت أنقاض البيت يجاهد أن يخرج من تحته، بينما لا يقدر على رفع رأسه خشية من طلقات الرصاص التي كانت تتطلق بغزارة من المدافع الرشاشة. تقدم منه إسماعيل يقبل يده. احتضنه وألقى بجسده فوق جسد أبيه، وما عادت الكلمات تجدي.. سمع ياسين كلمة أخيرة من إسماعيل:

- اهرب يا ياسين، اهرب ودافع عن أختك وولدك.

ثم التقت إلى عم يونس يقول له وقد ظهرت عليه علامات الموت:

- أنا على العهد يا والدي، لن يفرقنا حتى الموت.

انطلقت قذيفة أخرى تصيب منتصف البيت فسقط بأكمله عليهم قبل أن يفر ياسين بأعجوبة بينما دفن تحت أنقاضه إسماعيل ويونس بجوارهما ماكس الذي هدأ نباحه أخيراً منذ بداية الهجوم.

وقف ياسين بعيداً عنهم يشاهد سيارة مدرّعة تخترق مدخل القرية على جثث أبنائها حتى شاهد منظر دهس جثتي إسماعيل وعم يونس معاً تحت عجلات تلك المدرعة التي تختلط بدمائهما.

ألف قائدها، كان بنيامين يقود تلك العربة والتي يقف فوقها بن تيسون بنظرة الحقد التي لا تغادر عينيه منذ أن رآه أول مرة، يمسك بمدفع رشاش يحصد أرواح كل

متحرك من شباب القرية. اقترب منه فراس بن سليم وهو يقول له:

- الامر أصبح مستحيلاً يا ياسين، قُتل باسل، وبات اقتحام القرية شبه مؤكد، علينا أن نهرب النساء والأطفال، سأؤمن ظهرك حتى تستطيع أن تفر وتتقذ النساء.

لم يكن هناك وقت للحديث، ولم يترك له فراس فرصة للرد فخرج ببندقيته الآلية يقف في منتصف الطريق أمام تقدم مدرعة بن تيسون التي انطلقت منها عدة رصاصات من مدفعها أصابت صدر فراس وأردته قتيلاً، إلا أنها كانت كافية لإفساح الطريق لياسين بالهروب.

ترك ياسين المكان خلف ألسنة النيران المشتعلة على مدخل القرية بعد أن تسلل أعلى المباني عن طريق قبابها التي تعلو أبوابها متوجهاً إلى داخل القرية. بعد أن أقسم إنه لم يترك بن تيسون يغادرها حياً بعد أن دخلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اقتحام القرية من الجهة الثالثة كان أقل مقاومةً بعد أن انهارت الهمة على الجبهتين الأخيرين، تقدمت سيارتان مدرعتان تتبعهما فرقة مشاة إلى داخل القرية بجوار بئر المياه دون أدنى مقاومة تُذكر، بدت مهمتهم أسهل، كانوا يقتلون كل من يرونه بدم بارد وهم يتمازحون فيما بينهم، فقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ وباتوا يتلذذون بالقتل كجماعة خارجة في رحلة صيد!

رفضت سحر أن ترافق أمها إلى المسجد، كانت تريد أن تطمئن على عاصم في الفرن لا تعلم كيف سمحت له أن يغادر البيت في هذا اليوم. كان مدخل الفرن يعج باليهود، وقفت على مهلٍ تترصد أعينهم، كانت تمنّي نفسها أن لا يكون حدث ما كانت تخشاه، وأن يكون عاصم قد استطاع الفرار قبل دخولهم القرية. خرج أربعة من اليهود من الفرن تعلوهم علامات السعادة وهم يضحكون، زادت ضحكاتهم رعباً وما إن غادروا مدخل الفرن حتى توجهت إلى الفرن، تمنّت أن يكون فارغاً، وأن يكون عاصم قد استطاع الفرار قبل دخولهم.

كانت ألسنة اللهب موقدة في الفرن بينما رائحة لحم آدمي تحترق بداخله حتى شاهدت جزءاً من ذراع عاصم قد احترق تماماً وتساقط أمامها لترفع عينيها داخل فوهة الفرن تجد جسد عاصم تأكله النيران داخله.

وقفت لا تدري ماذا عليها أن تفعل، حاولت بيديها العاريتين - دون أن تعبأ بالنيران التي قد تمسك بها - أن تجذب جزءاً من جسده لتخرجه خارج الفرن فقطعته، كانت النيران قد أكلت جسده كله وقد بدأت تسمع صوت طقطقة عظامه بداخلها، صراخها كان يسمعه الجميع لفت إليها أنظار العصابة التي كانت غادرت الفرن منذ قليل فعادت إليها.

كانت صوت مدافعهم الرشاشة أسبق حتى من نظرات الرعب في عينيها فأردتها قتيلة قبل أن تملأ النيران كل المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(8)

07.00 صباحًا

في الساعة صباحًا كانت القرية قد سقطت مداخلها جميعًا في يد عصابتي شيترن والأرجون تمامًا، بدأ بعدها التسلل عبر الدروب الضيقة إلى داخلها لتنفيذ باقي مخططهم الإجرامي.

كانت كل العيون تبحث عن الغنائم بينما عين بن تيسون تبحث عن ياسين الذي لاذ بالفرار عبر طرق ملتوية حتى يضمن أن لا تتبعه من خلالها مدرعات اليهود.

كانت طرق القرية خاوية إلا من تلك الشرذمة التي جاءت تعبت فيها الفساد. اقتحمت مجموعة من الرجال منزلًا فوجدوه خاويًا إلا من شيخ عجوز قعيد، فتم قتله قبل أن يحرك حتى ساكنًا، قبل أن يخرج رجل من الشيترن ويتقدم من بن تيسون يقول له:

- النساء جميعهن مختبئات في المسجد.

توجه بن تيسون ومن معه من رجال إلى المسجد، لم يكن هدفهم النساء بقدر ما كان هدفهم جني أكبر الغنائم من هجمتهم تلك، فتوجهت سيارتان مدرعتان برفقة عدد من الرجال إلى المسجد وتم محاصرته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت علامات الفرع تظهر على كل من في بيت سليم أبو زيد. حاولت حياة أن تكون أكثرهم ثباتًا رغم ما يعتريها من رعب من أصوات الطلقات المتطايرة في الخارج.

شاهدت سليم أبو زيد قادمًا من مدخل البيت يحمل جثمان فراس والدمع يملأ عينيه، استقبلت جثة فراس بنفس الزغرودة التي اسقبلت بها جثمان باسل ساوت جثمانيهما على أريكة وابتسامة تملو جبينه بينما يخاطبها سليم وهو يقول لها بمجرد أن اقترب منها:

- أعلم أنك قدر المسؤولية يا حياة، لقد أنعم الله عليّ بك زوجة وسندًا دائمًا، كما أنعم علينا بأبنائنا رجالًا يدافعون عن أرضهم، لا تبكي يا حبيبتي، قطعتان منك سبقتك إلى الجنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بمجرد أن كُسرَ باب المسجد حتى بدأ الهرج يدب بين النساء، تعالت الصيحات والاستغاثات بينما بعد أن تقدم بن تيسون يطلق بعض الأعيرة النارية في الهواء، فساد السكون ونظرات الترقب بينما يتحدث بلهجة عربية بدت مفهومة للنساء بعد أن ألقى على الأرض كيسًا من الخيش وهو يشير إليه قائلاً:

- فلتصطف النساء بجوار الحائط، ولتخلع كل منكن مصاغها وتضع هنا كل ما تمتلك من حُلِي.

كسا الرعب ملامح النساء اللواتي سارعن في خلع مصوغاتهن وإلقائها حيث أمرهن بن تيسون، رغم نظرات الذل والخوف في عيونهن ما زال يفتقر شيئاً.. يريد تلك النظرة في عين ياسين، يريد أن يتمتع بها قبل أن يقتله بيده.

تابع بن تيسون حركة النساء وهو يتفحص وجوههن بنظرات ذئب يوشك على افتراس فريسته، وقفت عايدة التي أضناها التعب من الحمل وقد كادت أن يغشى عليها تسند ظهرها على الحائط، فلفتت حركتها المباغثة نظر بن تيسون الذي تقدم إليها يسندها بيده وهو يتفحص وجهها. كانت علامات الرعب بادية عليها، أمسكت بيدها إحسان التي كانت تقف بجوارها وكأنها تريد أن تطمئننها، لا يمكن أن يكون يريدها، ولكن تلك النظرة في عينيه لا يمكن أن تحمل خلفها سلاماً. فقال لها وابتسامة السخرية على وجهه:

- عايدة أخت ياسين، صحيح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(9)

07.10 صباحًا

جلس إبراهيم الصباغ مستسلمًا ينتظر مصيره، حتى فكرة المقاومة أو حمل السلاح لم تخطر في رأسه، كان يعلم أنها النهاية، نهاية ما اقتربت يده من إثم توقيع ذلك الصلح مع تلك العصابات التي كان على علم أن ليس لها عهد. دنسته جانيت وهربت، وما عاد حتى قادرا على أن يرفع سلاحه يشارك شباب القرية الدفاع عنها كما فعل سليم أبو زيد، فجلس في مكانه مستسلمًا لقدره، بجواره أبو محمود، كان حاله كمرأة له يستمد منه قوته وضعفه، فجلس بجواره في انتظار مصيره هو الآخر.

أصوات العربات المدرعة بدأت تقترب من الحي، بينما إبراهيم الصباغ ثابت مكانه لم يهتز له جفن حتى سمع صوت طرق على الباب بينما يقتحمه عدد من أفراد جماعة الأرجون متوجهين نحوهم مباشرة.

تقدم اثنان منهم يكبلان إبراهيم الصباغ وهما يلقيانه على الأرض، ارتمى جسده المترهل يتأرجح تحت أقدامهم في استسلام كامل بينما يستمع إلى سبابه الذي لم يتحملة أبو محمود فهم يشتبك مع أحدهم دفاعًا عن سيده، كان يفضل أن يموت على أن يشاهد إبراهيم الصباغ يهان بهذا الشكل، وقد نالها. رحم ذلك اليهودي وضعفه - فقتله وهو يحاول أن يدافع عن إبراهيم الصباغ، الذي نزلت من عينيه دمعة على فراقه بينما لم ينطق ببنت شفة وهم يقتادونه إلى مكان غير معلوم تاركًا بيته وهو يعلم أنه لن يعود إليه مرة أخرى حينما بدأ باقي أفراد العصابة في التفطيش ونهب كل ما يمكن سرقة بالبيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

07.15 صباحًا

ما إن اقترب بن تيسون منها لاذت عابدة بالصمت، تأملت كل الوجوه تلك النظرات المتلهفة من بن تيسون إليها وكأنه يعرفها جيدًا، لا يتذكر متى ولا أين رآها، ولكنه يعرفها من تلك المعلومات التي كان يجمعها عن ياسين. اقتربت يده من وجهها يلمسها برفق بينما أشاحت عنها يده بكل قوة وهي تقول له:
- هذا ليس شأنك.

امتدت يد بن تيسون إليها تجذبها من رأسها، كانت حركتها بدت أخف من شدة قبضته عليها والتي لا تتناسب مع ثقل جسدها وتعب حملها، اقترب منها وهو يقول لها:

- أقسمت أن لا أجعل أحدًا من آل ياسين أحياء.

كانت كلماته لا تحمل في طياتها أدنى شك عما كان ينوي أن يفعل، إلا من ذلك الاستدراك الذي كان لا يخلو من السخرية:

- ولكني الآن أخشى على صغيرك الذي في بطنك.
تعالَتْ ضحكاته بينما يلتفت إلى بنيامين الواقف خلفه يقول له:
- بنيامين، تتوقع ما في بطنها ذكر أم أنثى؟
- بالتأكيد أنثى، العرب لا يلدون رجالاً.. كلهم نساء.
لم تعجبه مداعبة بنيامين فمدَّ يده بورقة نقدية يضعها أمامه:
- تراهن على مثل هذه أنه ذكر؟
- وأنا قبلت الرهان.

كانت دقات قلب الجميع تكاد أن تتوقف، فما ينوي أن يفعله ذلك المجنون؟ ألقى بن تيسون عابدة على الأرض كانت صرخاتها مكتومة من الرعب، حتى آلام ارتطامها بالأرض لم تشعر بها وهي تراه يتقدم نحوها.
في لمح البصر كان سُنكي بندقيته الآلية تشق بطنها نصفين. كانت صرخات الفرع من النساء تكاد أن تصم الأذان بينما يخرج بن تيسون بيده المملختين بالدماء الجنين من رحمها يرفعه إلى وجهه ينظر إليه ويتدلى منه الحبل السري متعلقاً برحم والدته قبل أن يلقيه على الأرض مرة أخرى هو يقول لبنيامين:
- أنا كسبت الرهان.

ثم مدَّ يده يلتقط العملات النقدية قبل أن تتطلق من بندقيته طلقة في صدر عابدة التي كانت تصارع الموت وسط دمائها وأحشائها التي خرجت من بطنها ترتعش على الأرض وكأن ما زالت بها الروح، بينما أكمل حديثه إلى بنيامين بصورة أكثر جدية:

- الولد مع أم ياسين وهي ليست هنا، لو كانت هنا لانفطر قلبها على ابنتها، ابحت عنها وائتِ بالولد.

قدّم له بنيامين التحية العسكرية بينما همّ الجميع يغادر المسجد حتى شعرت بعض النساء بالراحة إلا من تلك الحركة المباغطة التي عاد بها بن تيسون مرة أخرى يتفحص وجوه النساء وكأن دماء عابدة التي لم تجف على الأرض لم ترو ظمأ القتل في قلبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(10)

07.35 صباحًا

كانت أصوات الطلقات النارية تقترب من حولها، أصوات صراخ النساء من نوافذ البيوت تقص ما حدث على مداخل القرية، سمعت وداد عن تلك الحامل التي بقروا بطنها رهانًا على نوع الجنين به! لم يكن لديها أدنى شك أنها فقدت نجليها. كان صراخها يسمعه الجميع، يغطي على صراخ الصبي الصغير المتلحف في ملاءة بيضاء لا يعي من مكر الدنيا شيئًا، صوت صراخه ربما يجذب انتباه اليهود إليه فيحددون وجهتها. لن تسمح لهم بأن يأخذوه، لن يكون حفيدها يهوديًا صهيونيًا مهما كلفها الأمر.

نظرت إليه وقد استجمعت شتات أمرها، قالتها لياسين ولا تدري من أجراها على لسانها، ولكن بيد أنها يد القدر تسوقها نحو مصيرها المحتوم.

كانت أصوات المدرعات الصهيونية تقرب من الحي حينما ساد السكون بمجرد وصولها فبدا صوت محركاتها أعلى، هدأت الأصوات وتعالقت بين الحين والآخر صوت نباح وعويل مباشرة بعد صوت إطلاق نار، لم يكن هناك شك، جاءوا يقتلون حتى من أغلقوا عليهم دارهم.

اقتربت من النافذة على مهلٍ تشاهد تلك الضجة، كانت عربة مدرعة يقف بجوارها شخصان - أحدهما يرتدي على رأسه كيسًا من الخيش يخفي ملامحه - يشير إلى أعلى البناينة التي تقطنها، كانت على يقين من أنهم يقصدونها، ضمت إليها الصغير بينما حاولت أن تخرج من باب الغرفة لكن صوت أقدام متلاحقة على السلم منعها من فتحه.

اختبأت به بجوار سرير الغرفة، كانت عيناها الذائغتان تنتقلان بين باب الغرفة ووجه الرضيع الذي لم يكف عن الصراخ، تترقب بين اللحظة والأخرى اختراق رجل صهيوني لحرمتها وخطف الطفل، ضمت الصغير إليها أكثر، حزن لم يكن كافيًا لتهدئته، زادت صرخاته التي كاد تدوي في فضاء السكون يفضح أمره، لا تعرف كيف عليها فعلها ولكنها لم يكن أمامها حل آخر أخذت القرار وليس منه مفر، أدارت رأسها الجهة الأخرى بينما تمتد يدها إلى رأس الطفل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لحق أسامة مع سليم أبو زيد بالقرب من المسجد ياسين، كان يقف يتربص الموقف حتى شعر بهم فخطبهم:

- هؤلاء المجرمون الآن مع النساء بالمسجد، لن نترك شرفنا مضغة في فم هؤلاء الكلاب.

تقدم منه أسامة وهو يخاطبه:

- لن نتركهم يا ياسين.

قالها وقد انطلق مسرعًا من جوارهم متوجهًا إلى باب المسجد مشهرًا سلاحه صائحًا
(الله أكبر، الله أكبر) حتى التفت إليه اثنان كانا على حماية باب المسجد من الخارج
فانطلقت مدافعهم الرشاشة في صدر أسامة أردته قتيلاً قبل أن يخترق الباب، تبادل
ياسين بصحبة سليم أبو زيد الرصاص مع هؤلاء المجرمين قبل أن يوفر ياسين
لسليم الغطاء لتمتد يده يجذب بها أسامة الذي كان يصارع الموت ولفظ أنفاسه
الأخيرة بين يديه. وكان قدره الذي انتدبته فيه إرادة السماء أن يحمل جثامين أبنائه
الثلاثة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(11)

07.37 صباحًا

هدأت أصوات الرصاص بالخارج بينما كانت نظرات الرعب على وجوه النساء من عودة بن تيسون تتبعه تلك الشرذمة إلى المسجد، بعد أن لفت انتباهه شيء! تلك المنتقبة التي تغطي وجهها منذ أن دخلوا، كان يريد أن يكسر كل شيء يمكن أن يتمسك به العرب، تلك المنتقبة التي تخشى على وجهها أن يُكشف، ستكشف عورتها الآن أمام الجميع.

التفت إليها، كانت تقف بجوارها إحسان التي لم تفارقها منذ أن دخلت معها المسجد، وما إن تقدم بن تيسون يرفع من على وجهها الوشاح حتى اعترضته إحسان بكل جسدها فوقفت حائلًا بينه وبين ذات الوشاح، ظهرت علامات الغضب على وجه بن تيسون وهو يزيح إحسان بكل قوته من أمامه بينما يده تمتد ترفع الوشاح عن ذلك الوجه الذي كانت ارتعاشته بادية أمام الجميع حتى ظهر وجه (حيدر) أمامه. تعالت ضحكات بن تيسون وهو يقول:

- صدق بنيامين؛ العرب لا تلد ذكورًا، كلهم نساء.

لم يتسنَّ لإحسان مرة أخرى العودة لحماية ابنها فانطلت طلقة في صدر حيدر أردته قتيلاً في الحال بينما ارتمت عليه إحسان تصرخ وتلطم وجهها بكلتا يديها عليه، حتى عندما حاول جندي صهيوني إزاحتها من فوقه كادت قبضتها القوية عليه أن تمزق جسده فهمَّ أن يقتلها فمنعه هذه المرة بن تيسون:

- لا تقاتلها فتريحها؛ دعها تحيا باقي عمرها بحرقه قلبها على ابنها الذي قُتلَ أمامها.

غادر الجميع المسجد بعد أن سلبوا النساء مصوغاتهن وقتلوا منهن من قتلوا، ظهرت السعادة بادية على وجوههم وهم يغادرون المسجد بينما عين ياسين التي كانت ترصدهم يشتعل فيها الخوف والحقد على مصير النساء وأخته الذي بات على يقين أنه ربما لم ينجُ أحدٌ منهم ولكن أيًا كان المصير أصبح هدفه الوحيد الآن في هذه الدنيا هو قتل بن تيسون بيده.

ما إن تأكد ياسين من مغادرة تلك الشرذمة للمكان حتى همَّ عائداً إلى المسجد، كانت الصورة أمامه لا يمكن وصفها، أصوات الفزع وصرخات النساء لم تتوقف بينما صراخ إحسان التي ما زالت تحتضن جثة حيدر يعلو المكان؛ وفي الناحية المقابلة كانت عابدة، تلك الصغيرة التي كان يلهو معها ويظللها سقف منزل واحد ملقاة على الأرض غارقة في دماؤها وأحشاؤها خارجها بجوار جنينها الذي لم تهنأ يوماً منذ أن علمت بحمله.

غادر ياسين المكان، عليه أن يلحق بوداد قبل أن يصل إليها بن تيسون، عليه أن يهربها بصغيره خارج القرية قبل أن يتسنى له الانتقام منه، أصبح الثأر بينهما شخصيًا الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زادات الطّرقات على باب غرفة وداد، تيقنت أنه لن يصمد أمام طرقهم، نزلت دمعة من عين وداد وهي تطبق بكلتا يديها على فم حفيدها وأنفه، زادت ارتعاشات الرضيع تحت يدها مع تتابع أصوات الطّرق على باب الغرفة، زادت معها قبضتها على رأسه حتى هدأت أنفاسه وفاضت روحه البريئة إلى خالقها، بينما انخلع باب الغرفة ليدخل منها بنيامين مشهراً فوهة مدفعه الرشاش في وجه وداد.

لم تعبأ به وداد، لم ترفع حتى رأسها لترى من الذي اقتحم غرفتها، كانت جالسة على الأرض تبكي بحرقة وهي تحتضن حفيدها التي قتلتها بيدها منذ لحظات غير عابئة بتلك الطلقة التي باتت على يقين أنها ستصل إليها قبل حتى أن تسمع صوتها، بينما تقدّم منها بنيامين ينتزعها منها وهي تنظر إليه بكل حقدٍ وتقول:
- أقسمت ألا تأخذونه إلا جثة.

انطلقت طلقة من بندقية بنيامين إلى صدر وداد فأردتها قتيله في الحال بينما يتقدم بلهفة من خلفه بن تيسون الذي كان يتصور أن بنيامين قد قتل الولد، فخاطبه مدافعاً عن نفسه بمجرد أن شاهده يقف يتأمل ذلك المشهد من على باب الغرفة قائلاً:

- لقد قتلت تلك العربية حفيدها بيدها.

- حسناً؛ فعلت ما كنت أنوي أن أفعل.

- والصغير؟!!

- اتركه بجوارها، سيأتي ياسين للبحث عنه بالتأكيد، ما يروي ظمئي من الدماء إلا دمه هو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(12)

08.25 صباحًا

هذا هو قدره، أن يقف مكبل اليدين بينما يشاهد تلك العصابات تحصد أرواح أهله الواحد تلو الآخر دون أن يستطيع أن يدافع عنهم بشق صرخة تطفئ نار قلبه، تقدّم ياسين نحو البيت، شاهد من بعيد سيارة بن تيسون تغادر المكان بمفرده، كانت أياديهم خالية ربما استطاعت وداد أن تقر بالرضيع في الوقت المناسب، تسلل إلى البيت عبر الحائط الخلفي، وإن كان على يقين من المشهد الذي في انتظاره، أمه وابنه ملقيان على الأرض غارقين في الدماء. فتح باب الغرفة، كانت تهديدات وداد الأخيرة تملأ فراغها، تقدم منها وعينه تدور في فراغ المكان تبحث عن ولده، كانت وداد ترى تلك النظرة في عينيه فقالت له بصوت ينازع الموت منقطع:

- اطمئن يا ياسين، لم يأخذوا الولد، قتلته بيدي حتى لا يأخذه اليهود، سامحني يا ولدي.

قالتها وداد وقد فاضت روحها إلى بارئها، ماتت بين أحضانه، وهو لا يعلم بماذا يشعر الآن تجاهها، ضمها إليه وهو يصرخ بينما عيناه انتبهتا أخيرًا إلى تلك الكومة البيضاء التي كان مدثرًا بها ولده، تقدم منه يحمله، لم يترك له القدر الفرصة ليمتد نظره منه إلا وهو جثة هامة، ضمه إليه وغادر الغرفة وهو لا يعلم إلى أين يتجه، ربما يكون كمينًا نصبه بن تيسون للنيل منه، ولكن لا يهم الآن؛ لقد فعلت وداد ما لا يتحمله بشر من أجل أن تحافظ عليه، تحافظ عليه حتى بالموت، ولن يتركه الآن لهم حتى ولو جثة.

بينما يغادر ياسين باب المنزل حتى وجد بنيامين يقف أمامه بابتسامة المتشفي هو يقول له:

- أقسم بن تيسون أن يقتل كل أهلك، لم يبقَ غيرك يا ياسين.

كان ياسين هادئًا، هدوءًا لم يتوقعه بنيامين، حتى إنه توقع حينما شاهده يضع رضيعه على الأرض بجوار الحائط، أن يأتي يقبل الأرض تحت قدمه ليسترحمه، وما هي إلا لحظات قليلة لم يتوقع فيها بنيامين سرعة رد الفعل حتى انطلق ياسين مسرعًا نحو بنيامين ملقيًا بجسده عليه بحركة شلت كل جسده وأحكمت تقيده وهو يقول له:

- وأنا أقمت ألا يغادر أحدٌ منكم القرية حيًّا، فلنرَ من منا سيرر بقسمه.

كانت يد ياسين الفتية تحكم الوثاق حول عنقه، ظهرت نظرات الرعب في عين بنيامين وهو يصارع الموت، كان حقد تلك السنوات التي عاشها ولحظات الرعب التي شاهدها الآن كفيلا بأن لا تجعل بنيامين يفر من تلك القضية حتى استسلم للموت بين يدي ياسين الذي ألقى به على الأرض والتفت إلى صغيره يحمله من جديد.

يبقى أمامه مهمة واحدة؛ هي بن تيسون وبعدها يكون قد أدى كل ما عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يسير وسط طرقات القرية ومن خلفه أصوات صراخ النساء ممزوجة بأصوات الطلقات النارية المتبادلة مع بعض الرجال الذين ما زالوا يصرون على المقاومة، رائحة النيران التي كانت مضرمة في المباني والبيوت تفوح منها رائحة الدم التي باتت تغرق كل القرية بينما يتقدم ياسين نحو شجرة الزيتون، صديقه الأبدية، أول من استقبله وآخر من سيودعه، وسيودع ابنه تحت ترابها، لن يجد خيراً منها يودعها أمانته الأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقبلت حياة جثة أسامة بنفس الزغرودة التي لم تنقطع عنها، اقتربت منه كانت ابتسامة سعادة على وجهه حتى في الموت، قالت بصوت مسموع للجميع:
- لعلي أحظى بما يسعدك الآن يا ولدي، إن فرقنا دروب الحياة ستجمعنا الجنة ونعيمها.

تقدم منها سليم وهو يقول لها بكلمات خالية من أي تعبير:

- لقد سقطت القرية في يد الصهاينة، يجب أن تهربي بالأولاد الآن، لا وقت لدينا لندافع عنكم يجب أن نقرر مصيرنا مع هؤلاء المجرمين. يجب أن أعود نحاول تجميع الرجال مرة أخرى عند العصارة. سنحاول أن نفتح لكم طرقاً للهروب.
لم ينتظر منها رداً، غادر المنزل مباشرة وترك حياة في حيرة من أمرها إلى أن نادى على سليم بن سحر فاقتربت منه تحدّثه بصوت هامس، كان أكبر الأطفال سناً ولا يمكن الاعتماد على غيره في تلك المهمة:

- سليم، استمع إلى كلامي جيداً، اخرج من البيت متسللاً حتى لا يراك أحد واذهب إلى جدك سليم عند العصارة، أخبره أن كل من في البيت مات وقُتلت كل النساء، ولا تعد يا سليم، تسلل عبر القباب إلى قرية (عين كارم) حتى تأتي لك.

كان سليم رغم صغر سنه يحفظ الكلام جيداً، يشعر بالمسؤولية التي أوكلتها له حياة فتحرك بسرعة لتنفيذ ما أمرته به، بينما حياة تنظر إلى باقي النساء وهي تتحدث مع نفسها:

- يجب أن لا نشغل الرجال بنا.

ثم امتدت يدها تمسك ببندقية قديمة وهي تكمل حديثها:

- أما مصيرنا فسنقرره نحن بأيدينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(13)

14.00 ظهرًا

في تمام الثانية ظهرًا ساد الهدوء القرية بعد أن هدأت تهديدات الموتى وانطقت النيران، تم إلقاء الجثث في بئر القرية لإخفاء الجريمة عند قدوم الصليب الأحمر، بينما سيق الناجون من المذبحة مكبلين الأيدي أمام حائط إحدى المباني، ابتعد الشيوخ والنساء بينما بقي الشباب وجوههم إلى الحائط قبل أن يطلق بن تيسون إشارته إلى ثلاثة جنود بفتح النيران عليهم وهم مكبلو الأيدي فأردتهم قتلى في الحال.

لم يبق في القرية سوى درويش مجذوب يسير يهذي بكلام غير مفهوم، وإحسان التي يبدو أنها فقدت عقلها بعد مقتل ابنها وسارت هي الأخرى تهذي وسط طرقات القرية المتهدمة منازلها.

وقف بن تيسون وهو يحمل بندقيته الآلية على كتفه يتأمل جثث الأهالي الملقاة على الأرض بينما يقلب فردان آخران جثث الضحايا ليتأكد إن كان منهم أحد ما زال على قيد الحياة فيطلق عليه من رصاص بنادقهم ما يصرعهم قتلى في الحال حينما قال بن تيسون بأريحية وكأنه يخاطب نفسه:

- أحب الأصوات إلى قلبي، صوت تهديدات العرب قبل الموت.

ثم التفت يمينًا إلى جندي كان بجواره يخاطبه بصوت أعلى هذه المرة يسمعه الجميع:

- اجمع من تبقى أحياء من أهل القرية في شاحنات، اشحنوهم كما يشحن البعير، سنمر بهم في موكب نصر بالأحياء اليهودية المجاورة، يجب أن يعلم الجميع ما حققناه اليوم من نصر، يجب أن يستمتع أبناء إسرائيل بنظرات الذل في عيون الرجال والنساء العرب، بنظرات الرعب في عيون أطفالهم. لن ترفع بعد اليوم هامة للعرب، وإن رأيتم رأسًا عربية مرفوعة دوسوا عليها بنعالكم قبل قطعها.

بينما انصرف بعض الأفراد لتنفيذ أوامره، سيق الرجال والنساء الناجون من تلك المذبحة في سيارة نصف نقل كما يساق البعير. نظر إبراهيم الصباغ إلى سليم أبو زيد وهو مبتسم ويقول له:

- تعلم لماذا أنا سعيد الآن رغم كل ما حدث؟ أنها نهايتنا الطبيعية نهاية كل من يأمن لليهود ولكن لعل الأجيال القادمة تتعلم الدرس، ليتنا وثقنا بالشباب، لقد أضاعت حكمة شبيبتنا الأرض يا صديقي.

غادرت السيارات المكان بينما وقف بن تيسون هو يتأمل مشهد القرية وألسنة اللهب والدخان تخرج من كل أرجاء القرية، وكأنها خاوية على عروشها، بينما اقترب جندي من بن تيسون بدا على أنفاسه الإرهاق من سرعة العدو وهو يخاطبه بكلام غير مسموع تهللت له أساريره وهو يغادر المكان مسرعًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(14)

وقفت حياة زيدان على باب دارها تمسك في يدها مدفعها الرشاش مع صوت اقتراب المدرعات العسكرية، وما إن اقتحمت المدرعة سور المنزل حتى أطلقت النيران بغزارة وبكل قوة على ثلاثة صهاينة كانوا يقتحمون الردهة الرئيسية للمنزل فأردتهم قتلى في الحال، في حركة مباغته بعد أن ظن المقتحمون أن القرية قد استسلمت تمامًا.

فترجع الباقي بينما تبادلوا إطلاق النيران مع من في الداخل وهم يتوقعون أنها بؤرة مقاومة أخيرة يحتمي بها بعض الرجال، استمر تبادل إطلاق النيران عدة دقائق من خلف السور الذي يختفي خلفه الصهاينة غير قادرين على اقتحامه، حتى تيقنوا من فراغ ذخيرتهم.

لم يكن لديها ذخيرة أخرى، ولا كانت تعلم كيف تستبدل الذخيرة النافذه فتوقف إطلاق النيران من تجاهها فتيقن الجنود الصهاينة من نفاذ ذخيرة من في البيت فتم اقتحامه على حذر منهم؛ لتكون المفاجأة، امرأة وحيدة تقف على باب المنزل تمسك سلاحًا قديمًا بمفردها بينما تختبئ باقي النساء في البيت. انطلقت رصاصات من جنديين اقتحما بوابة المنزل في صدر حياة التي استقبلتها راضية النفس بينما يتقدم من خلفهم عدد آخر من الجند في حذر من أن يكون يختبئ خلف تلك المرأة من هم أشد منها خطورة حتى اقتحموا المنزل فلم يجدوا إلا بعض النساء المختبئات خلف الأرائك بينما ثلاث جنث متجاورين على الأرض.

تقدم أحدهم، يبدو أنه قائدهم، يطلب منهم اصطحاب النساء إلى الساحة وإلقاء الجنث في بئر القرية، بينما يتقدم الباقي لتنفيذ الأوامر حتى تقدم سليم ابن أسامة يقطع الطريق بينهم وبين جنّة أبيه وأعمامه، طفل ابن التاسعة من عمره يقف بكل شجاعه أمام جند مدججين بالسلاح يقو لهم:

- لن أسمح لكم بأن تأخذوا جنّة أبي وأعمامي إلا على جنثي.

أثارت كلماته البرئية سخرية الجميع، تعالت ضحكاتهم بينما تقدم أحدهم يصفعه على وجهه صفقة ألقت به على الأرض في حين أخذ جنديان آخران يحملان الجنث حتى استعاد الصبي وعيه وتشبث في قدمه يعيق حركة، كانت يده أقوى من ذلك الإرهابي فالتفت إليه مصوبًا بندقيته في رأسه فأردته قتيلاً وسط صرخات النساء والأطفال الذين اقتيدوا بعد ذلك إلى مكان غير معلوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(15)

كانت تلك الأعين تراقبه عن بُعدٍ، بعد أن أرسلت إلى بن تيسون تخبره بظهور ياسين حتى لا تفقد أثره. تقدم ياسين نحو شجرة الزيتون، تلك الشجرة التي ألقت بظلالها على حبه بإيلان، لا يعلم لماذا فعلت ذلك، هل أرادت أن تكوي قلبه بفقدان ابنه أكثر من فقدان أمه وأخته، هل أرادت أن تجعل له في الدنيا عزيزاً ليقصص منه هؤلاء الجناة.

مال إلى أسفل الشجرة وهم يحفر بيده. كانت أشعة الشمس في أشد وهجها عندما وجد ظلاً يقترب منه، وضع الصغير بجواره على الأرض ورفع رأسه يشاهد من القادم، تمنى أن تكون هي؛ تمنى رغم كل ذلك الحقد الذي يسيطر على قلبه أن تكون آخر من تراه عينه في هذه الدنيا، ولكنها بخلت عليه بذلك.

كانت عين بن تيسون التي تملأها الحقد تقف أمامه، ابتسامة التشفي في وجهه، وفوهة البندقية مصوبة نحو رأسه، خلفه ثلاثة من الرجال مصوبون أسحتهم نحوه. رفع ياسين هامته، لن يموت راکعاً تحت أقدام الكلاب.

نظر إليه بن تيسون وهو يقول له:

- كنت أعرف أنني سأقتلك يوماً بيدي يا ياسين منذ أن رأيتك أول مرة.

- حتى إن قتلنتي، سيأتي من يقاتلك بعدي، سيحاربكم الشيوخ في المساجد، سيحاربكم القساوسة في الكنائس، ستحاربكم النساء المتشحات بالسواد على أبنائهن، سيحاربكم حتى الأجنة في بطون أمهاتهن، سيحاربكم أبناؤنا لألف جيلٍ. ستحاربكم أشجار فلسطين وحجارتها. وإن قتلتم أهل دير ياسين جميعاً لن تظفروا بها، إن لهذه الأرض رجالاً لن يتركوها حتى إن تخلى عنها كبارؤها.

بينما يتبادلان نظرات الحقد بينهما تقدمت إيلان، كانت أنفاسها لاهثة من عدوها تلك المسافة كلها منذ أن علمت بخبر سقوط دير ياسين في قبضة بن تيسون، وقفت بينهما، بينما تشاهد ابنها ملقى على الأرض، امتدت إليه يدها تحمله، تضمه إلى صدرها وهي تصرخ تلك الصرخات التي لم تستطع أن توقف بن تيسون وهو يقول لها:

- جنّت في موعديك، كنت أتمنى أن تشاهدي تلك النهاية.

قالت له برجاء وهي تركع تحت قدميه:

- لا تفعلها بحق التوراة، لا تفعلها وسأبقى طول حياتي خادمة تحت قدميك، ارحمه وأعاهدك أن لا أعصي لك أمراً بعد اليوم. أنا من تسبب في كل ذلك. ليس له في الأمر شيء.

تقدّم منها ياسين يرفعها من على الأرض وهو يخاطبه بينما عيناه تتحديان عين بن تيسون بنظرة كاد يشك فيها أنه هو الأقوى:

- لن أعيش طريد شفاعة امرأة، افعلها إن تقدر، لقد تحملت وداد ما هو فوق طاقة البشر من أجل أن تحمي حفيدها منكم، ولن أكون أقل منها شجاعة.

سئم بن تيسون من الحوار مع ياسين، لم يستطع أن يرى نظرة الانكسار في عينيه حتى في لحظة الموت، فأفقدته متعة التشفي فيه. انطلقت طلقة من فوهة بندقيته في رأس ياسين، أردته قتيلاً في الحال، بينما يغادر المكان ألقت إيلان جسدها على ياسين تحتضنه، كانت تضمه إليها بشدة وهي تتادي عليه:

- ياسين، هذا قاسم ابنا، هيا نهرب بعيداً عن نيران العرب واليهود، سنحيا معاً في سلام بعيداً عن ذلك الحقد، هياً ياسين، قم معي، المستقبل في انتظارنا.

كانت تتادي فلا مجيب، حاولت أن ترفعه لم تستطع، كانت بندقيته بجواره، أمسكت بها بلا تردد، تأملت السنكي في مقدمتها جيداً قبل أن تغالب خوفها وتمزق به أحشاءها لتجهم ظلال شجرة الزيتون حتى في الموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التفت بن تيسون إلى من يقف خلفه من رجاله وقد بدا أهدأ من ذي قبل وهو يقول لهم:

- بعد أن تفرغوا من البشر اقتلوا كل كائن حي، اقتلوا حتى الحشرات في جحورها، اخلعوا الأشجار من جوف الأرض، خصوصاً شجرة الزيتون اللعينة تلك، لا أحب أشجار الزيتون، يجب أن تتساوى القرية كلها بالأرض قبل حلول المساء يجب أن نظهرها من كل دنس عربي.

اقترب خمسة من رجال بن تيسون بمعاولهم يجزون جذع شجرة الزيتون في سعادة بالغة بينما تتأملهم عيناه وهو يشاهد تلك المعاول تقطع غصون شجرة الزيتون وتجردها من أوراقها كما تجرد الفتاة من ملابسها قبل الاغتصاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(16)

شجرة الزيتون

15.15 عصرًا

الأشجار لا تتحني، بل تموت واقفة. فكنتُ شامخةً للنهاية وأنا أشاهد السنة اللهب المتصاعدة تلتهم بيوت القرية. كنت أعلم أن الموت ضريبة عشق الأوطان، لم أهنئ ولن أكون أقل صبرًا من أهل القرية.

تقدّم مني هؤلاء الجند منتعلين فوق الغيم، يجزون فروعني التي طالما اتخذها البشر رمزًا للسلام، بلا شفقة ولا رحمة. وأوراقني الخضراء تتساقط كالزمرد على الأرض، تسحقها أحذيتهم الملطخة بدماء أهل القرية.

أنا بنت الشقاء، وربيبية القسوة، ورفيقة الجفاء، وزميلة الدهر. أذكر عهد مولدي، فقد تسربت جذوري في الصخور كما تسربت في أعماق الزمن. ومرت القرون في حياتي كالدقائق والثواني في حياة البشر. عاصرتُ الرسل والطغاة، وخلدتني الكتب السماوية والرواة. أنا أنمو في الشقاء، وأنتعش في القسوة، وأدر في الشدائد.

وها قد سقطت مع الأيام من قسوة البشر، لم أسقط من آخر ضربة معول، بل سقطت مع أول قطرة دم سالت على جزعي، سقطت مغلوبة بعد أن سقطت مدينة القدس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت هذه قصة شجرة، وُجدت فوق تلال الموتى، تحت رفات كرامة أمّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

وليد حسن المدني

20-09-2021

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



متميزون للكتب النصية



لينك الانضمام الى الجروب - Group Link

لينك القتاة - Link

الفهرس..

عن الرواية..

تمهيد

(1).

شجرة الزيتون.

(2).

أسطورة

(1931-1933).

الفصل الأول

(1).

(2).

(3).

(4).

شجرة الزيتون.

(5).

الفصل الثاني

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

شجرة الزيتون..

(7).

(8).

الفصل الثالث

(1).

(2).

شجرة الزيتون

(3)

(4)

(5)

(1935-1945)

الفصل الرابع

(1)

(2)

شجرة الزيتون

(3)

(4)

(5)

(6)

(7)

شجرة الزيتون

(2)

(3)

(4)

(5)

الفصل السادس

(1)

(2)

(3)

مشهد خلفي

(4)

(5)

(6)

(7)

(8)

(9)

(1946-1947)

الفصل السابع

(1)

(2)

(3)

الفصل الثامن

(1)

(2)

شجرة الزيتون

(3)

(4)

شجرة الزيتون

(5)

(6)

(7)

مشهد خلفي

(8)

1948

الفصل التاسع

(1)

(2)

(3)

(4)

(5)

(6)

(7)

(8)

(9)

مشهد خلفي

الفصل العاشر

(1)

(2)

مشهد خلفي

(3)

(4)

(5)

مشهد خلفي

(6)

(7)

(8)

مشهد خلفي

الفصل الحادي عشر

(1)

(2)

(3)

(4)

(5)

(6)

(7)

(8)

(9)

(10)

(11)

(12)

(13)

(14)

(15)

(16)

شجرة الزيتون